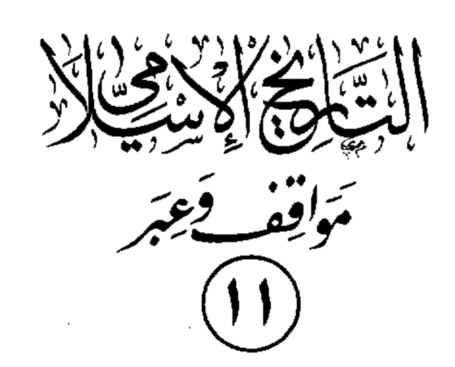




الجزء الثالث

تأليف

دكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مواقف وعبر

فى

معركة اليرموك

إستعداد الروم للمعركة :

أخرج أبو إسماعيل محمـد بن عبد الله الأزدي من خبر عبد الله ابن قـرط الثمـالي « أن أهل إيليـاء وأهل قيسـارية بعد يوم «فـحل» تواصـوا واجتـمع رأيهم على أن يبـعثـوا وفـدًا إلى ملك الروم هرقل بأنطاكية ، فيخـبرونه بتمسُّكهم بأمره وإقامتهم علـى طاعته وبخلافهم العرب وكـراهيتهم لهم ، ويسألونـه المدد والنصر، وإلا أمكنوهم من أنفسهم .

فلمـا أن جـاءه هذا رأى أن يبعث الجنـود، ويقيم هو بأنـطاكيـة فأرسل إلى رومـية وإلى القـسطنطينية وإلى من كـان من جنوده وعلى دينه من أهل الجزيرة وأرميـنية، وكتب إلى عُمّاله أن يحـشروا إليه كل من كان أدرك الحلم من أهل مملكته، فما فوق ذلك إلى الشيخ الفاني، فأقبلوا إليه ، وجاء منهم مالا تحمله الأرض .

وجاءه جُرجير صاحب أرمينية في ثلاثين ألفًا .

وأتاه أهل الجـزيرة ، وفزع إليه أهل ديـنه، وجميع مـن كان في طاعته منهم .

ودعـا باهان ، وكان من عظمـائهم وأشـرافهم، فـعقـد له على ثلاثمائة ألـف رجل، ووجّه معـه قوّاده وجنوده، وأمر لـهم بجوائز، وأعطى باهان مـائتي ألف درهم، ثم أعطى الأمـراء مـائة ألف درهم لكل واحد منهم .

وقال لهم : إذا اجتمعتم فأمـيركم باهان ، وقال: يامعشر الروم، إن العرب قد ظهروا على سورية، ولـم يرضوا بها حتى تعاطوا أقاصي

بلادكم، وهم لايرضـون بالأرض والمدائن والبُـرّ والشـعـيـر والذهب والفضة حتى يسبوا الأخـوات والأمهات والبنات والأزواج ، ويتخذوا الأحرار وأبـناء الملوك عبـيدًا ، فـامنعوا في حـريمكم وسلطانكم ودار مملكتكم .ثم وجههم إلى المسلمين »(١) .

وهكذا سعى هرقل في جمع هذا الجيش العظيم وقرر أن يخوض آخر معركة مع المسلمين ليكون القـرار النهائي بعدها، من تثبيت حكم الروم في سوريا بعد الانتصار أو الرحيل النهائي بعد الاندحار .

وبعد أخذ التجربة الكافية من المعارك السابقة تبين لهرقل أن الفرق شـاسع بين جنود الـروم وجنود المسلمين ، حـيث يتَّـسم المسلمـون بالشجـاعة الخـارقة ، وسرعـة الحركة، والتـخطيط الحربي المتـفوق، والتصرف الفـوري عند حدوث المفاجآت، بينما لاتتوفـر هذه الصفات العالية لدى جيش الروم .

ومن أجل أن يغطي هرقل هذا الفرق الشاسع فقـد قرر أن يحشد كل مالدى الروم وأحلافـهم من قوة حربية في الرجـال والعُدَد، حتى يقـابل الروم الفرد المسلم بعـشرة أضـعافـه ، فيـشغلوا بذلك جـيش المسلمين عن التمتع بالصفات السابقة التي يتفوقون بها .

ومن أجل ذلك سعى هرقل حثيثا في جمع هذا الجيش الضخم.

مشورة أبي عبيدة مع قادته :

قال الأزدي في سيـاق روايته : فقدمت عيـون من قِبَلهم [يعني المسلمين] فأخبـروا بمقالة هرقل ملكهم، بمسيرهم إلينا وبجـمعهم لنا،

---

(١) فتوح الشام للأزدي / ١٥١ - ١٥٣ ، وانظر تاريخ دمشق ٢/ ١٤٤ .

ومن أجلب علينا معهم ومن غيرهم ممن كان على دينهم وفي طاعتهم.

فلما جاء أبا عبيدة خبرهم وعددهم وكثرتهم، وما أقبلوا به من غيرهم ممن كان على دينهم وطاعتهم من الجنود رأى ألا يكتم ذلك المسلمين، وأن يستشيرهم فيه لينظر مايؤول إليه رأي جماعتهم.

فدعا رءوس المسلمين وذوي الهيئة والصلاح منهم ، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ ، ثم قال :

أما بعد ، فإن الله عز وجل وله الحمد قد أبلاكم أيها المؤمنون فأحسن البلاء عندكم ، وصدقكم الوعد، وأعزّكم بالنصر، وأراكم في كل موطن ما تُسرُّون به، وقد سار إليكم عدوّكم من المشركين بعدد كثير ، ونفروا إليكم فيما حدثني عيوني نفير الروم الأعظم، فجاؤوكم برًّا وبحرًا ، حتى خرجوا إلى صاحبهم بأنطاكية، ثم قد وجّه إليكم ثلاثة عساكر ، في كل عسكر منها ما لا يحصيه إلا الله من البشر، وقد أحببت ألاَّ أغرَّكم من أنفسكم، وألاَّ أطوى عنكم خبر عدوّكم، ثم تشيرون عليَّ برأيكم، وأشير عليكم برأيي، فإنما أنا كأحدكم .

وقد تبادل أبو عبيدة المشورة مع قادته واستقر رأيهم أخيرًا على أن يغادروا مدينة «حمص» وأن يتشاوروا مع بقية القادة في الشام ثم يختاروا مكانا مناسبا للاجتماع ومواجهة الروم فيه ، قال : ثم بعث إلى حبيب بن مسلمة ، وكان استعمله على الخراج، فقال له : انظر ماكنت جبيته من الخراج من حمص فاحتفظ به حتى آمرك فيه بأمري، ولاتجبينَّ أحدًا ممن بقي من الناس حتى أحدث إليك في ذلك .

فلما أراد أن يشخص دعا حبيب بن مسلمة فقال: اردد على القوم الذين كنا صالحناهم من أهل البلد ماكنا أخذنا منهم ، فإنه لا ينبغي لنا إذلم نمنعهم أن نأخذ منهم شيئًا، وقل لهم: نحن على ماكنا عليه فيما بيننا وبينكم من الصلح لانرجع فيه إلا أن ترجعوا عنه ، وإنما رَدُّنا عليكم أموالكم أَنَّا كرهنا أن نأخذ أموالكم ولانمنع بلادكم، ولكنا نتنَحَّى إلى بعض الأرض ونبعث إلى إخواننا فيقدموا علينا ثم نلقى عدوّنا فنقاتلهم ، فإن أظفرنا الله بهم وَفَيْنَا لكم بعهدكم إلا أن لاتطلبوا ذلك .

فلما أصبح أمر الناس أن يرتحلوا إلى دمشق .

ودعا حبيب بن مسلمة القوم الذين كانوا أخذ منهم المال فأخذ يرد عليهم، وأخبرهم بما قال أبو عبيدة، وأخذ أهل البلد يقولون: ردَّكم الله إلينا، ولعن الله الذين كانوا يملكوننا من الروم، ولكن والله لوكانوا هم ماردّوا علينا، بل غصبونا وأخذوا مع ماقدروا عليه من أموالنا (١) .

هكذا عامل أبو عبيدة أهل حمص وهو في موقف القوة، وكان باستطاعته أن لايرد عليهم ما أخذ منهم بل إن في استطاعته أن يسلبهم مايملكون من أموال، ولكنه الوفاء العظيم الذي لاينبع من مجرد صدوره من نفوس جُبلت على مكارم الأخلاق، بل من الوازع الديني والتقيُّد الدقيق بأحكام الإسلام، فأبو عبيدة يرى أن أخذ الأموال منهم يوقع المسلمين في الإثم لأن من شروط الجزية أن يتولى المسلمون

(١) فتوح الشام للأزدي / ١٥٣ - ١٥٦ بتصرف، وانظر تاريخ دمشق ٢/ ١٤٥ .

حماية أهل الذمة، فإذا لم يستطيعوا حمايتهم فلاحقَّ لهم فيها .

وكان لهذا الموقف العالي أثر عظيم في الدعوة إلى الإسلام حيث تعلَّق أهل البلاد بحب المسلمين ، وتمنوا أن ينصرهم الله على أعدائهم، كما جاء في رواية أخرى أنهم قالوا : لَوَلايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم، ولندفعنَّ جند هرقل عن المدينة مع عاملكم [1] .

رسالة إلى عمر :

أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر سفيان بن عَوْف بن معْقَل قال: بعثني أبو عبيدة بن الجراح ليلة غدا من حمص إلى دمشق ، وقال . ائت أمير المؤمنين فأبلغه عني السلام ، وأخبره بما قد رأيت وعاينت . وبما قد جاءتنا به العيون، وبما استقر عندك من كثرة العدو ، وبالذي رأى المسلمون من التنحِّي عنهم .

وكتب معه : أما بعد ، فإن عيوني قدمت عليَّ من أرض عدوّنا، من القرية التي فيها ملك الروم، فحدثوني بأن الروم قد توجهوا إلينا، وجمعوا لنا من الجموع مالم يجمعوه لأمّة قطُّ كانت قبلنا ، وقد دعوت المسلمين ، وأخبرتهم الخبر ، واستشرتهم في الرأي، فأجمع رأيهم على أن يتنحوا عنهم حتى يأتينا رأيك، وقد بعثت إليك رجلا عنده علم ما قِبَلَنا ، فسَلْه عما بدا لك ، فإنه بذلك عليم، وهو عندنا أمين، ونستعين بالله العزيز العليم، وهو حسبنا ونعم الوكيل، والسلام عليك » .

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري / ١٨٧ .

قال سفيان : فلما قـدمتُ على أمير المؤمنين سلَّمت عليه، فقال: أخبرني عن الناس، فأخبرته بصلاحهم ، ودفاع الله عنهم .

ثم أخذ الكتاب ، فقرأه ، فقال لي : ويحك، مافعل المسلمون؟

فقلت : أصلـحك الله ، خرجت من عندهم ليـلا من حمص، وتركتهم وهم يقولون نصلّي الغداة، ثم نرحل إلى دمشق، وقد أجمع رأيهم على ذلك فكأنه كرهه حتى عرفت الكراهية في وجهه .

ثم قال : لله أبوك ، مـارجوعهم عن عدوهم وقـد أظفرهم الله بهم في غـير موطـن من مواطنهم ، ومـاتركهم أرضـا قد احـتووها وفتحها الله عليـهم ، وصارت في أيديهم؟ وإني أخاف أن يكونوا قد أساؤوا الرأي، وجاؤوا بالعجز ، وجرؤوا عليهم عدوهم .

قلت : أصلحك الله ، إن الشاهد يرى مـالا يرى الغائب، وإن صاحب الروم قد جمع لنا جـموعا لم يجمعهـا هو ولا أحد كان قبله لأحد كـان قبلنا، ولـقد أخبـرنا بعض عيـوننا أن عسكـرا واحدا من عساكرهم مرّوا بالعسكر في أصل جبل، فهبطوا من الثنية نصف النهار إلى عسكرهم ، فما ظنّك أصلحك الله ، بمن بقي منهم ؟

فـقـال : لولا أني ربَّمـا كـرهت الرأي مـن رأيهم، والشيء من أمرهم فأرى الله يُخير لهم في عاقبة ذلك لكان هذا الرأي منهم أنا له كاره .

ثم قال لي : أخبرني ، أَجُمِعَ رأي جميعهم على التحويل؟[قال: نعم] .

قال : فالحمد لله على ذلك ، فإني أرجو أن يكون الله جمع رأيهم على الخير ، إن شاء الله .

قال : فقلت ، ياأمير المؤمنين ، اشدد أعضاد المسلمين بمدد يأتيهم من قِبَلك قبل الوقعة ، فإن هذه الوقعة هي الفيصل فيما بيننا وبينهم، فإن أظفرنا الله بهم وأظهرنا عليهم هذه المرّة هلكت الروم هلاك عاد وثمود .

قال : فقال لي أبشر ، وبشّر المسلمين إذا قدمت عليهم، واحمل كتابي هذا إلى أبي عبيدة ، وإلى المسلمين ، واعلمهم أن سعيد بن عامر بن حِذْيَم قادم عليهم بالمدد ، إن شاء الله [١] .

رسالة إلى أبي عبيدة :

بسم الله الرحمن الرحيم .من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن الجراح وإلى الذين معه من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، والمجاهدين في سبيل الله، سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو أما بعد فإنه بلغني توجّهكم من أرض حمص إلى أرض دمشق، وترككم بلاداً قد فتحها الله عليكم وخلّيتموها لعدوكم ،وخرجتم منها طائعين، فكرهت هذا من رأيكم وفعلكم، وسألت رسولكم عن رأي من جميعكم ؟ فزعم أنه ذلك كان من رأي خياركم وأُولى النُّهَى منكم وجماعتكم، فعلمت أن الله عزّ وجلّ لم يكن ليجمع رأيكم إلا على توفيق وصواب ورشد في العاجلة والعاقبة فهوَّن ذلك عليَّ ماكان دخلني من الكراهية قبل ذلك لتحويلكم .

---

(١) فتوح الشام / ١٥٦ - ١٥٨.

وقد سـألني رسولكم المدد لكم ، وأنا ممدّكم قـبل أن يقرأ عليكم كتـابي هذا، وأشخص لكم المدد من قِبَلي إن شـاء الله ، واعلموا أنه ليس بالجمع الكثير كنا نهزم الجمع الكثير ، ولا بالجمع الكثير كان الله ينزل النصر عليهم ، ولربما خذل الله الجـموع الكثيرة فوهنت، وقلّت وفشلت ولم تغن عنهم فئـتهم شيئا ، ولربما نصـر الله العصابة القليل عددهـا على الكثيـر عددها من أعـداء الله فأنزل الله عليكم نـصره، وعلى المشركين من أعـداء الله وأعداء المسلمين بأسه ورجـزه والسلام عليكم [1] .

وهكذا كـره عمـر رضي الله عنه خـروج المسلمين من حـمص، ورأى أن ذلك يُجَـرِّئ العـدو على المسلمـين، ويرفع من مـعنويتـهم وقدرتهم على قتال المسلمين لظنهم بأن المسلمين هربوا عن مواجهتهم، ولكنَّ عمر مَحَى من نفسه تلك الكراهية لمَّا علم أن ذلك التصرف كان عن إجمـاع من أهل الرأي فيهم بعـد عقد مجلس للمـشورة ، وهذا تقدير منه لاجـتماع كلمـة المسلمين وتفاؤل بأن ذلك هو الخـير، لأن الله تعالى لايجمع رأي أهل الرأي إلا على مافيه الخير والصواب .

وسيأتي أن رأي عـمر هو رأي خالد رضي الله عنهـما وأن مافي نفسـه من كراهية تحوُّل المسلـمين من حمص قد زال حينمـا عرف أن ذلك عن مشورة أهل الرأي وإجماعهم .

وإننا حينما نتأمل في واقع الجيوش الإسـلامية المتفرقة في الشام، وما قام به الروم من سرعة الزحف نحـو المسلمين يتبين لنا أن ماقام به

---

(١) فتوح الشام / ١٥٩ .

أبو عبيدة رضي الله عنه بعد مشورة أصحابه هو الصواب ، لأنه لو كَتب لقادة المسلمين في الشام ليوافوه في حمص فإن هناك احتمالا كبيرًا أن يصل إليه الروم وأن يحاصروا حمص قبل أن يأتي القادة البعيدون ، فيتفرق بذلك جيش المسلمين ، وهم أحوج مايكونون إلى الاجتماع لمواجهة الروم الذين زحفوا مجتمعين .

مشورة أخرى مع القادة :

أخرج أبوإسماعيل الأزدي من خبر عبدالله بن قرط قال، لما صلينا الغداة بحمص خرجنا نسير مع أبي عبيدة حتى قدمنا دمشق، وبها خالد بن الوليد وقد تركنا أرض حمص، وليس فيها منا ديَّار بعد ماكنا افتتحناها، وأَمَّنَّا أهلها، وكتبنا بيننا وبينهم كتابا، وصالحناهم عليها .

قال : فلما دخلنا دمشق أتانا خالد بن الوليد، وضممنا عسكرنا وعسكره فكان واحدًا ، فخلا أبو عبيدة بخالد، فأخبره الخبر، وبمشورة الناس عليه وبالرحلة ، وبمقالة العبسيّ في ذلك[1] .

فقال خالد : أما إنه لم يكن الرأي إلا الإقامة بحمص حتى نناجزهم فيها ، فأما إذا اجتمع رأيكم على أمر واحد فإني لأرجو ألا يكون الله جمع رأيكم إلا على ماهو خير لكم .

فأقام أبو عبيدة بدمشق يومين ، وأمر سويد بن كلثوم القرشي، أن يردّ على أهل دمشق ماكان اجتبى منهم، الذين كانوا أُمِّنوا وصولحوا ، فردّ عليهم ماكان أخذ منهم .

---

(١) يعني ميسرة بن مسروق العبسي، وكان أشار بالرحيل واجتماع جيوش المسلمين في مكان واحد ووافقه على ذلك بقية أهل الرأي .

وقال لهم المسلمون : نحن على العهد الذي كان بيننا وبينكم، ونحن معيدون لكم أمانا ومتمّمون ماكنا صالحناكم عليه [1] .

ثم إن أبا عبيدة جمع أصحابه، فقال لهم: ماذا ترون؟ أشيروا عليّ.

فقال يزيد بن أبي سفيان: أرى أن تخرج حتى تنزل الجابية، ثم تبعث إلى عمرو بن العاص فيقدم عليك بمن معه من المسلمين، ثم نقيم للقوم حتى يقوموا علينا، فنقاتلهم ونستعين الله عليهم .

فقال شرحبيل بن حسنة، ولكني أرى إذ خلينا لهم عمّا خلّينا من أرضهم أن ندعها كلها في أيديهم، ونخرج لهم عنها، ونترك التخوم[2] بيننا وبين أرضهم ، فندنوا من خليفتنا ومن مددنا ، فإذا أتانا من المدد ما نرجوا أن نقوى به على عدوّنا قاتلناهم إن هم أتونا، وإلا أقدمنا عليهم إن هم أقاموا عنا .

وقال رجال من المسلمين : هذا - أصلحك الله -رأي حسن، فاقبله وارجع إليه ، فإن عاقبته إن شاء الله راجعة إلى خير .

قال معاذ بن جبل : أصلحك الله، وهل يلتمس هؤلاء من عدوهم أمرًا أضرّ عليهم ولا أشد مما تريدون بأنفسكم؟ تخلّون لهم عن أرض قد افتتحها الله عليكم وقَتَل فيها ملوكا من ملوك الروم وصناديدهم، وأهلك الله فيها جنودهم العظام، فإذا خرج المسلمون

---

(١) وهكذا عامل أبو عبيدة أهل دمشق كما عامل أهل حمص، وقد بينا سابقا أن ذلك كان مثالا للورع والتقوى والتخلق بمكارم الأخلاق .

(٢) التخوم بالضم الحدود .

منها، وتركوها لهم ، وكانوا فيهـا على مثل حالتهم الأولى التي كانوا عليها ، فما أشد على المسلمين دخولها بعد الخروج منها، وهل يصلح لكم أن تخرجوا منها وتدعوها، وتدعوا البلقاء والأردن، وقد اجتبيتم خراجـها إلا أن تدفعوا عـنهم ؟ أما والله لئن خرجـتم منها ثم أردتم دخولها بعد الخروج منها لَتُكابِدنّ من ذلك مشقة .

فقـال أبو عبيـدة : صدق وبرَّ ، ما ينبـغي لنا أن نترك قومـا قد اجتبيناهم خراجهم، وعـقدنا لهم العهد حتى نعذر إلى الله في الدفع عنهم ، فإن شـئتم نزلنا الجابيـة ، وبعثنا إلى عمرو بن العـاص يقدم علينا، ثم أقمنا للقوم حتى نلقاهم بها.

فقال له خالد بن الوليد : كـأنك إذ كنت بالجابية كنت على أكثر مما أنت عليه مكانك هذا الذي أنت به .

كتاب من عمرو بن العاص :

قال : فإنهم لكذلك يجيلون الرأي إذ قدم على أبي عبيدة عبدالله ابن عمرو بن العاص بكتاب من أبيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فإن أهل إيليا، وكثيراً ممن كنا صالحناهم من أهل الأردن قد نقضوا العهـد فيما بيننا وبينهم، وذكروا أن الروم قد أقبلت إلى الشام بقضِّها وقضيضها[1] ، وأنكم قد خلّيتم لهم عن الأرض ، وخـرجتم منـها، وأقـبلتم منصـرفين عنها، وقـد جـرأهـم ذلك عليّ وعلى مـن قِـبَلي من المـسلمين، وقـــد تراسلوا وتواثقوا، وتعاقدوا ليسـيرُنّ إليّ ، فاكتب إليّ برأيك، فإن كنت تريد

---

(١) أي جموعها .

القدوم عليّ أقمت لك حتى تقدم، وإن كنت تريد منزلا من الشام أو من غيرها وأن أقدم عليك فأعلمني برأيك أوافكَ فيه، فإني صائر إليك أينما كنت ، فابعث إليّ مددًا أقوى بهم علَى عدوّي وعلى ضبط ماقِبَلي، فإنهم قد أرجفوا بنا واغتمزوا فينا ، واستعدوا لنا، ولو يجدون فينا ضعفًا أو يرون فينا فرصة ماناظرونا، والسلام عليك[1] .

كتاب من أبي عبيدة إلى عمرو :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فقد قدم عليّ عبد الله بن عمرو بكتابك تذكر فيه إرجاف المرجفين واستعدادهم لك، وجرأتهم عليك، للّذي بلغهم من انصرافنا عن الروم، وما خلَّينا لهم من الأرض، وإن ذلك والحمد لله لم يكن من المسلمين عن ضعف من بصائرهم ولا وهن من عدوِّهم ، ولكنه كان رأيا من جماعتهم كادوا به عدوهم من المشركين ، ليخرجوهم من مدائنهم وحصونهم وقلاعهم ، وليجتمع بعض من المسلمين إلى بعض، ويجتمعوا من أطرافهم ، وينضم إليهم من كان قربهم، وينتظرون قدوم أمدادهم عليهم، ثم يناهضونهم إن شاء الله .

وقد اجتمعت خيلهم ، وتتامّت فرسانهم ، ووثقنا بنصر الله أولياءَه، وإنجاز موعده ، وإعزاز دينه، وإذلال المشركين حتى لايمنع أحد أمّه ، ولاخليلته ولانفسه حتى يتوغلوا في رؤوس الجبال، ويعجزوا عن منع الحصون ويجنحوا للسلم، ويلتمسوا الصلح، وسنّةَ الله التي قد خلت من قبل ، ولن تجد لسُنة الله تبديلا .

---

(١) فتوح الشام / ١٦٠ - ١٦٢ .

ثم أعلم من قِبَلك من المسلمين أني قادم عليهم بجماعة أهل الإسلام، إن شاء الله، فليحسنوا بالله الظن، ولايجدَنَّ أهل حربكم وعدوكم فيكم ضعفا ولاوهنا ولا فشلا، فيغتمزوا فيكم، ويتجرؤوا عليكم، أعزنا الله وإياكم بنصره، وألبسنا وإياكم عافيته وعفوه، والسلام عليك .

وقال أبو عبيدة لعبد الله بن عمرو : أقرئ أباك السلام، وأخبره أني في أثرك، وأعلم ذلك المسلمين، وكن ياعبد الله بن عمرو ممن يشدُد الله به ظهور المسلمين، ويحسن به ظنهم، ويستأنسون به، فإنك رجل من الصحابة ، وقد جعل الله للصحابة بصحبتهم رسول الله فضلا على غيرهم من المسلمين، ولاتتَّكل في ذلك على أبيك، وكن أنت في جانب تحرّض الناس، وتعدهم بالنصر، وتأمرهم بالصبر، ويكون أبوك يفعل ذلك في جانب آخر .

فقال : إني أرجو أن يبلغك من ذلك إن شاء الله مايسرك .

قال: ففعل ذلك هو وأبوه ، فكان لهما أجرًا وغناء، ونكاية في المشركين وشدة وقوة على عدوّ المسلمين.

ثم خرج عبد الله بكتاب أبي عبيدة حتى قدم به على أبيه، فقرأه على الناس .

ثم قام عمرو بن العاص، وجمع إليه من كان قِبَله من المسلمين، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ وكان مما قال: ألا ولايبقين رجل من أهل عهدنا إلاتهيأ واستعدّ حتى يسير معي إلى أهل

إيلياء فإني أريد المسير إليهم والنزول بساحتهم، ثم لا أزايلهم حتى أقتل مقاتلتهم، وأسبي ذراريهم أو يؤدُّوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

ثم نادى في المسلمين، أن ارتحلوا إلى إيلياء، فسار نحواً من ميلين قِبَل أرض إيلياء، ثم نزل وعسكر، ثم قال لأهل الأردن: أخرِجوا إلينا الأسواق.

ونادى مناديه، ألا برئت الذمة من رجل من أهل الصلح لم يخرج بسلاحه حتى يحضر معنا عسكرنا، وينظر مانأمره به.

ثم أمر فاجتمع إليه أهل الصلح كلهم، فخرجوا بعُدَّتهم وسلاحهم، فوجَّههم مع ابنه عبد الله فقدَّمهم، وأمرهم أن يعسكروا ونزل عبد الله معهم في خمسمائة رجل من المسلمين.

وإنما أراد بذلك أن يشغل أهل الأردن عن الإرجاف[1]، وأن يبلغ أهل إيلياء أنه يريد المسير إليهم والنزول عليهم، فيرعب قلوبهم، ويشغلهم في أنفسهم وحصونهم من الغارة عليهم، وأن يتعاطوا شيئًا مما في أيديهم.

فخرج التجار من أهل الأردن ومن كان فيها من أهل إيلياء عند حميم أو ذي قرابة، فلحقوا بإيلياء، وقالوا لهم: هذا عمرو بن العاص قد أقبل نحوكم وصار إليكم بالناس.

فاجتمعوا من كل مكان وتراسلوا، وجعل لا يأتيهم أحد من قِبَل الأردن إلا أخبرهم بمعسكره، فأيقنوا أنه يريدهم، وكانوا من ذلك في هول شديد، وزادهم خوفًا ووجلا[2].

---

(١) يعني عن الخوض في أخبار الفتن.

(٢) فتوح الشام / ١٦٢ - ١٦٥.

رسالة من عمرو بن العاص :

بسم الله الرحـمن الرحيـم ، من عمـرو بن العاص إلى بطارقـة إيلياء ، سـلام على من اتبع الهـدى ، وآمن بالله العظيم الذي لا إله إلا هو ، ومحمـد ﷺ أما بعد ، فإنا نثني على ربنا خيـراً، ونحمده حمداً كثيـراً كما رحمنا بنبيه وشرفنا برسـالته، وأكرمنا بدينه، وأعزّنا بطاعته ، وأكرمنا بتوحيده والإخلاص بمعرفته، فلسنا والحمد له نجعل له نداً ، ولانتخذ من دونه إلها، لقد قلنا إذن شططا، سبحانه وبحمده جل ثناؤه، والحمد لله الذي جعلكم شـيعا وجعلكم في دينكم أحزابا بكفركم بربكم، فكـل حزب بما لديهم فرحـون، فمنكم من يزعم أن لله ولدا، ومـنكم من يزعم أنَ اللـه ثاني اثنين، ومنكـم من يزعم أن الله ثالث ثلاثة ، فـبُعداً لمن أشـرك بالله وسُحقـا، وتعالى الله عـما يقولون علواً كبيراً ، والحمد لله الذي قتل بطارقتكم، وسلب عزّكم، وطرد من هذه البـلاد ملوككم، وأورثنا أرضكم ودياركم وأمـوالكم، وأذلكم بكفـركم باللـه ، وتَركْكم مـادعونـاكم إليـه من الإيمان بالله ورسوله، فأعـقبكم الله الجوع والخوف والذل بما كنتـم تصنعون، فإذا أتاكم كتابي هذا فـاسلموا تسلموا، وإلا فأقبلوا إلـينا حتى أكتب لكم كتـابا أمانا على دمـائكم وأموالكم، وأعـقد لكم عـقدا، تؤدون إليّ الجـزية عن يـد وأنتم صـاغـرون، وإلا فـو الـله الذي لا إله إلا هو لأرمينّكم بالخيل بعد الخيل ، وبالرجال بعد الرجال ، ثم لاأقلع عنكم حتى أقتل المقـاتلة ، وأسبي الذرية ، وتكونون كأمّة كانت فـأصبحت كأنها لم تكن (١) .

---

(١) فتوح الشام / ١٦٥ - ١٦٦ .

وهكذا خدع عمرو بن العاص أولئك الأعداء ومكر بهم، حيث أظهر لهم أنه قد جمع جيشه وأنصاره لقتالهم ، بينما هو فعل ذلك ليَبْقى بسلام إلى أن يصل جيش المسلمين، قبل أن ينتقض عليه أهل العهد فيكونوا مع أعدائه في بيت المقدس ثم يحصروه عن المسلمين، إذا شعروا بضعفه .

وهذا مثل من الأمثلة التي برز فيها دهاء عمرو وظهرت حكمته.

قال : وأرسل الكتاب إليهم مع رجل نصراني على دينهم وقال له: عَجِّل عليَّ فإني إنما انتظرك .

فلما قدم عليهم قالوا له : ويحك ماوراءك؟ قال: لا أدري إلا أن الرجل قد بعثني إليكم بهذا الكتاب، وقد وجَّه عسكره نحوكم، وقال: مايمنعني من المسير إليهم إلا انتظاري رجوعك .

قالوا له : أنظِرنا ساعة من النهار ، فإنا ننتظر عيونًا لنا تقدم علينا من قِبَل أمير العرب الذي بدمشق، ومن قبل جند الملك الذي قد أقبل إلينا، فننظر ما يأتينا به، فإن ظننّا أن لنا بالعرب قوة لم نصالحهم، وإن خشينا ألا نقوى عليهم صنعنا ماصنع أهل الأردن وغيرهم، فما نحن إلا كغيرنا من أهل الشام .

فأقام العلج حتى أمسى . ثم إن رسول أهل إيلياء الذي كان بعثوه عينا لهم أتاهم، فأخبرهم أن باهان قد أقبل من قِبَل ملك الروم في ثلاثة عساكر، في كل عسكر منها أكثر من مائة ألف مقاتل، وأن العرب لما بلغهم ماسار إليهم من تلك الجموع علموا أنه لاقِبَل لهم بماجاءهم ، فانصرفوا راجعين، وقد كان أوائل العرب دخلوا أرض

قنسرين فأخرجوهم منها، ثـم أتوا أرض حمص فأخرجوهم منها، ثم أتوا أرض دمشق فأخرجوهم منها، ثم أقبلت العرب نحو الأردن نحو صاحبهم هذا الذي كتب إليكم ، والـروم في آثارهم يسوقونهم سوقا عنيفا سريعا إلى ما قِبَلكم من البلاد .

فتبـاشروا بذلك ، وسرّوا به، ودعوا العلج الذي بـعث به عمرو ابن العاص فقالوا له : اذهب بكتابنا إلى صاحبك، وكتبوا معه :

أما بعد ، فإنك كتبت إلينا كتابا تزكى فيه نفسك، وتعيب مانحن عليه، والقول بالبـاطل لاينفع به أحد نفسه، ولايضـر به عدوه، وقد فهـمنا مادعـوتنا إليه، وهؤلاء ملوكنـا وأهل ديننا قد جـاؤوكم، فإن أظهـرهم الله عـليكم فـذلك بلاؤه عندنا فـي القـديم ، وإن ابتـلانا بظهـوركم علينا، فلعمـري لَنُقِـرُّ لكم بالصغـار ، ومانحن إلا كـمن ظهرتم عليهم من إخواننا، ثم دانوا لكم فأعطوكم ماسألتم .

وقدم الرسول بهذا الكتاب إلى عمرو، فقال له عمرو: ماحبسك؟ فأخـبره الرسول بالخـبر . إلى أن قال: فلم يكن إلا يومـه ذلك حتى قدم خالد بن الوليد في مـقدِّمة أبي عبيدة، وكان أبو عبـيدة قد خرج من أرض دمـشق بالمسلمين إلى بلاد الأردن، وأمر عـبد الرحـمن بن حنبل فنادى الناس أن يسيروا إلى بلاد الأردن، وأمر خالد بن الوليد، فتقدَّم في مقدمته حتى نزل اليرموك ، وأقبل عمرو حتى نزل معه[1].

مثل من فساد قادة الروم :

قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي، وحدثني أبو الجهم

---

(١) فتوح الشام / ١٦٦ - ١٦٨ .

الأزدي عن رجل من تنُوخ كـان مع باهان يُكنَّى أبا بشيـر قال، كنت نصرانيا ، فنصرت النصرانيـة على العرب، وأقبلتُ مع الروم، فجعلنا لانمرّ بأحد من أهل الـبلد إلا وجدناهم أحسن شيء ثنـاء على العرب في كل شيء من أمرهم وفي سيرتهم .

قـال : وأقبلت الروم فـجعلوا يفـسدون في الأرض، ويسـيئـون السـيرة، ويعـصون أمـيـرهم حتى ضجَّ مـنهم الناس، وشكاهم أهل القرى، وجعلوا لايفـيقون من شرب الخمور والزنا، ولاتزال جـماعة من أهل الذمّـة يجيـئون إلى ملـكهم ومعـهم الجارية قـد افتـضت ، وجماعـة يشكون أن أغنامهم قد ذبحت وجماعـة يشكون أنهم خُرِّبوا وسُلبوا .

فلما رأى باهان ذلك ومايصنعون قام فيهم خطيبا فقال:

يامعـشر أهل هذا الدين، إن حـجة الله علـيكم عظيمـة، إنه قد بعث إليكم رسـولا ،وأنزل عليكـم كتـابا ، وكـان رسـولكم لايريد الدنيا، وزهّدكم فيهـا، وأمركم ألا ترغبوا فيهـا ولاتظلموا أحدا، فإن الله لايحب الظالمين ، وأنتم الآن تظلمـون، فماعـذركم غدا عند الله وقـد تركتم أمـره وأمر نبـيكم ومـا أتاكم به من كتـاب ربكم ؟ وهذا عدوكـم قد نزل بكم ، يقـتلون مقـاتلتكم ويسبـون ذراريكم ، وأنتم تعملون بالمعـاصي ، فلا تنزعـون منها خشـية العقـاب، فإن نزع الله سلطانكم من أيديكـم وأظهر عليكم عـدوكم فـمن الظالم إلا أنتم ؟ فاتقوا الله وانزعوا عن ظلم الناس .

فقام إليـه رجل من أهل البلد ، فشكا إليه مظلمـة، قال: فتكلم

بلسانهم وأنا أفقه كلامهم ، فقال : أيها الملك ، عشتَ الدهر، ووقيناك بأنفسنا مكروه الأحداث، إني امرؤ من أهل البلد، من أهل الذمة ، وكانت لي غنم ، أظنها مائة شاة أو تنقص قليلا، وكان فيها ابن لي يرعاها ، فمرّ بها عظيم من عظماء أصحابك، فضرب خباءه إلى جنبها ، ثم أخذ حاجته منها، ثم أنهب بقيتها أصحابه، فجاءته امرأتي ، وابنتي ، فشكت إليه انتهاب أصحابه غنمي، وقالت: أما ما أخذت لنفسك فهو لك ، وأما ما أخذ أصحابك فابعث إليهم فليردّوا علينا غنمنا .

فلما رآها أمر بها ، فأدخلت بناءه ، فطال مكثها عنده، فلما رأى ذلك ابنها دنا من باب البناء ، فطالع ، فإذا هو بصاحبه ينكح أمه أو أخته، وهي تبكي ، فصاح الغلام ، فأمر به فقتل ،فأخبروني ذلك فأقبلت إلى ابني ، فأمر بعض أصحابه فشدوا عليَّ بالسيف ليضربوني، فاتقيتهم بيدي فقطعوها .

فقال له باهان : أفتعرفه ؟ قال : نعم . قال : وأين هو ؟ قال: هو هذا العظيم من عظمائكم .

قال: فغضب ذلك العظيم الذي فعل بالرجل مافعل، وغضب له ناس من أصحابه، وكان فيهم ذا شأن وشرف، فأقبل ناس من أصحابه أكثر من مائتي رجل فشدوا على المستعدى، فضربوه بأسيافهم حتى مات، ثم رجعوا وباهان ينظر ما صنعوا .

فقال بلسانه : العجب كل العجب ، كيف لاتُهَدُّ الجبال وتتفجر البحار، وتزول الأرض، وترعد السماء لهذه الخطيئة التي عملتموها،

وأنا أنظر لأعمالكم العظام التي تعملونها ، وأنا أرى وأسمع، إن كنتم تؤمنون بأن لهـؤلاء المستضـعفين المظلومين إلـها ينتصـر لهم وينصف المظلوم من الظالم فأيقنوا بالقصـاص، ومن الآن يعجِّل لكم بالهلاك، وإن كنتم لاتؤمنون بذلك فأنتم والله عندي شـر من الكلاب وشر من الحمير ، ولعـمري إنكم لتعملون أعمال قـوم لايؤمنون، ولقد سخط الله أعمالكم ، وليكلنَّكم إلى أنفسكم، وأمـا أنا فإني أشهد أني بريء من أعمالكم، وسوف ترون عاقبة الظلم، وإلى أي مصير تصيرون، ثم نزل [1] .

فهذه القصة تبين ماكان يزاوله طغاة الروم من الظلم الشنيع، فهذا الأميـر الرومي قد سـحق أسرة من أسر أهل الشـام، وارتكب معـها ثلاث جرائم : نهب المال، والزنى ، والقـتل ،حيث كان هو وأمـثاله يعتبـرون المستضعـفين غنيمة لمن وجدهم لأنهم لاناصـر لهم من قُوَى البشر، أما رب البشر فإنهم لايؤمنون به إيمانا يحرك مشاعرهم ويحكم تصـرفاتهم . . إنهم يؤمنـون بوجوده ولكن لاوجـود له في قامـوس حياتهم، وبالتالي فإنهم يفقدون الوازع الديني الذي يترتب على الإيمان الحي بالله تعالى واطلاعه على خلقه وهيمنته عـليهم ومحاسبته إياهم ثم جزائه إياهم إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، ولذلك فإن هؤلاء الذين فقدوا العقول السليمة يتصرفون تصرف البهائم التي لايردعها رادع عن شهوة ولاتتـخاطب إلا بقرونها ومـخالبها وقـواطع أسنانها ، فلذلك يأكل القوي الضـعيف في تلك المجتـمعات كمـا هو الحال في حظائر الحيوانات والغابات .

---

(١) فتوح الشام / ١٧٥ - ١٧٧ .

ولقد كان باهان واسع العقل عظيم الإدراك حينما أدرك العلاقة المباشرة بين الأخلاق وتقرير مصير الدول والجيوش، فأبان أن مرتكبي الظلم ليسوا جديرين بالنصر على الأعداء .

ولقد كان هذا الفساد الذي ساد معسكره الكبير من أقوى ماواجهه من التحطيم المعنوي والفزع الشديد من الانهزام والاندحار على يد أمة الأخلاق والعدل .

وسيأتي مزيد بيان لهذا الأمر عند عرض كلام باهان في الاستشهاد بهذه القصة وماكان يعانيه من التشاؤم القاتل بسبب فُشُوِّ الظلم في جيشه .

رسالتان بين أبي عبيدة وعمر :

أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر عبد الله بن قرط : أن معاذ بن جبل ورجالا معه من المسلمين قالوا لأبي عبيدة ابن الجراح حين أقبل من دمشق إلى معسكره باليرموك : ألا تكتب إلى أمير المؤمنين تُعْلمه علم هذه الجيوش التي قد جاءتنا ، وتسأله المدد؟ قال : بلى ، وكتب إليه .

أما بعد ، أُخْبر أمير المؤمنين - أكرمه الله - أن الروم نفرت إلى المسلمين برّا وبحرًا، ولم يخلفوا وراءهم رجلا يطيق حمل السلاح إلا جاشوا به علينا، وخرجوا معهم بالقسيسين والأساقفة، ونزلَتْ إليهم الرهبان من الصوامع، واستجاشوا بأهل أرمينية وأهل الجزيرة، وجاؤونا وهم نحو من أربعمائة ألف رجل، وأنه لما بلغني ذلك من أمرهم كرهت أن أغرَّ المسلمين من أنفسهم، أو أكتمهم مابلغني عنهم،

فكشفت لهم عن الخبر، وشرحت لهم من الأمر، وسألتهم عن الرأي، فرأى المسلمون أن يتنحوا إلى أرض من أرض الشام، ثم نضم إلينا أطرافنا وقواصينا، وتكون بذلك المكان جماعتنا، حتى يقدم علينا من قِبَل أمير المؤمنين المدد لنا. فالعجَلَ العجل ياأمير المؤمنين بالرجال بعد الرجال، وإلا فاحتسب أنفس المؤمنين إن هم أقاموا، ودينهم منهم إن هم تفرقوا، فقد جاءهم مالا قِبَل لهم به إلا أن يمدهم الله بملائكته، أو يأتيهم بغياث من قِبَله، والسلام عليك.

فلما أتاه الكتاب دعا عمر المهاجرين والأنصار، فقرأ عليهم كتاب أبي عبيدة، فبكى المسلمون بكاء شديدًا، ورفعوا أيديهم ورغبتهم إلى الله أن ينصرهم ويعافيهم، وأن يدفع عنهم، واشتدت شفقتهم عليهم وقالوا: يا أمير المؤمنين، ابعثنا إلى إخواننا، وأقِرَّ علينا أميرًا ترضاه لنا، أو سِرْ بنا أنت، فو الله إن أُصيبوا فما في العيش خير بعدهم.

قال: عبد الله بن قرط فكل من قدمت عليه من المهاجرين والأنصار ظهر منهم الجزع والشفقة على المسلمين مخافة الهلاك عليهم، ولم أر أحدًا كان أشد جزعًا ولا أظهر شفقة من عبد الرحمن ابن عوف، ولاأكثر مقالة: سر بنا يا أمير المؤمنين، فإنك لو قدمت الشام لقد شَدَّ الله قلوب المؤمنين وأرعب قلوب الكافرين.

قال: فاجتمع رأي أصحاب رسول الله ﷺ على أن يقيم عمر، ويبعث المدد، ويكون ردءًا للمسلمين.

فقال عمر لعبد الله بن قرط: كم بين المسلمين وبين الروم يوم خرجت إليّ؟ قال: قلت مابين أدناهم وبين المسلمين ثلاث أو أربع

ليال، وبين جماعتهم وجماعة المسلمين خمس ليال .

فقال : هيهات ، متى يأتي هؤلاء غياثنا .

قال : فكتب عمر إلى أبي عبيدة :

أما بعد ، فقد قدم عليَّ أخو ثمالة بكتابك تخبرني فيه بنفير الروم إلى المسلمين براً وبحراً ، وبما جاشوا عليكم من أساقفتهم وقسسهم ورهبانهم ، وإن ربنا المحمود عندنا والصانع لنا، والعظيم ذو المنِّ والنعمة الدائمة علينا، قد رأى مكان هؤلاء الأساقفة والرهبان حيث بعث محمداً ﷺ بالحق وأعزه بالنصرة، ونصره بالرعب على عدوه، وقال: وهو لايخلف الميعاد ﴿ **هُوَ الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾ [1] فلا تهولنَّك كثرة ماجاءك منهم ، فإن الله منهم بريئ، ومن بريئ الله منه كان قَمِنًا ألا تنفعه كثرة ، وأن يكله الله إلى نفسه ويخذله، ولاتوحشك قلة المسلمين، فإن الله معك وليس قليلا من كان الله معه، فأقم بمكانك الذي أنت به حتى تلقى عدوك وتناجزهم ، وتستظهر بالله عليهم، وكفى به ظهيراً ووليًّا ونصيراً .

وقد فهمت مقالتك « احتسب أنفس المسلمين إن هم أقاموا ، ودينهم إن هم تفرقوا ، فقد جاءهم مالاقِبَل لهم به إلا أن يمدهم الله بملائكته، أو يأتيهم بغياث من قِبَله » وأيْم الله لولا استثناؤك بهذا لقد كنت أسأت ، ولعمري إن أقام لهم المسلمون وصبروا فأصيبوا لَما عند الله خير للأبرار ، ولقد قال الله عز وجل : ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ**

---

(١) سورة الصف / ٩ .

صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ (١) فطوبى للشهداء، ولمن عقل عن الله ممن معك من المسلمين لأسوة بالمصرَّعين حول رسول الله ﷺ في مواطنه، فما عجز الذين قاتلوا في سبيل الله ، ولاهابوا الموت في جنب الله، ولا وهن الذين بقوا من بعده، ولااستكانوا لمصيبتهم، ولكنهم تأسَّوْا بهم وجاهدوا في الله من خالفهم منهم وفارق دينهم .

ولقد أثنى الله على قوم بصبرهم فقال: ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ (٢) ، فأما ثواب الدنيا فالغنيمة والفتح ، وأما ثواب الآخرة فالمغفرة والجنة .

واقرأ كتابي هذا على الناس ، ومرهم فليقاتلوا في سبيل الله، وليصبروا كيما يؤتيهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، فأما قولك إنه قد جاءهم ما لاقِبَل لهم به فإن لايكن لكم بهم قِبَل فإن لله بهم قِبَلاً ، ولم يزل ربنا عليهم مقتدرا، ولو كنا والله إنما نقاتل الناس بحولنا وقوتنا وكثرتنا لهيهات ماقد أبادونا وأهلكونا، ولكن نتوكل على الله ربنا، ونبرأ إليه من الحول والقوة، ونسأله النصر والرحمة،

---

(١) سورة الأحزاب ، آية (٢٣) .

(٢) سورة آل عمران الآيات (١٤٦ - ١٤٧ - ١٤٨) .

وإنكم منصورون إن شــاء الله على كل حال، فاخلصــوا لله نياتكم، وارفعوا إليه رغبتكم، ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] .

وإنا لنلحظ في كتاب عمر رضي الله عنه تركيزاً قويًا على توحيد الله تعالى بالتذكير بلزوم استصحاب التوكل عليه واستمداد النصر منه وشكره على نعمه ، والشعور القوي بأن العامل الأعلى في النصر هو استحضار المجاهدين معية الله تعالى بنصره وتأييده، وعدم النظر لكثرة الأعداء ، لأن الله تعالى قد تخلى عنهم، ومن تخلى الله عنه فلا قوة له وإن ملأالأرض عدداً وعتاداً .

قال عــبد الله بن قــرط : دفع إليَّ عمــر هذا الكتــاب وأمرني أن أعجِّل المســير، وقــال: إذا قدمت على المسلمين فسِــرْ في صفــوفهم، وقِفْ على أهل كل راية منهم ، وأخــبرهم أنك رسولــي إليهم، وقل لهم: عمــر يقرئكم الســلام، ويقول لكم : يا أهل الإسلام اصــدقوا اللقــاء ، وشدُّوا عليــهم شدَّ الليــوث، واضربوا هامــتهم بالســيوف، وليكونوا أهون عــليكم من الذَّر ، فــإنا قــد كنا علمنــا أنكم عليــهم منصورون ، فلا تُهــولَنَّكم كثرة عدوكم، ولاتستــوحشوا لمن لم يلحق بكم منكم .

قــال: فركــبت راحلتي ، وأقــبلت مســرعا أتخــوف أن لا أدرك الناس، وأن تفوتني الوقعة .

قال: فانتهيت إلى أبي عبيــدة يوم دخل سعيد بن عامر بن حِذْيَم الجمحي في ألف رجل من المسلمين من قِبَل عــمر على أبي عبيدة في عسكره .

قال: فشجع ذلك المسلمين ، وسرُّوا بمددهم، وقدمت بكتاب عمر رضي الله عنه على أبي عبيدة، فقرأه على الناس، فسرُّوا برأيه لهم، وبما أمرهم به من الصبر، وبما بشَّرهم به من الفتح، وبما رجا لهم في ذلك من الأجر (١) .

وهكذا رأينا كيف أن المسلمين تهيَّبوا من لقاء عدوهم مع أن عددهم يقارب الأربعين ألفا ، وكانت أكثر أصوات القادة تنادي بالرحيل عن الشام حتى يتقوى المسلمون ثم يعودون لمناجزة أعدائهم.

وإذا ماقارنا بين أحداث هذه المعركة الفاصلة بين المسلمين والروم بأحداث معركة القادسية الفاصلة بين المسلمين والفرس نجد أن المسلمين وعددهم ثلاثون ألفا . قابلوا الفرس وعددهم مائتا ألف، ولم يتهيبوا منهم . ولم يُلِحُّوا في طلب المدد، ولم يفكروا بالتحول من العراق حتى يكمل استعدادهم ، والمسلمون هم المسلمون في ذلك التاريخ سواء في الشام أو في العراق، بل إن كثيراً من أبطال العراق كانوا مع خالد بن الوليد في الشام وحضروا معركة اليرموك من أمثال القعقاع ابن عمرو ومذعور بن عدي، ثم انصرفوا بعد ذلك إلى العراق وحضروا آخر معركة القادسية .

وهذا دليل واضح على أن معركة اليرموك كانت أضخم بكثير من معركة القادسية .

والآن وبعد أن تبين لنا حجم هذه المعركة فماذا كان عدد جنود الروم؟

---

(١) فتوح الشام / ١٨٠ - ١٨٤ .

لقد تبين لنا من كتاب أبي عبيدة السابق إلى أمير المؤمنين أن عدد الروم كانو نحو أربعمائة ألف ، وقد جاء ذلك في رواية أخرجها الأزدي عن عبد الله بن قرط الثمالي وهو صحابي شهد المعركة .

ويؤيد ذلك ما أخرجه الأزدي أيضًا عن أبي جهضم الأزدي عن رجل من الروم أسلم وحسن إسلامه قال : كنت مع باهان - يعني قائد الروم - في عسكرهم ذلك . . إلى أن قال : قال باهان : فكيف ترون بقتالهم فإنا أكثر من عشرة أضعافهم ، نحن نحو من أربعمائة ألف، وهم نحو من ثلاثين ألفًا أو أقل أو أكثر قليلا (١) .

فهذا دليل على أن جيش الروم يقارب أربعمائة ألف .

كما جاء في رواية ثالثة أخرجها الأزدي أيضًا عن أبي خداش عن سفيان بن سليم عن عبد الله بن قرط الثمالي : وفيها أن أهل إيلياء- القدس - أرسلوا رسولا ينظر لهم جيش الروم فأخبرهم أن باهان قد أقبل من عند هرقل في ثلاثة عساكر كل عسكر منها أكثر من مائة ألف مقاتل (٢) .

فهذا يدل على أن جيش الروم مابين ثلاثمائة وأربعمائة ألف .

أما الرواية التي تقول إن جيش الروم كان مائة ألف فهي مستبعدة لأن المسلمين قابلوا في أجنادين مائة ألف من الروم ولم يأبهوا بهم مع أن هذه المعركة كانت هي الأولى من المعارك الكبيرة .

---

(١) فتوح الشام /٢٠٨ ، وقد جاء في روايتين للطبري أن عدد المسلمين ستة وثلاثون ألفا - تاريخ الطبري ٣/٢٩٢ - ٣٩٤ - .

(٢) فتوح الشام / ١٦٧ .

وأما القول بأنهم كانوا مائتي ألف أو مائتين وأربعين ألفا فهما محتملان لكن القول الأول قد روي من طرق متعددة ، كما أن الصفات التي أطلقت على جيش الروم تدل على أنهم كانوا أكثر من هذا العدد، حيث جاء في كتاب أبي عبيدة « وجمعوا لنا من الجموع مالم يجمعوه لأمة قط كانت قبلنا » و « أن الروم نفرت إلى المسلمين برًا وبحرًا ، ولم يخلفوا وراءهم رجلا يطيق حمل السلاح إلا جاشوا به علينا » .

ومن المستبعد أن أمة عظيمة كالروم تكون طاقتها الكاملة من الرجال في حدود هذا العدد، فتبين أن القول الراجح أنهم كانوا نحواً من أربعمائة ألف كما ذكر أبو عبيدة رضي الله عنه .

ومما يدل على كثافة جيش الروم إلى حد غير معتاد ماذكره الأزدي في رواية له عن قسامة بن زهير عن رجل من الروم كان يُدْعَى «جرجه» - وقد أسلم وحسن إسلامه - قال: كنت في ذلك الجيش الذي بعثَنا ملك الروم من أنطاكية مع باهان، فأقبلنا ونحن لايحصي عددنا إلا الله، ولانرى أن لنا غالبا من الناس .

قال: ولحق بنا كل من كان على ديننا من النصارى ، حتى إنْ كان الراهب لينزل من صومعته، وقد كان فيها دهرًا طويلاً من دهره، فيتركها وينزل إلينا فيقاتل معنا غضبًا لدينه ومحاماةً عليه [1] .

مكان المعركة وإلتقاء الجيشين :

ذكر الإمام ابن جرير الطبري من رواية سيف بن عمر عن عدد

(١) فتوح الشام / ١٦٨ - ١٦٩ .

من الشيوخ أن هرقل كتب إلى قادة جيشه يقول لهم : انزلوا بالروم منزلاً واسع العطن، واسع المطرد، ضيق المهرب .

قالوا : ففعلوا فنزلوا الواقوصة ، وهي على ضفة اليرموك، وصار الوادي خندقًا لهم .

وانتقل المسلمون عن معسكرهم الذي اجتمعوا به، فنزلوا بحذائهم، على طريقهم ، وليس للروم طريق إلا عليهم، فقال عمرو ابن العاص : أيها الناس أبشروا ، حُصرت والله الروم، وقلما جاء محصور بخير (١) .

وهذا يدل على خبرته وبصره بأمور الحرب .

وأخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر عبد الله ابن قرط قال: لما نزلت الروم منزلهم الذي نزلوا به دسسنا إليهم رجالا من أهل البلد، كانوا نصارى فأسلموا وحسن إسلامهم، وأمرناهم أن يدخلوا عسكرهم، ويكتموا إسلامهم، ويأتوا بأخبارهم، فكانوا يعملون ذلك .

قال: فمكثوا أيامًا مقابلنا ، ثلاثة أو أربعة ، لايسألوننا عن شيء ولانسألهم عن شيء ، ولايتعرضون لنا ، ولانتعرض لهم ، فبينما نحن كذلك إذ سمعنا صوتًا عاليًا وجلبة شديدة وأصواتًا رفيعة، فظننا أن القوم يريدون النهوض إلينا، فتهيأنا وتيسرنا ، ثم إنا دسسنا عيونًا لنا إليهم ليأتونا بالخبر .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٩٣ .

قال : فما لبثنا إلا قليلا حتى رجعوا إلينا فأخبرونا أن بريدًا جاءهم من قبل ملك الروم، فبشرهم بمال يقسم بينهم، وبمدد يأتيهم، ففرحوا بذلك ، ورفعوا له أصواتهم .

فقام فيهم ملكهم باهان ، واجتمعوا إليه، فقال لهم : إن الله لم يزل لدينكم ناصرا ومعزا ومظهرا على كل من ناوأكم، وقد جاءكم قوم يريدون أن يفسدوا عليكم دينكم ويغلبوا على بلادكم ودياركم وأموالكم ، وأنتم عدد الحصا والثرى والذرّ ، والله إن في هذا الوادي منكم لنحوًا من أربعمائة ألف مقاتل مع أتباعكم وأعوانكم، ومن اجتمع إليكم من سكان بلادكم ، وممن هو معكم على دينكم، فلا يهُولنَّكم أمرها ، ولا القوم فإن عددهم قليل، وهم أهل الشقاء والبؤس ، وجُلُّهم حاسر جائع ، وأنتم من الملوك وأبناء الملوك وأهل الحصون والقلاع ، والعدة والقوة ، والسلاح والكراع ، فلا تبرحوا العرصة وفيهم عين تَطْرِف حتى تهلكوهم أو تهلكوا أنتم .

فقام إليه بطارقتهم ، فقالوا : مُرْنا بأمرك، ثم انظر مانصنع .

قال: تيسروا حتى آمركم (١) .

مناوشة بين بعض الجيشين :

قال أبو بشير التنوخي في سياق خبره السابق (٢): وقد نزلنا بالمسلمين ونحن لهم هائبون ، وقد كان بلغنا ، أن نبيّهم ﷺ قال

---

(١) فتوح الشام / ١٧٤ .

(٢) أبو بشير التنوخي كان نصرانيًا وجاء مع الروم ثم أسلم كما سبق في أول خبره الذي تقدم في ص ٢٢ .

لهم: إنكم ستظهرون على الروم، وقد كانوا واقعونا غير مرة، كل ذلك يكون لهم الظفر علينا إلا أنا إذا نظرنا إلى عددنا وجموعنا طابت أنفسنا أنَّ مثل جمعنا ذلك لايُفلّ .

قال: فأقام باهان أيامًا يراسل من حوله من الروم، ويأمرهم أن يحملوا إلى أصحابه الأسواق، وكانوا يفعلون، ولم يكن ذلك يضر المسلمين ، لأن الأردن في أيديهم، فهم مخصبون بخير .

فلما رأى باهان ، صاحب الروم ، أن ذلك لايضرهم ولاينقصهم، وأنهم يكتفون بالأردن بعث خيلا عظيمة ليأتيهم من ورائهم عليها بطريق عظيم من عظمائهم وبطارقتهم، وأراد أن يكفيهم بجنوده من كل جانب، وعلم المسلمون مايريدون .

فدعا أبو عبيدة خالد بن الوليد ، فبعثه في ألفي فارس، فخرج خالد حتى اعترض العلج، فلما استقبله نزل خالد في الرجَّالة، وبعث قيس بن هبيرة في الخيل، فحمل عليهم قيس، فاقتتلوا قتالا شديدًا، وحمل قيس في خيل المسلمين على خيلهم، فهزمها حتى اضطرها إلى الرجالة الذين مع خالد ، ومشى خالد في الرجالة حتى إذا دنا من البطريق شدّ عليه رايته ، وشد معه المسلمون ، فضربوهم بالسيوف حتى تبددوا وانهزموا ، وقُتل منهم مقتلة عظيمة .

وقال قيس لرجل من بني نمير مرَّ به البطريق يركض منهزمًا :ياأخا بني نمير ، لايفوتنَّك البطريق، فإني والله قد كددت فرسي على هذا العدو من هذا اليوم حتى ماعند فرسي من جري .

فحمل عليه النميري ، فركض في إثره ساعة ، ثم إنه أدركه،

فلما رأى البطريق أنه قد غشيه وأحرجه عطف عليه البطريق، فاضطربا بسيفيهما، فلم يصنع السيفان شيئًا، واعتنق كل واحد منهما صاحبه، ووقعا على الأرض، فاعتركا ساعة، ثم صرعه النميري، ووقع النميري على صدر البطريق، فضمّه البطريق إليه، وكان مثل الأسد، فجعل النميري لايستطيع أن يتحرك.

وبصر بهما قيس، فجاء حتى وقف عليهما فقال: ياأخا بني نمير، قتلتَ الرجل إن شاء الله؟

قال: لا، والله ما استطيع أن أتحرك، ولا أضربه بشيء، ولقد ضمني بفخذه وأمسك يدي بيديه.

فنزل إليه قيس فضربه فقطع إحدى يديه، ثم تركه وانطلق وقال للنميري: شأنك به، وقام النميري، فضربه بسيفه حتى قتله.

ومرّ به خالد بن الوليد، فقال له: ماهذا ياقيس، ومن قتله؟ فقال له قيس: قتله هذا النميري، ولم يخبره ماصنع هو به [١].

تنظيم جيش المسلمين:

أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر الحارث ابن عبد الله الأزدي، ثم النمري.

قال: لما نزل أبو عبيدة بن الجراح اليرموك وضم إليه قواصيه، وجاءتنا جموع الروم وهم يجرون الشوك والشجر، ومعهم صُلُبُهم ومعهم القسيسون والرهبان والأساقفة والبطارقة، ورهبانهم يقصّون عليهم، وبطارقتهم يحرضونهم فجاءوا حتى نزلوا دير الجبل، فلما

(١) فتوح الشام / ١٧٨ - ١٧٩.

أقبلوا إلى المسلمين بتلك الجموع خافهم المسلمون فما كان شيء أحب إليهم من أن يخرجوا لهم ، ويتنحواً عن بلادهم حتى يأتيهم مدد يرون أنهم يقوون به على من جاءهم من الروم .

قال: فدعا أبو عبيدة الناس، فاستشارهم ، فكل من استشار من الناس أشار عليه بالخروج من الشام إلا خالد بن الوليد، فإنه أشار عليه بالمقام، وقال لأبي عبيدة : خلّني والناس ودعني والأمر، وولني ماوراء بابك فأنا أكفك بإذن الله أمر هذا العدو .

فقال له أبو عبيدة : شأنك بالناس، فخلاه وإياهم .

قال: وكان قيس بن هبيرة المرادي على مثل رأي خالد بن الوليد في المقام بأرض الشام ، ولم يكن في المسلمين أحد يعدلهما في الحرب وشدة البأس .

قال : فخرج خالد بالناس وهم بأحسن شيء رِعَةً ، ودَعَةً وهيئة، وأشدهم في لقاء عدوهم بصيرة ، وأطيبهم أنفسا بقتالهم .

قال: فصفهم خالد ثلاثة صفوف، وجعل ميمنة وميسرة، ثم إن خالدًا أتى أبا عبيدة فقال: من كنت تجعل على ميمنتك؟ قال: معاذ ابن جبل .

قال: أهلُ ذلك هو الرضا والثقة . فولّها إياه، فأمر أبو عبيدة معاذًا ، فوقف في الميمنة .

ثم قال خالد : من كنت تولِّي الميسرة ؟ قال: غير واحد .

قال : فولّها قباث بن أشيم إن رأيت، فأمره أبو عبيدة ، فوقف

في الميسـرة ، وكان فـيها كنانـة وقيس ، وكان قـباث كنانيـا ، وكان شجاعًا بئيسا [1] .

وقال خالد : وأنا على الخيل ، ووَلِّ على الرجَّالة من شئت .

قـال : أوليهـا إن شـاء الله من لايُخـاف نكوله ولاصـدوره عند البأس ، أوليها هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، قال : وُفِّقت ورشدت .

قال أبو عبيدة : إنزل ياهاشم فأنت على الرجالة وأنا معك .

وقـال خالد لأبي عـبـيدة : ابعث إلى أهـل كل راية فمـرهم أن يطيعوني .

فدعا أبو عبـيدة الضحاك بن قيس فأمره بذلك ، فـخرج الضحاك يسيـر في الناس ، ويقول لهم : إن أميـركم أبا عبيدة يأمـركم بطاعة خالد بن الوليد فيما أمركم به .

فقـال الناس : سمـعنا وأطعنا ، ومر الضـحاك بمعـاذ بن جبل ، فأمره بطاعة خالد بن الوليد ، فقال معاذ : سمعنا وأطعنا ، ثم نظر إلى الناس فقـال : أما والله إن أطعـتموه لتطيـعنّ مبـارك الأمر ، ميـمون النقيبة ، عظيم الغناء ، حسن الحسبة والنية .

قال الضحاك : فحدثت خـالدا بمقالة معاذ بن جبل ، وقلت له : لقد سمعت معاذًا يحسن عليك الثناء ، وقال فيك كيت وكيت .

فقال لي : رحم الله أخي معاذًا ، أمـا والله إن أحبني إني لأحبه في الله ، لقـد سبـقَتْ له ولأصـحابـه سوابق لاندركـهـا ولانبلغهـا

---

(1) يعني أنه شديد البأس .

ولاننالها ، فهنيئًا لهم بما خصهم الله به من ذلك .

قال الضحاك : فلقيت معاذًا فأخبرته بماقلت لخالد وماردّ به عليّ خالد .

فقال معاذ : أما إني لأرجو أن يكون الله قد أعطاه على جهاد المشركين ، وشدته عليهم، وجهاده إياهم مع بصيرته وحسن نيته، وإعزاز دينه أحسن الثواب ، وأن يكون من أفضلنا بذلك عملا .

فلقيت خالدًا بذلك ، فقال : ماشيء على الله بعزيز .

قال: ثم إن خالدًا سار في الصفوف يقف على أهل كل راية ويقول : ياأهل الإسلام ، إن الصبر عز وإن الفشل عجز ، وإن مع الصبر تنصرون فإن الصابرين هم الأعلون ، وإنه إلى الفشل مايحور المبطل الضعيف ، وأن المُحِقّ لايفشل، يعلم أن الله معه، وأنه عن حُرَم الله يَذُبّ وعنه يقاتل، وأنه إنْ قدم على الله أكرم منزلته وشكر سعيه ، إنه شاكر يحب الشاكرين .

قال: فما زال يقف على كل راية يعظهم ويحضهم ويرغّبهم حتى مر بجماعة الناس،ثم إنه جمع إليه خيل المسلمين،ودعا قيس بن هبيرة بن مكشوح المراديّ وكان يساعده ويوافقه ويشبهه في جلده وشدته ، وشجاعته وإقدامه على المشركين، فقال له خالد: أنت فارس العرب، وقلّ من حضرها اليوم يَعْدِلك عندي، فاخرج معي في هذه الخيل .

وبعث إلى ميسرة بن مسروق العبسي، وكان من أشراف العرب وفرسانهم ودعا عمرو بن الطفيل بن عمرو ذي النور الأزدي ثم الدَّوْسي فخرج معه .

ثم قسموا الخيل أرباعًا ، فبعث كل رجل منهم على ربع، وخرج خالد في ربع منها في خيل المسلمين حتى دنا من عسكر الروم الأعظم الذي فيه باهان .

فلما رأتهم الروم فزعوا لمجيئهم إليهم ، وقد كانوا أُتُوا ، فأُخبروا أن العرب يريدون الانصراف عن أرض الشام، وأن يخلوكم وإياها، فكان ذلك قد وقع على أنفسهم ، وطمعوا به ، ورجوا ألا يكون بينهم قتال، وصدّق ذلك عندهم خروجهم من بين أيديهم يسوقونهم وهم يدَعون لهم الأرض والمدائن التي كانوا قد غلبوا عليها فيما بينهم وبين اليرموك ودمشق وحمص وماحولها .

فلما رأوا خالدا قد أقبل عليهم في الخيل أفزعهم ذلك، وخرجوا على راياتهم ، وخرجوا بصلُبهم والقسيسين والرهبان والبطارقة، فصفوا عشرين صفًا ، لايُرى طرفاها (١) .

هذا وقد ذكر الإمام ابن جرير الطبري فيما يرويه عن سيف بن عمر عن شيوخه أن الروم خرجوا في تعبية لم ير الراؤون مثلها قط، وخرج خالد في تعبية لم تُعَبِّها العرب قبل ذلك ، فخرج في ستة وثلاثين كردوسا إلى الأربعين .

وجاء في هذه الرواية أن خالدًا قال: إن عدوكم قد كثر وطغى، وليس من التعبية تعبية أكثر في رأي العين من الكراديس (٢) .

وهكذا حاول خالد أن يخفف من الفرق الهائل بين الجيشين في

---

(١) فتوح الشام / ١٨٧ - ١٩١ .

(٢) الكردوس الكتيبة وهي جزء من الجيش .

نظر العين، ويُعتبر هذا التنظيم من عبقرياته في التخطيط الحربي .

مبارزة ومناوشات :

ثم أخرجوا إلى المسلمين خيلا عظيمة أضعاف خيل المسلمين ، فلما دنت من خيل المسلمين خرج بطريق من بطارقتهم وشجعانهم يسأل المبارزة ويتعرض لخيل المسلمين .

فقال خالد : أما لهذا رجل يخرج إليه ؟ ليخرجن إليه بعضكم أو لأخرجن إليه، فتفلّت إليه عدة من المسلمين ليخرجوا إليه، فأراد ميسرة بن مسروق أن يخرج إليه فقال له خالد : أنت شيخ كبير، وهذا الرومي شاب، ولا أحب أن تخرج إليه، فإنه لايكاد الشيخ الكبير يقوى على الشاب الحديث السنّ، فقف لنا رحمك الله، في كتيبتك ، فإنك ماعلمت حسن البلاء عظيم الغناء .

وأراد عمرو بن الطفيل أن يخرج إليه، فقال له خالد: ياابن أخي، أنت غلام حديث السن، وأخاف ألا تقوى عليه .

قال الحارث بن عبد الله الأزدي : وكنت في خيل خالد التي خرجت معه، فقلت ، فأنا أخرج إليه، فقال :ماشئت، فلما ذهبت لأخرج إليه قال لي خالد : هل بارزت رجلا قط قبله؟ قلت : لا، قال: فلا تخرج إليه .

قال قيس بن هبيرة . ياخالد ، كأنك عليَّ تُحوِّط ؟

قال له : أجل، فإني أرجو إن خرجت إليه أن تقتله، فإن أنت لم تخرج إليه لأخرجن إليه أنا .

فقال قيس : بل أنا أخرج إليه، فخرج إليه قيس وهو يقول :

سَائِلْ نسَاء الحَيِّ في حِجَالِها[1] أَلَسْتُ يَوْمَ الْحرْب مِنْ أَبْطَالِهِا
مُقَعِّص الأَقْرَانِ مِنْ رِجَالِهَا

فخرج إليه ، فلما دنا منه ضرب فرسه، ثم حمل عليه قيس، فما هلهل[2] أن ضربه بالسيف على هامته، فقطع ماعليه من السلاح، وفلق هامته فإذا الرومي بين يدي فرسه قتيلا ، وكبَّر المسلمون .

فقال خالد : مابعد ماترون إلا الفتح ، احمل عليهم ياقيس .

ثم أقبل خالد على أصحابه، فقال: احملوا عليهم، فو الله لا يفلحون، وأولهم فارس متعفر في التراب .

قال: فحملنا عليهم وعلى من يلينا منهم، ومن خيلهم وهي مستقدمة أمام صفوفهم كأنها أعراض الجبال .

قال قيس : فحملنا عليهم ، فكشفنا خيلهم حتى لحقت بالصفوف، وحمل عليهم خالد وأصحابه على من يليهم ، فكشفوهم حتى ألحقوهم بالصفوف .

وحمل عمرو بن الطفيل الأزدي وميسرة بن مسروق العبسي في أصحابهما حتى ألحقوهم بالصفوف، صفوف المشركين .

ثم إن خالداً أمر خيله، فانصرفت عنهم، ثم أقبل بها حتى لحق بجماعة المسلمين ، وقد أراهم الله السرور في المشركين، وتلاومت

---

(١) الحجال القباب والستور .

(٢) أي انتظر .

بطارقة الروم ، وقال بعضهم لبعض : جاءتكم خيل لعدوّكم ليست بالكثيرة ، فكشفت خيولكم من كل جانب .

فأقبلت منهم كتائب في إثر كتائب ، فطبقوا الأرض مثل الليل والسيل، كأنها الجراد السود، وظن المسلمون أنهم سيخالطونهم، والمسلمون جُرَءاءُ عليهم، سراع إليهم، فأقبلوا حتى إذا دنوا من جماعة المسلمين واقتربوا منهم ومن خيلهم وقفوا ساعة وقد هابوهم ، وامتلأت صدورهم من المسلمين خوفًا .

فقال خالد للمسلمين : قد رجعنا عنهم، ولنا الظفر عليهم وعليهم الدّبرة، فاثبتوا لهم ساعة ، فإن أقدموا علينا قاتلناهم، وإن رجعوا عنا كان لنا الظفر والفضل عليهم .

فأخذوا يقربون من المسلمين ثم يرجعون، والمسلمون في مصافّهم وتحت راياتهم سكوت، لايتكلم رجل منهم كلمة إلا أن يدعو الله في نفسه، ويستنصره على عدوه (١) .

عدول الروم إلى المفاوضات :

فلما نظرت الروم إلى حالهم تلك ، وإلى خيل المسلمين ورجّالتهم ومصافّهم، وَحدِّهم وجدِّهم ، وصبرهم وسكوتهم ألقى الله الرعب في قلوبهم، فواقفوهم ساعة، ثم انصرفوا راجعين عنهم إلى عسكرهم .

قال: فاجتمعت بطارقتهم وأمراؤهم وعظماؤهم وفرسانهم إلى باهان ، وهو أمير جماعتهم ، فقال لهم باهان :

---

(١) فتوح الشام /١٩١ - ١٩٤ .

إني قــد رأيت رأيًا، وأنا ذاكره لكــم ، إن هؤلاء القوم قــد نزلوا بلادكم ، وركبوا مراكبكم، وطعموا من طعامكم ولبسوا من لباسكم، فعَــدْل الموت عندهم أن يفارقــوا ماقــد تطعمــوه من عيشكــم الرفيع، ودنياكم التي لم يروا مثلهــا قط، وقد رأيت إن رأيتم ذلك أن أسألهم أن يبعثوا إليــنا رجلا منهم له عقل، فنناطقه ونشافهــه، ونطمعهم في شيء يرجعون به إلى أهليهم، لعل ذلــك يُسخي بأنفسهم عن بلادنا، فإن هم فعلوا ذلك كان الذي يريدون منا قليــلا فيما نخاف، وندفع به خطر الوقعة التي لاتدرون تكون علينا أم لنا .

فقــالوا له : قد أصــبت ، وأحسنت الــنظر لجمــاعتنا ، فــاعمل برأيك.

وإن في هذا الكلام الذي صــدر من أكبــر وأعقل قوادهم لــدليلا على أنهم لم يفهــموا هدف المسلمين الأسمى من غــزو بلادهم، فهم ينسبون ذلك إلى طمع المسلمين فيما في بلادهم من الخيرات ومايعيش به المسلمون في بلادهم من شظف العــيش وقلة الموارد، ولذلك فإنهم لايزالوان يطمعــون في قبــول المسلمين لما يعرضونه عليــهم من الصلح على أموال يدفعونها لهم .

وقد سبق أن عرضوا ذلك على المسلمين بإلحــاح في معركة فحل وكان السفيــر إليهم معاذ بن جبل ورد عليهم بكــلام لامحيد عنه، ثم أجابهم أبوعبيدة بجواب معــاذ نفسه ، ولكنهم في هذه المرة قد اغتروا بجمــوعهم العظيــمة ، وبكون المسلمــين تراجعوا إلى جنــوب الشام، فحاولوا إعادة عروضهم السابقة .

وهكذا نجد الكفار في كل زمن لايفقه كثير منهم هدف المسلمين الواحد الذي لايتغير منذ بعث الله تعالى نبيه ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولذلك نجدهم يتورطون كثيرًا في حروبهم مع المسلمين الصادقين ولكنهم ينسون هذا الهدف السامي أحيانًا لكثرة من يواجهون من المسلمين غير الصادقين على مدار التاريخ الذين يقعون فريسة لفتنة الترغيب أو الترهيب من قِبَل الأعداء .

ولقد ضرب الصحابة رضي الله عنهم أروع الأمثال في صلابة الموقف أمام جميع الأعداء ، والامتناع التام من الخضوع لمطالبهم والاستجابة لتهديدهم أو إغرائهم، وكان جوابهم في كل موقف تعرضوا له جوابًا واحدًا لايتغير ، مما يدل على عمق التربية الدينية التي رباهم عليها الرسول ﷺ .

هذا ولما عرض باهان على قادة جيشه هذا الرأي « قالوا: قد أصبت وأحسنت النظر لجماعتنا فاعمل برأيك، فبعث رجلا من خيارهم وعظمائهم اسمه « جرجه » حتى أتى أبا عبيدة فقال له : إني رسول "باهان" عامل ملك الروم على الشام وعلى هذه الجنود وهو يقول لك : أرسل إليَّ الرجل منكم الذي كان قبلك أميرًا فإنه قد ذُكر لي أن ذلك الرجل له عقل وله فيكم حسب ، وقد سمعنا أن عقول ذوي الأحساب أفضل من عقول غيرهم، فنخبره بما نريد، ونسأله عما تريدون ، فإن وقع فيما بيننا وبينكم أمر لنا ولكم فيه صلاح أو رضًى أخذنا به وحمدنا الله عليه، وإن لم يتفق ذلك فيما بيننا وبينكم كان القتال من وراء ماهناك » .

وهكذا نص قائدهم على أمـير المسلمين السابق خـالد بن الوليد، ولعله نص عليـه لكونه أصلب المسلمين موقـفًا في قـتال الروم ، فلو استطاع إقناعـه بالصلح والانسحاب لرجا بذلك أن يحـوز على قناعة المسلمين، وهو ينطلق في ذلك أيضًـا من المفاهيم البشـرية التي تسود عموم البشر فـي كل الأزمان إذا تخلَّوا عن شريعة الله، من أن الرجل القوي القيـادي في الجيش يغيِّر من آراء أفراد الجـيش غالبًا، ولا يعلم هؤلاء أنه مهـما بلغ القائد عند المـسلمين من القوة ونباهة الذكـر فإن تأثيره على الجيش لايعدو الأمور الاجتـهادية التي ليس فيها نص ملزم من شريعة الإسلام .

وهكذا فكر باهان في عـرض الصلح على المسـلمين مع أن معـه جيـشًا يبلغ عـشرة أضعـافهم ، وهذا دليل واضح عـلى أن الروم قد أصيـبوا بالرعب من المسلـمين بالرغم من تفوقـهم الكبيـر في الجيش والإعداد العسكري .

إن المنتظر في مـثل هذه الحـال أن يكون لدى الروم إقدام شـديد وحمـاس قوي نحو الحـرب حتى يقضـوا على عدوهم الذي أرعـبهم وأزال دولتهم من الشـام ، مادامت الفرصـة قد واتتهم وجمـعوا ذلك الجمع الكبير الذي يصعب جمعه مرة أخرى .

ومن المنتظر عادة أن الذي يطلب الصلح هو الضعيف القليل العدد الذي يخشى على نفسه من الإبادة وسبط جيش عظيم .

ولكن الذي حـدث خـلاف ذلك تمامًا، لـقد كـان المسلمـون في منتـهى الإقدام والحـماس، وكـان الروم في منتهى الرعب والخـوف،

ومــاذاك إلا من أثر سلاح الرعــب الذي ينصر الله تــعالى به أوليــاءه المؤمنين .

قــال : وجاء رســولهم هذا الرومي عند غــروب الشــمس ، فلم يمكث إلا يســيرًا حــتى حــضرت الصــلاة ، فقــام المسلمــون يصلون صلاتهم، فلما قضوا صلاتهم قال خالد للرومي :

- هذا الليل قـــد غـشـينا ، ولكن إذا أصـبــحت غـدوت إلى صاحبك، إن شاء الله ، فارجع إليه ، فأعلمه ذلك .

وجعل المسلمــون ينتظرون الرومي أن يقوم إلى صــاحبه، فـيرجع إليه، فيخبره بمــا ردّوا عليه ، وأخذ الرومي لايبرح، وجعل ينظر إلى رجال من المسلمين يصلون ، وهم يدعون الله ، ويتضرعون إليه .

فـقال عـمرو بن العــاص : إن رســولكم هذا الذي أرسل إليكم لمجنون.

فقال أبو عبيدة : كلا ، أو ماتفطن إلى نظره إلى المسلمين ؟

وجعل الرومي مايفيق ولايطرف بصره عنهم .

فقال أبو عبيدة : والله إني لأرجو أن يكون الله قد قذف في قلبه الإيمان وحبّبه إليه ، وعرّفه فضله .

فلبث الرومي بذلك قليلا ، ثم أقبل على أبي عبيدة ، فقال: أيها الرجل ، متى دخلتم في هذا الدين ؟ ومتى دعوتم إليه الناس ؟

قال أبو عبيدة : دُعينا إليه منذ بضع وعشرين سنة، فمنا من أسلم حين أتاه الرسول ، ومنا من أسلم بعد ذلك .

فقال: هل كان رسولكم أخبركم أنه يأتي من بعده رسول ؟

فقال: لا ، ولكنه أخبرنا أنه لانبي بعده، وأخبرنا أن عيسى بن مريم قد بشر به قومه .

قال الرومي : أنا على ذلك من الشاهدين. أن عيسى بن مريم قد بشرنا براكب الجمل ، وما أظنه إلا صاحبكم .

وقال الرومي : أخبروني عن قول صاحبكم في عيسى بن مريم ماكان ،وما قولكم أنتم فيه ؟

قال أبو عبيدة : قول صاحبنا قول الله ، وهو أصدق القول وأبره قال الله في عيسى بن مريم : ﴿ **إنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ (١) وقال الله ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ** ﴾ إلى آخر الآية، وإلى قوله ﴿ **لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ** ﴾ (٢) .

فلما فسّر له الترجمان هذا بالرومية ، وبلغ هذا المكان قال: أشهد أن هذه صفة عيسى نفسه، وأشهد أن نبيكم صادق، وأنه الذي بشرنا به عيسى ، وأنكم قوم صدق .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٥٨ - ٥٩ .

(٢) سورة النساء ، الآيتان ١٧٠ - ١٧١ ، وتكملة الآية الأولى﴿ **فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً** ﴾ .

وقال لأبي عبيدة : ادع لي رجلين من أول أصحابك إسلاما، وهما فيما ترى أفضل من معك .

فدعا أبو عبيدة معاذ بن جبل وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيْل، فقال: هذان من أفضل المسلمين فضلا، ومن أول المسلمين إسلاما .

فقال لهما الرومي ولأبي عبيدة: أتضمنون لي الجنة إن أنا أسلمت وجاهدت معكم ؟

فقالوا له : نعم ، إن أنت أسلمت ولم تغير حتى تموت وأنت على ذلك فإنك من أهل الجنة .

قال: فإني أُشهدكم أني من المسلمين .

فأسلم، وفرح المسلمون بإسلامه ، وصافحوه ودعوا له بخير، وقالوا له : إنا إن أرسلنا رسولنا غدا إلى صاحبكم وأنت عندنا ظنوا أنا حبسناك عنهم ، فنتخوّف أن يحبسوا صاحبنا، فإن شئت أن تأتيهم الليلة ، وتكتم إسلامك حتى نبعث رسولنا إليهم غدا، وينصرف. وننظر على ما ينصرم الأمر فيما بيننا وبينهم، فإذا رجع رسولنا إلينا أتيتنا عند ذلك ، فما أعزّك علينا، وأرغبنا فيك، وأكرمك علينا، وما أنت عند كل امريء منا إلا بمنزلة أخيه لأمه وأبيه .

قال: فإنكم نعمَ مارأيتم ، فخرج ، فبات في أصحابه، وأتى باهان فقال له : غدا يجيئكم رسول القوم الذي سألتم .

فلما أصبح الرومي ، وانصرف خالد راجعًا إلى أصحابه من قِبَل باهان أقبل الرومي حتى لحق بالمسلمين، فأسلم وحسن إسلامه ، وكان له نجدة ونكاية في المشركين رحمه الله .

قال : فدعـا أبو عبيدة خالدًا فـأخبره الذي جاء فيه جـرجه وقال لخالد : القهم فـادعهم إلى الإسلام ، فإن قبلوا فـهو حظهم، وكانوا قومًا لهم مـالنا وعليهم ماعلينا ، وإن أبوا فاعـرض عليهم الجزية بأن يؤدوها عن يد وهم صـاغـرون ، فـإن أبوا فـأعلمـهم أننا نناجـزهم ونستعين الله عليهم حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين .

هكذا بهذا الحكم الثابت أوصى أبو عبيدة خالدًا ، ولو علم الروم باعتـصام المسلمين بهـذا الحكم لأراحوا أنفـسهم من عناء التـفكير في محاولة إقناع المسلمين بقبول رأيهم في الصلح .

حوار خالد مع الروم :

هذا ولما عزم خالد على المسير لمقابلة قائد الروم أمر بخيمة له من الجلد فضُـرِبَتْ له في معـسكر الروم، وخرج خـالد فأقام بـها بعض الوقت، ثم بعث باهان إلى خـالد يدعـوه إلى لقائه، وقـد صف في طريقه عشرة صفوف عن يمينه ومثلها عن شماله مقنَّعين بالحديد لايُرى منهم إلا عـيونهم، مـحمَّلين بأنواع الأسلحـة، وصفَّ من وراء تلك الصفوف خيلا عـظيمة لايُرى طرفاها ، وإنما أراد باهان بذلك أن يُرِيَ خالـدًا حدة الروم وعـددهم ليرعـبه بذلك ،وليكون ذلك أسـرع إلى مايريد أن يعرض عليه من الصلح والمهادنة، فـأقبل خالد غير مكترث بما رأى من هيئتهم وجماعتهم ، وكأنها أهون عليه من الكلاب .

وهكذا بدأ باهان مع خـالد بفـتنة الإرهاب والتـخـويف، ولكن خالدا لم يتأثر بشيء مما رأى من كثرتهم وتنوع أسلـحتهم، لأنه يعتبر القوة المادية في المقـام الثاني، ويعـتبر القوة المـعنوية في المقام الأول،

وهو يعلم يقينًا أن الكـفار جميـعًا لايصلون إلى مسـتوى المسلمين في هذا المجال حتى ولو كانوا عشرة أضعاف المسلمين .

فلما دنا من باهان رحب به، ثم قال بلسانه : هاهنا عندي اجلس معي فإنك من ذوي أحساب العرب فيـما ذكر لي ، ومن شجعانهم، ونحن نحب الشـجاع ذا الحسب، وقـد ذُكر لي أن لك عقـلا ووفاء، والعاقل ينفعك كلامه وذو الوفاء يصدق قوله ويوثق بعهده .

وأَجلس فيما بينه وبين خالد ترجمانًا، فـهو يفسر لخالد مايقول، وخالد جالس إلى جانبه .

ثم قـال باهان لخالد : أخـبرنـي عنك وأنت هكذا، أتحتـاج إلى مشورة هذا الرجل معك ؟

فقال له خالد: وقد تعـجب من ذلك، إن في عسكرنا هذا لأكثر من ألفي رجل، كلهم لايُستغنى عن رأيه وعن مشورته .

فقال له باهان : ما كنا نظن ذلك عندكم ولانراكم به .

قـــال خـــالد- مـــاكل مـــاتظنون ونظن يـكون صـوابا. قـــال باهان: صدقت.

ثم قـــال باهان : إن أول مـا أكـلمك به أن أدعـوك إلـى خُلَّتي ومصافاتي. .

وهذا من الأمور الـغريبة أن يدعـو قائد الروم قـائد المسلمين إلى الخلة والمصافاة وقد تقابلا في الميدان، والروم في اعتقادهم أن المسلمين معتدون عليهم، فالوضع الطبيعي أن تحصل إرادة النقمة والإعدام بدلاً من إرادة الخلة والمصـافـاة ، ولكن إذا علمنا أن ذلك نوع من النفـاق

السياسي الذي يتعامل به الأعداء مع المسلمين وغيرهم ويعتبرونه من الحنكة السياسية والبراعة في احتواء الخصوم. . إذا علمنا ذلك فإن الغرابة تزول لأن هذا خلق من أخلاق الكفار التي لايرون فيها جرحًا لمكارم الأخلاق، أما المسلمون فإنهم بمقتضى توجيهات دينهم يعتبرون ذلك من مساوئ الأخلاق التي لايتصف بها إلا المنافقون، ولذلك أجاب خالد قائد الروم بقوله : فكيف لي ولك أن يتم هذا فيما بيني وبينك وقد جمعتني وإياك بلدة لاأريد أنا ولاتريد أنت أن نفترق حتى تصير البلدة لأحدنا ؟

فقال باهان : فلعل الله يصلح بيننا وبينكم ولا يراق دم ولايقتل قتيل.

فقال خالد : إن شاء الله فعل .

انتقل باهان بعد ذلك إلى لون آخر من محاولة احتواء خالد حيث قال له: فإني أريد أن أُلقي الحشمة فيما بيني وبينك وأكلمك كلام الأخ لأخيه وإن قبتك هذه الحمراء قد أعجبتني ، وأنا أحب أن تهبها لي، فإني لم أرَ قبة من القباب أحسن منها وأفضل، فخذ مابدا لك فيها وسلني ما أحببت فهو في يديك وهب لي هذه القبة فهي أطرف مما عندنا .

وهكذا رأينا باهان يساوم خالدًا في خيمته الجلدية ويبدي استعداده لدفع مايريد خالد من أموال، وهو الذي يملك أفخر القباب، وأنعم الأثاث، فهل كان فعلاً يريد شراء هذه الخيمة أم كان يريد شراء خالد بالإغراء المادي ؟!

إن هذا الأخير هو المتبـادر إلى الذهن في معاملة تدور بين قائدين من أعظم قادة العالم آنذاك .

فماذا كان جواب خالد له ؟ لقد قال له : هي لك فخذها ولست أريد من متاعك شيئًا .

لقد فوّت خالد عليـه مراده من هذه المساومة ، وعلم باهان أنه لا جدوى من محاولاته التي يقوم بها لاحـتواء خالد، فتحول إلى عرض المفاوضة التي يريدها فقـال لخالد: إن شئت بدأناك بالكلام وإن شئت أنت فتكلم .

فقال خـالد : ما أبالي أي ذلك كان، أما أنا فـلا إخالك إلا وقد علمت وبلغك ما أسـأل وما أطلب وماأدعو إليـه ، وقد جاءك بذلك أصحـابك ومن لقينا منـكم بأجنادين ومرج الصُّـفَّر وفحل ومـدائنكم وحـصونكم، وأمـا أنت فلست أدري مـاتريد أن تقـول ، فإن شـئت فتكلم، وإن شئت بدأتك فتكلمت .

وهكذا أشعره خالـد بأنه لاجديد لديه، وإنما مطلبه الآن هو نفس العرض السابق الذي يقدمه المسلمون في كل لقاء بينهم وبين أعدائهم، فهو مطلب واحد لاتنازل فيه ولاتحوُّل عنه .

فقـال باهان: الحمد لله الذي جـعل نبينا أفضل الأنبـياء، وملكنا أفضل الملوك ، وأمتنا خير الأمم .

فلما بلغ هذا المكان قـال خالد للترجمـان ، وقطع على صاحب الروم منطقـه، ثم قال: والحـمد لله الذي جـعلنا نؤمن بنبينا ونبـيكم وجميع الأنبياء ، وجعل الأمير الذي ولّيناه أمورنا رجلا كبعضنا، فلو

زعم أنه ملك علينا لعزلناه عنا ، ولسنا نرى أن له على رجل من المسلمين فضلا، إلا أن يكون أتقى منه عند الله وأبر، والحمد لله الذي جعل أمتنا تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتقر بالذنب وتستغفر الله منه، وتعبد الله وحده، لاتشرك به شيئًا، قل الآن مابدا لك .

فاصفرّ وجه باهان، ومكث قليلا، ثم قال باهان: الحمد لله الذي أبلانا فأحسن البلاء عندنا، وأغنانا من الفقر، ونصرنا على الأمم وأعزّنا فلا نذلّ، ومنعنا من الضيم، فلا يباح حريمنا، ولسنا فيما أعزنا الله به وأعطانا من ديننا ببَطِرين ولامرحين ولاباغين على الناس، وقد كانت لنا منكم يامعشر العرب جيران كنا نحسن جوارهم، ونعظم قدرهم، ونَفْضُل عليهم، ونفي لهم بالعهد، وخيّرناهم بلادنا، ينزلون منها حيث شاءوا ، فينزلون آمنين، ويرحلون آمنين، وكنا نرى أن جميع العرب ممن لايجاورنا سيشكر لنا ذلك الذي أتينا إلى إخوانهم، وما اصطنعنا عندهم، فلم يَرُعْنا منكم إلا وقد فاجأتمونا بالخيل والرجال، تقاتلوننا على حصوننا، وتريدون أن تغلبونا على بلادنا، وقد طلب هذا منّا قبلكم من كان أكثر منكم عددًا، وأعظم مكيدة، وأوفى جندًا، ثم رددناهم عنها، فلم يرجعوا عنا إلا وهم بين قتيل وأسير .

وأراد منا ذلك فارس ، فقد بلغكم كيف صنع الله عز وجل، بهم، وأراد ذلك منا الترك فلقيناهم بأشد مما لقينا به فارس، وأرادنا غيركم من أهل المشرق والمغرب من ذوي المنعة والعز والجنود العظيمة،

فكلهم أظفرَنا الله بهم، وصنع لنا عليهم، ولم تكن أمة من الأمم بأرقَّ عندنا منكم شأنا، ولا أصغر أخطارًا، إنما جُلُّكم رعاء الشاء والإبل، وأهل الصخر والحجر والبؤس والشقاء، فأنتم تطمعون أن نُجلِّي لكم عن بلادنا، بئس ماطمعتم فيه منها، وقد ظننا أنه لم يأت بكم إلى بلادنا -ونحن يتَّقي كلٌّ من حولنا من الأمم العظيمة الشأن الكثيرة العدد كثرتنا وشدة شوكتنا - إلا جهد نزل بكم من جدوبة الأرض وقحط المطر، فعثيتم في بلادنا، وأفسدتم كل الفساد، وقد ركبتم مراكبنا، وليست كمراكبكم ، ولبستم ثيابنا، وليست كثيابكم، وثياب الروم كأنها صفائح الفضة، وطعمتم من طعامنا وليس كطعامكم، وأصبتم منا، وملأتم أيديكم من الذهب الأحمر والفضة البيضاء ، والمتاع الفاخر ، ولقد لقيناكم الآن وذلك كله لنا ، وهو في أيديكم ، فنحن نسلمه لكم، واخرجوا به، وانصرفوا عن بلادنا .

فإن أبت أنفسكم إلا أن تحرصوا وتشرهوا ، وأردتم أن نزيدكم من بيوت أموالنا مايقْوَى به الضعيف منكم، ويرى الغائب أن قد رجع إلى أهله بخير، فعلنا، ونأمر للأمير منكم بعشرة آلاف دينار، ونأمر لك بمثلها ، ونأمر لرؤسائكم بألف دينار ، ونأمر لجميع أصحابك بمائة دينار على أن توثقوا لنا بالأيمان المغلظة ألا تعودوا إلى بلادنا ، ثم سكت .

وهنا وصل باهان إلى تفصيل مايريد عرضه من أمر الصلح في مقابل أن تدفع دولة الروم للمسلمين مبالغ ضخمة من الدنانير تصل إلى الملايين، بالرغم من أن خالدًا جابهه بما يُقَنِّطه ويدفعه إلى اليأس

من احتـوائه وموافقتـه على مايريد، وبالرغم من القـوات الهائلة التي يقودها ، ولكن لعله مأمور بأن ينفذ هذه الخطة فلابد من عرضها وإن فقدت جدواها .

وبهذا نجد الفرق واضحًـا بين تصرف قادة المسلمين وقادة الكفار، فكلهم يسيرون وفق مخطط مرسـوم، ويطيعون قادتهم الكبار، ولكن قادة المسلمين لايـنفذون الأوامر باعـتبارها أوامـر بشرية فـحسب، بل باعتبارها أوامر إلهية . ومن ضـمن هذه الأوامر طاعة المسئولين الكبار في حدود طاعـة الله تعالى ، ثم إنهـم يأخذون حريتـهم الكاملة في الأمـور الاجتـهادية التي هي دون الأمـور الثـوابت ، والتي تتطلبهـا المواقف المتـغيـرة ، ولذلك فإن أحكامـهم في اتخاذ المواقف لاتتـسم بالحـيرة والـشذوذ بل تنسـجم مع مـتطلب العـقل السليم ، بخـلاف مواقف قادة الكفار التي يغلب عليـها الاضطراب والحيرة ، وينفر من قبولها العقل السليم .

فقال خالد رضي الله عنه : الحمد لله الذي لا إله إلا هو .

فلما فسّـر له الترجمان قوله: الحـمد لله الذي لا إله إلا هو رفع يده إلى السماء ثم قال لخالد : نعم ماقلت .

ثم قال خالد . وأشهد أن محمداً رسول الله ، ﷺ .

فلما فسّر له الترجمـان قال باهان : الله أعلم، ماأدري لعله كما تقول، فأخبر الترجمان خالدا .

ثم قال خالد رضي الله عنه : أما بعد فإن كل ماذكرت به قومك من الغنى والعز،ومنع الحريم ، والظهـور على الأعداء، والتمكن في

البلاد فنحن به عارفون ، وكل ماذكرت من إنعامكم على جيرانكم منا فقد عرفناه، وذلك لأمر كنتم تصلحون به دنياكم، وإصلاحكم وإحسانكم إليهم كان ذلك زيادة في ملككم وعزًّا لكم ، ألا ترون أن ثلثيهم أو شطرهم دخلوا معكم في دينكم فهم يقاتلوننا معكم ؟

وأما ماذكرتنا به من رعي الإبل والغنم فماأقل من رأيت واحدًا منا يكرهه ، وما لمن يكرهه منا فضل على من يفعله، وأما قولكم إنا أهل الصخر والحجر والبؤس والشقاء فحالنا والله كما وصفت، ما ننتفي من ذلك ولانتبرأ منه، وكنا على أسوأ وأشد مما ذكرت، وسأقص عليك قصتنا ، وأعرض عليك أمرنا، وأدعوك إلى حظك إن قبلت .

ألا إنا كنا ، معشر العرب، أمة من هذه الأمم أنزلنا الله - له الحمد- منزلا من الأرض، ليست به أنهار جارية، ولايكون به من الزرع إلا القليل، وكل أرضنا المَهَامه والقفار ، فكنا أهل حجر ومدر، وشاء وبعير ، وعيش شديد، وبلاء دائم لازم، نقطع أرحامنا، ونقتل خشية الإملاق أولادنا، ويأكل قوينا ضعيفنا، وكثيرنا قليلنا، ولاتأمن قبيلة منا قبيلة إلا أربعة أشهر من السنة، نعبد من دون الله أربابا وأصناما ننحتها بأيدينا من الحجارة التي نختارها على أعيننا، وهي لاتضر ولاتنفع، ونحن عليها مكبُّون .

فبينما نحن كذلك على شفا حفرة من النار، من مات منا مات مشركا، وصار إلى النار، ومن بقي منا بقي كافرًا مشركا بربّه، قاطعًا لرحمه إذ بعث الله فينا رسولا من صميمنا وشرفائنا وخيارنا وكرمائنا

وأفضلنا ،دعانا إلى الله وحده أن نعبده ولانشرك به شيئًا ، وأن نخلع الأنداد التي يعبدها المشركـون دونه، وقال لنا : لاتتخذوا من دون الله ربِّكم إلهـا، ولاوليا ولانصـيرا، ولاتجـعلوا معـه صاحبـة ولا ولدا، ولاتعبدوا من دونه نارًا ولاحجرًا، ولاشمـسًا ولاقمرًا، واكتفوا به ربًّا وإلهًا من كل شيء دونه ، وكونوا أولياءه، وإليه فادعوا وإليه فارغبوا.

وقال لنا : قاتلوا من اتخذ مع الله آلهة أُخرى، وكل من زعم أن لله ولدًا، وأنه ثاني اثنين ، أو ثالث ثلاثة حتى يقولوا : لاإله إلا الله، وحده لاشريك له، ويدخلوا في الإسلام ، فـإن فعلوا حرمت عليكم دماؤهم وأمـوالهم وأعراضهم إلا بحـقها، وهـم إخوانكم في الدين، لهم مـالكم وعليـهم ماعـليكم ، فإن هم أبـوا أن يدخلوا في دينكم فاعرضـوا عليهم الجزية ، أن يؤدوها عن يد وهم صـاغرون، فإن هم فعلوا فـاقبلوا منهم، وكفّـوا عنهم، وإن أبو فقاتلوهم، فـإنه من قتل منكم كان شـهيدًا عـند الله مرزوقًا وأدخله الله الجـنة، ومن قتل من عدوكم قتل كافرًا وصار إلى النار مخلدًا فيها أبدا .

ثم قـال خـالد : وهذا والله الذي لا إله إلا هو ، أمَـر الله به نبيـهﷺ، فعلَّمناه وأمـرنا أن ندعو الناس إليه ، ونـحن ندعوكم إلى مادعا إليـه نبينا ﷺ،وإلى ما أمرنا به أن ندعو الـناس إليه، فندعوكم إلى الإسلام، وإلى أن تشـهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمـدًا عبده ورسوله ، وإلى أن تقيموا الصلاة، وتؤتوا الزكاة ، وتقروا بما جاء من عند الله عز وجل فـإن فعلتم فأنتم إخواننا في الإسـلام، لكم مالنا. وعليكم ماعلينا، وإن أبيتم فـإنا نعرض عليكم أن تعطوا الجزية عن يد

وأنتم صاغرون، فـإن فعلتم قبلنا منكم، وكفـفنا عنكم، وإن أبيتم أن تفعلـوا فقد والله جـاءكم قوم، وهـم أحـرص على الموت منكم على الحيـاة ، فاخرجوا بنا عـلى اسم الله حتى نحاكـمكم إلى الله، فإنما الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين .

وهكذا أنهى خالد بيانه بهذه الخيارات الثلاثة التي دعا إليها باهان وجيـشه، وقد تحـير باهان أمامـها وانزعج كثـيرًا، لأنه لايرضى هو ولاقومـه بالخـيارين الأولين، فلم يبق إلا الخـيار الثـالث، وهو الذي حاول بكل جهـوده السابقة أن يتلافـاه لخوفه من مواجـهته وشكِّه في عاقبته، ولكنه أمر لامـحيد عنه ، ولذلك قال باهان: « أمَّا أن ندخل في دينكم فـمـا أبعـد من ترى من النـاس من يتـرك دينه ويدخل في دينكم، وأما أن نؤدي الجـزية - وتنفس صُعَدا وثقـلت عليه وعظمت عنده. فقال - فسيموت من ترى جـميعًا قبل أن يؤدوا الجزية إلى أحد من الناس، وهم يأخذون الجـزية ولايعطونها، وأمـا قولك فاخـرُجوا حتى يحكم الله بيننا فلعـمري ماجاءك هؤلاء القـوم وهذه الجموع إلا ليحاكموك الله، وأما قـولك إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده فصدقت، والله ماكانت هذه الأرض التي نقاتلكم عليها وتقاتلوننا فيها إلا لأمة من الأمم كانوا قبلنا فـيها فقاتلناهم عليهـا فأخرجناهم منها، وقد كـانت قبل ذلك لقـوم آخرين فـأخرجهم منهـا هؤلاء الذين كنا قاتلناهم فيها ، فابرزوا على اسم الله فإنا خارجون إليكم .

هذا وفي كـلام باهان مـايدل على تشاؤمـه من هذه الحـرب وأنه يتوقع أن يرث المسلمون بلاد الشام كما ورثها الروم من أسلافهم .

كـما تدل هذه المحـاورة على أن هذا القائد كـان من أفضل قـادة

الروم وأنبلهم ولكن رجاحة العقل لاتجدي شيئًا إذا فُقِدت الهداية إلى الصراط المستقيم .

هذا وقد جاء في سياق الرواية المذكورة أن سفيان بن سليم الأزدي قال : قال لي الحارث بن عبد الله الأزدي : فلما فرغ باهان من كلامه وثب خالد فقام، وقمت معه، فمرّ بقبته فتركها له، ومضينا حتى خرجنا من عسكرهم.

قال: وبعث معنا صاحب الروم رجالا أخرجونا من عسكرهم، وحتى أمِنَّا .

قال: فرجعنا إلى أبي عبيدة ، فقص عليهم خالد الخبر، وأخبرهم بأن القتال سيقع بينهم، وقال للناس: استعدوا أيها الناس استعداد قوم يرون أنهم على ساعة مقاتلون [1] .

مشورة باهان لأصحابه :

روى أبو إسماعيل الأزدي من خبر أبي جهضم الأزدي عن رجل من الروم قال: كنت مع باهان في عسكرهم ذلك قال: وقد كان أسلم وحسن إسلامه قال: كتب باهان إلى قيصر كتابا يخبره فيه بحاله وحال أصحابه وحال المسلمين، وكان قد جمع أصحابه يوم انصرف خالد عنهم ، فقال : أشيروا عليّ برأيكم في أمر هؤلاء القوم، فإني قد هَيَّبْتهم ولاأراهم يهابون، وأطمعتهم فليسوا يطمعون، و أردتهم على الرجوع والخروج من بلدنا بكل وجه فليسوا براجعين، والقوم ليسوا يريدون إلا هلاككم واستئصالكم وسلب سلطانكم، وأكل بلادكم

(١) فتوح الشام / ١٩٤ - ٢٠٧ . بتصرف .

وسبي أولادكم ونسائكم وأخذ أموالكم ، فإن كنتم أحرارًا فقاتلوا عن سلطانكم ، وامنعوا حريمكم ونساءكم وأولادكم وبلادكم وأموالكم.

فقامت البطارقة، رجل من بعد رجل، فكلهم يخبره أنه طيب النفس بالموت دون بلاده وسلطانه ، وقالوا له: إذا شئت فانهض بنا.

فقال لهم باهان: فكيف ترون بقتالهم ، فإنا أكثر من عشرة أضعافهم نحن نحوٌ من أربعمائة ألف، وهم نحو من ثلاثين ألفا،أو أقل أو أكثر قليلا .

فقال له بعضهم : أَخرِج إليهم في كل يوم مائة ألف يقاتلون وتستريح البقية وتُسرِّح بعيالنا وأثقالنا إلى البحر فلا يكون معنا شيء يهمنا ولايشغلنا، ويقاتلهم في كل يوم منا مائة ألف ، فهم في كل يوم في قتل وجراحات، وعناء ومشقة وشدة، ونحن لانقاتل إلا كل أربعة أيام يوما ، فإن هزموا منا في كل يوم مائة ألف بقي لهم أكثر من مائتي ألف لم ينهزموا .

وقال آخرون : لا ، ولكنا نرى إذا هم خرجوا إلينا أن تبعث إلى كل رجل منهم عشرة من أصحابك ، فلا والله لاتبعث عشرة على واحد إلا غلبوه .

فقال لهم باهان: هذا ما لايكون، وكيف أقدر على عددهم حتى أبعث إلى كل رجل منهم عشرة من أصحابي؟ وكيف أقدر على أن ينفرد الرجل منهم من صاحبه حتى أبعث إليه عشرة من قِبَلي؟ وهذا مالايكون .

قال: فأَجمعَ رأيهم جميعًا على أن يخرجوا بأجمعهم خرجة

واحدة فيناجزوهم فيها، ثم لايرجعون عنهم حتى يحكم الله بينهم .

قال: فاجتمع رأي الروم كلهم على هذا .

قال: وكتب باهان إلى قيصر : أما بعد ، فإنا نسأل الله لك أيها الملك، ولجندك ولأهل مملكتك النصر، ولدينك وأهل سلطانك العز، فإنك قد بعثتني فيما لايحصيه من العدد إلا الله، فقدمت على قوم، فأرسلت إليهم، فهيَّبتهم ، فلم يهابوا، وأطمعْتهم فلم يطمعوا وخوَّفتهم فلم يخافوا، وسألتهم الصلح فلم يقبلوا، وجعلت لهم الجُعْل على أن ينصرفوا فلم يفعلوا، وقد ذُعر منهم جندك ذعرًا شديدًا، وقد خشيت أن يكون الفشل قد عمَّهم، والرعب قد دخل في قلوبهم، إلا أن منهم رجالا قد عرفتهم ليسوا بفُرَّار من عدوهم، ولاشُكَّاك في دينهم، ولو قد لقوهم لم يفروا حتى يظهروا أو يُقتلوا، وقد جمعت أهل الرأي من أصحابي وأهل النصيحة لملكنا ودينا فاجتمع رأيهم على النهوض إليهم جميعًا في يوم واحد، ثم لانزايلهم حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

قال: وكان باهان رأى رؤيا، وكتب بها إلى ملك الروم في كتابه هذا: وقد أتاني آت في منامي فقال لي: لاتقاتل هؤلاء القوم فإنهم إذَنْ يهلكونك ، فلما انتبهت من منامي عبَّرت أنه من الشيطان أراد أن يحزنني فخسأته، فإن يكن الشيطان فقد خسأته، وإلا يكن الشيطان فقد تبيَّن لي الأمر، فابعث أنت أيها الملك بثقلك وخدمك ومالك فألحقهم بأقصى بلادك وانتظر وقعتنا هذه ، فإن أظهرنا الله عليهم حمدت الله الذي أعزّ دينك، ومنع سلطانك، وإن هم ظهروا علينا

فارض بقضاء الله ، واعلم أن الدنيا زائلة عنك، كما زالت عمن كان قبلنا ، ولاتأسف منها على مافاتك، ولاتغتبط منها بشيء مما في يديك، والحق بمعاقلك وبدار مملكتك، وأحسن إلى رعيتك وإلى الناس يحسن الله إليك، وارحم الضعفاء والمساكين تُرحم، وتواضع لله يرفعك، فإن الله لايحب المتكبرين ، والسلام [١] .

استعداد الجيشين للمعركة :

قال : ثم إن باهان خرج إلى المسلمين في يوم ذي ضباب ورذاذ، فصف له عشرين صفًّا لايُرى طرفاهم ، ثم جعل على ميمنته وميسرته، فجعل ابن قناطر على ميمنته، وجعل معه جرجير في أهل أرمينية ، وجعل الدرنجار في ميسرته، وكان من خيارهم ونساكهم، فأقبلوا نحو المسلمين .

فلما نظر إليهم المسلمون وقد أقبلوا كأنهم الجراد قد ملؤوا الأرض كأنهم أعراض الجبال نهضوا إلى راياتهم .

وجاء خالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة إلى أبي عبيدة، وهم الأمراء الذين كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أمَّرهم وبعثهم إلى الشام، فأتوا أبا عبيدة ومعه معاذ لايفارقه فقالوا له : إن هؤلاء قد زحفوا إلينا في مثل هذا اليوم المطير، وإنا لانرى أن نخرج إليهم فيه إلا أن يأتونا حتى يُلِطّوا [٢] بعسكرنا ، أو يضطرونا إلى ذلك .

قال فإنكم قد أَصَبتم .

---

(١) فتوح الشام /٢٠٨ - ٢١٠ .

(٢) أي يلتصقون .

قال : وخرج أبو عبيدة ومعه معاذ بن جبل، فصفوا الناس وعبَّوهم، ووقفوهم على مراكزهم .

وأقبلت الروم في المطر، ووقفوا ساعة، وتصبَّروا عليه، فلما رأوا أن ذلك لايقلع ولاينقطع انصرفوا إلى عسكرهم .

قال: ودعا الدرنجار، وكان فيهم ناسكا، رجلا من العرب ممن كان على دين النصرانية ، فقال له : ادخل في عسكر هذا القوم، فانظر ماهَدْيهم وماحالهم وما أعمالهم وما يصنعون وكيف سيرتهم؟ ثم الْقَني بها .

فخرج ذلك الرجل حتى دخل عسكر المسلمين ، فلم يستنكروه لأنه كان رجلا من العرب، لسانه ووجهه، فمكث في عسكرهم ليلة حتى أصبح ، فوجد المسلمين يصلون الليل كله كأنهم في النهار، ثم أصبح ، فأقام عامة يومه ، ثم خرج إليه ، فقال له :

جئتك من عند قوم يقومون الليل كله يصلون، ويصومون النهار، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر، رهبان بالليل، أُسْد بالنهار لو يسرق ملكهم لقطعوا يده، ولو زنى لرجموه، لإيثارهم الحق، واتباعهم إياه على الهوى .

فقال : لئن كان هؤلاء القوم كما تزعم، وكما ذكرت لبطن الأرض خير لمن يريد قتالهم ولقاءهم من ظهرها [1] .

لقد كان ذلك الرجل النصراني لَمَّاحًا سريع الفهم، حيث فهم مزايا المسلمين العالية بتلك السرعة وكان صادقًا عادلا حيث أبرز تلك المزايا لمن بعثه بأمانة، وهي صفات جذابة لأصحاب العقول السامية

---

(١) فتوح الشام / ٢١٠ - ٢١١ .

والأفكار السليمة، وفي نفس الوقت هي صفات مرعبة للأعداء ، لأن الذين بلغوا ذلك الحد من العبادة وأقـاموا حياتهم على العدل والحق، لابد أنهم سيُحظَون بحب الله تعالى ونصره وتأييده ، ولابد أن تكون نفوسهم قوية وثابة نحـو المعالي، بحيث تستنفد كل طاقات أجـسامها في خدمة أهدافهـا السامية، وفي سبيل ذلك تُذلِّل جـميع الصعوبات وتستهين بجميع العوائق والعقبات ، ومن كان الله جل وعلا معه فلن يُخذَل، ومن كان يحمل نفـسا قوية فلن يُغلَب، فلذلك ندم الدُّرَنْجار على قتال هؤلاء المسلمين المصطفَين الأخيار .

وفي رواية للطبري أن رجـلا قال لخالد بن الوليد : مـاأكثر الروم وأقل المسلمين ! فقال خالد: مـا أقل الروم وأكثر المسلمين ، إنما تكثر الجنود بالنصـر وتـقل بالخـذلان، لابعـدد الرجـال، والله لوددت أن الأشقر براء من توجِّيه[1] وأنهم أُضعِفوا في العدد [2] .

وهذا مثل على شجـاعة خالد وقوة إيمانه وثقته العـالية بنصر الله تعالى ، حيث لاينظر إلى عدد الأعداء مهما بلغوا، وقد حاول بكلامه هذا تعديل موازين المعـركة، حيث إن الأعداء يبلغون عشـرة أضعاف المسلمين ، فـلابد أن يوازن ذلك قـوة عـالية فـي الروح المعنوية لدى المسلمين تُعوض ذلك الفرق الكبير في العدد .

عيون للمسلمين :

فلما كان الـغد خرجوا أيضًا في يوم ذي ضـباب، وأتى المسلمين رجال من العرب كانوا نصارى فأسلموا .

---

(١) أي مما أصاب أقدامه من الحفا .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٣٩٧ - ٣٩٨ .

فقال لهم أبو عبيدة ، وخالد بن الوليد: ادخلوا في عسكر الروم، فاكتموهم إسلامكم، والْقَونا بأخبارهم، فإن في هذا لكم أجرًا، والله حاسبه لكم جهادًا، فإنكم تدفعون بذلك حرمة الإسلام، وتدلُّون على عورة أهل الشرك، فانطلقوا ، فدخلوا عسكر الروم، ثم جاءوا بعد ما مضى من الليل نصفه .

فأتوا أبا عبيدة بن الجراح، فقالوا له : إن القوم قد أوقدوا النيران، وهم يتعبَّون لكم ، ويتهيأون لقتالكم، وهم مصبحوكم بالغداة، فما كنتم صانعين، فاصنعوا الآن .

فخرج أبو عبيدة ، ومعاذ بن جبل، وخالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص فعبَّوا الناس، وصففوفهم، فلم يزالوا في ذلك حتى أصبحوا [(١)] .

مبشرات بالنصر :

أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من حديث راشد بن عبد الرحمن الأزدي قال، صلى بنا أبو عبيدة بن الجراح يومئذ صلاة الغداة في عسكره، في الغداة التي لقينا فيها الروم باليرموك، فقرأ في أول ركعة ﴿ **وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ** ﴾ فلما مرَّ بقول الله عز وجل ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ** ﴾ إلى قوله ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** ﴾ [(٢)] قلت في نفسي ظهرنا والله على القوم للذي أُجري على لسانه، وسُررت بذلك

---

(١) فتوح الشام / ٢١١ - ٢١٢ .

(٢) سورة الفجر الآيات / ١ - ١٤ .

سروراً عظيمًا، وقلت: عدوُّنا والله هذا نظير هذه الأمة في الكفر والكثرة والمعاصي .

قال : ثم قرأ في الركعة الثانية ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ فلما مرَّ بقول الله عز وجل ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ إلى خاتمة السورة [1] فقلت في نفسي وهذه أخرى إن صدق[2] ليصبَّنَّ الله عليهم صوط عذاب، وليُدَمْدِمَنَّ عليهم كما دمدم على هذه القرون من قبله .

قال : فلما قضى أبو عبيدة صلاته أقبل على الناس بوجهه، فقال: أيها الناس أبشروا ، فإني رأيت في ليلتي هذه فيما يرى النائم كأن رجالا أتوني، فحفُّوا بي، وعليَّ ثياب بيض، ثم دعوا لي رجالا منكم أعرفهم، ثم قالوا لنا : أَقدموا على عدوكم ولاتهابوهم، فإنكم الأعلون، وكأنَّا مضينا إلى عسكر عدونا، فلما رأونا قاصدين إليهم انفرجوا لنا انفراج الرأس، وجئنا حتى دخلنا عسكرهم وولَّوا مدبرين.

فقال له الناس : أصلحك الله نامت عينك، هذه بشرى من الله، بشرك الله بخير .

فقال أبو مَرْثد الخَولاني، وأنا أصلحك الله قد رأيت رؤيا، إنها لبشرى من الله، وإني رأيت في هذه الليلة فيما يرى النائم كأنَّا خرجنا إلى عدونا، فلما توقفنا صبَّ الله عليهم من السماء طيرًا بيضا عظاما، لها مخالب كمخالب الأُسْد، وهي تنقض من السماء انقضاض

---

(١) سورة الشمس الآيات/ ١١ - ١٥ .

(٢) أي ظني وما قلت في نفسي .

العُقْبان، فإذا حاذت بالرجل من المشركين ضربته ضربة يخرُّ منها منقطعًا، وكأنَّ الناس يقولون، أبشروا معاشر المسلمين، فقد أيدكم الله عليهم بالملائكة .

قال : فتباشر المسلمون بهذه الرؤيا ، وسُرُّوا بها .

فقال أبو عبيدة : وهذه والله بشرى من الله، فحدثوا بهذه الرؤيا الناس، فإن مثلها من الرؤيا يشجِّع المسلم، ويحسِّن ظنه وينشِّطه للقاء عدوه .

قال : وانتشرت هذه الرؤيا ورؤيا أبي عبيدة في المسلمين، وفرحوا واستبشروا بهما [1] .

وهكذا نرى أن الله جل جلاله مع المؤمنين بنصره وتأييده ، ولاشك أن هذه الرُّؤَى كان لها الأثر البالغ في رفع معنوية المسلمين.

هذا ومما ينبغي ذكره أن هذا النصر من الله تعالى للمؤمنين، وتسكين قلوبهم، ومنحهم البشرى والسرور قبل الدخول في المعركة لم يكن لمجرد كونهم مسلمين في الظاهر وإنما ذلك لكونهم من المؤمنين الصادقين الذين لم يتسرب إلى قلوبهم اعتبار أي قوة من قوى الأرض، ولم يستلهموا النصر والتأييد إلا من الله تعالى ، وكانت ثقتهم به عظيمة واعتمادهم عليه وحده في طلب النصر .

ومن هنا ندرك الفرق الكبير بين جيوش الصحابة رضي الله عنهم وجيوش كثير من المسلمين بعد ذلك، حيث تخلف النصر عنهم وتسلط الأعداء عليهم، لأنهم كانوا لايذكرون الله تعالى في حروبهم

---

(١) فتوح الشام / ٢١٢ - ٢١٤ .

إلا قليلا فتخلَّى الله عنهم ووكلهم إلى حولهم وقوتهم .

ومع إيمان الصحابة الراسخ بأن الله تعالى مع أوليائه في شدتهم ورخائهم فإنهم لم يعتمدوا على التوكل وحده ، بل قاموا بتحقيق كل ما أمكنهم من أسباب النصر المعروفة ، فجمعوا جيوشهم في جيش واحد واختاروا المكان المناسب وطلبوا المدد من أمير المؤمنين ، إلى غير ذلك من الأسباب ،مع استصحاب التوكل على الله تعالى وطلب المدد منه في كل أحوالهم، واعتبار أن العمل بالأسباب المادية من طاعة الله تعالى فهو الذي أمرهم بإعداد القوة للكفار، والاجتماع لقتالهم، وطاعة الأمراء، فحققوا كل عوامل النصر التي تخضع لأوامر الله تعالى ورسوله ﷺ .

إنذار الروم بالهزيمة :

قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي: وحدثني أبو جهضم الأزدي عن رجل من الروم - وحدثني في خلافة عبد الملك ابن مروان - أن رجلا من عظماء الروم أتى باهان في صبيحة الليلة التي خرج إلى المسلمين باليرموك فقال: إني رأيت رؤيا، وأريد أن أحدثك بها، قال : هاتها .

قال: رأيت كأن رجالا نزلوا إلينا من السماء طوالا أحدهم أبعد من مدِّ بصره، فنزعوا سيوفنا من أغمادها، وأسنة رماحنا من أطرافها، ثم لم يدعوا منّا رجلا إلا كتَّفوه، ثم قالوا لنا، اهربوا فأكثركم هالك، فأخذنا نهرب، فمنا من يسقط على وجهه، ومنا من يتبلَّد لايستطيع أن يبرح من مكانه ، ومنا من يحلُّ كتافه، ثم يسعى حتى لانراه .

قال له باهان : أما من رأيت يسقط على وجهه، ومن رأيته يتبلد ولايطيق أن يسعى، ولايتنحَّى من مكانه فهؤلاء الذين يهلكون، وأما الذي رأيت يحلُّون كتافهم ويسعون فلا تراهم ، فأولئك الذين ينجون.

ثم قال له باهان : أما إذ رأيت [ما رأيت] فو الله لاتسلم مني أبدًا، فوجهك الوجه الذي بشَّر بالشر، وقنط من الخير، ألست أنت الذي كنت أشد الناس عليَّ في أمر الرجل الذي قتل من أهل الذمة رجلا؟ فأردت أن أقتله به، فكنت أنت أشد الناس عليَّ في أمره، حتى عطلت حدّا من حدود الله وتركته وكان من الحق عليَّ أن أقيمه، فحلْتَ بيني وبينه في جماعة من السفهاء، وتركتُه كراهية أن أفرق جماعتكم، أو أن أفرق بينكم، أو أن يضرب بعضكم بعضا، فأما الآن فقد حدَّثت نفسي بالموت، وإنما ألقى القوم من ساعة، فإن شئتم الآن فتفرقوا، وإن شئتم فاجتمعوا، فأنا أتوب إلى الله تعالى من ترك ذلك الحدّ يومئذ، فإنه لم يكن يسعني ولاينبغي لي إلا قتله ولو قتلتموني معه.

ثم أمر به فضربت عنقه ، وطلب الرومي الذي كان قتل الذمي، فهرب منه ، ولم يقدر عليه .

قال أبو جهضم : فسألت الرومي : ماكان من قصة ذلك الرومي؟

قال : إن بطريقًا من بطارقة الروم نزل بيت رجل من أهل الذمة، وكان عظيمًا من عظمائهم وأشدائهم، فوقع على امرأة الذمي

فنكحهـا، فجاء زوجهـا ليمنعه فـقتله، فخرج أخـوه فاستعـدى عليه أميرهم الأعظم باهان ، وأخبره خبره .

فدعاه باهان فقال : أحق مايزعم هذا ؟ قال . نعم .

قال : وماحملك على ما صنعت ؟

قال . إنما هي أمَتي ، وإنما زوجها عبدي، أتمنعني أن أقضي لذتي من أمتي ؟ وتريد أن تقتلني بعبدي ؟

قـال باهـان : الحقُّ أن أقـتلك بـه، وأن أمنع نسـاءهم من أشباهك، فقام رجال كثيـرون من سفهاء الروم وشرارهم فقالوا: أتقتل رجلا من عظمائنا وأشرافنا بعبد من عـبيده ؟ فمنعوه من ذلك، وكان ذلك الرجل الذي قتله باهان من أشدهم يومئذ على باهان .

فقال له باهان : أما أنتم فقد أتيتـم أمرًا عظيمًا، وعصيتم ربكم، وأغضـبتموه عليكم وإذا غـضب على قوم فهـو ينتقم منهم، ثم كف عنهم.

فقال أخو المقتول لباهان : أنا إذا لم تُـعْدني عليهم فإني استعدي عليهم ملك السماء (١) .

وهكذا في الوقت الذي ارتفعت فيـه معنوية المؤمنين بما أراهم الله في المنام من البشرى انحطت معنوية الكفار بما أراهم الله في المنام من الرعب والإرهاب، فقد أصاب "باهان" اليأس وأيقن بالهزيمة والموت، ولذلك أقـدم عـلى عـمل يخـتلـف عـمـا عـرف عنه مـن الحكمـة والسياسة، حيث قتل الرجل الذي أخبره بهذه الرؤيا مع أنه من عظماء

---

(١) فتوح الشام / ٢١٤ - ٢١٦ .

الروم ، وكانت الحكمة تقتضي أن يمنعه من نشر هذه الرؤيا لأن قتله يكون سببًا في انتشارها ، ومما يدل على يأسه من النصر أنه بعد أن ذكر سبب عدم إقامته الحد على مرتكب الذنب سابقًا وهو خوفه من أن يفرِّق جماعة الجيش قال: فأما الآن فقد حدَّثت نفسي بالموت وإنما ألقى القوم من ساعة فإن شئتم الآن فتفرقوا وإن شئتم فاجتمعوا فأنا أتوب إلى الله تعالى من ترك ذلك الحد يومئذ فإنه لم يكن يسعني ولاينبغي لي إلا قتله ولو قتلتموني معه .

استعداد الجيشين للمواجهة :

قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي : حدثني الصقعب ابن زهير عن المهاجر بن صيفي عن راشد بن عبد الرحمن الأزدي قال: خرج إلينا باهان يوم اليرموك في يوم ذي ضباب، فخرج إلينا في عشرين صفا، وهم في نحو من أربعمائة ألف ، فجعل ابن قُناطر في ميمنته، وجعل معه جُرجير صاحب أرمينية، وجعل الدُّرُنْجار في ميسرته ، وكان من نساكهم، ثم زحف إلى المسلمين مثل الليل والسيل.

وأصبح المسلمون طيبة نفوسهم بقتال المشركين، وقد شرح الله لهم صدورهم، وشجع قلوبهم على لقاء عدوهم، فهم أشد شيء بصيرة،وأحسنه نية على باهان، وأعظمه حسبة،وأحرصه على لقائهم.

فأخرجهم أبو عبيدة، وجعل على ميمنته معاذ بن جبل، وعلى ميسرته قُبَاث بن أشْيم، وجعل على الرّجالة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، وجعل على الخيل خالد بن الوليد .

وكان الأمراء، يزيد بن أبي سفيان على ربع، وشرحبيل بن حسنة على ربع، وعمرو بن العاص على ربع، وأبو عبيدة على ربع .

وخرج الناس على راياتهم، وفيها أشراف العرب وفرسانهم من رجالهم وقبائلهم، وفيها الأزد ،وهم ثلث الناس، وفيها حِمْيَر ، وهم عُظم الناس. وفيها هَمدان، وخولان، ومَذحِج، وخَثْعَم، وقُضَاعة، ولَخْم وجُذَام، وغَسَّان، وعَاملة، وكِنْدة، وحَضرَموت، ومعهم جماعة من كنانة، ولكن عُظم الناس من أهل اليمن، ولم يحضرها يومئذ أسد ولاتميم ولاربيعة، ولم تكن دَارُهم هنالك، وإنما كانت دارهم عراقية ، فقاتلوا فارس بالعراق .

فلما برز المسلمون إليهم سار أبو عبيدة في المسلمين، ثم قال: ياعباد الله انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، فإن وعد الله حق، يامعشر المسلمين اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر، ومرضاة للرب، ومدحضة للعار - أي مفشلة - فلا تبرحوا مصافكم ولاتخطوا إليهم خطوة، ولاتبدءوهم بقتال، وأشرعوا الرماح، واستتروا بالدَّرق، والزموا الصمت إلا من ذكر الله حتى آمركم إن شاء الله .

قال : وخرج معاذ بن جبل يقص على الناس ويقول : ياقراء القرآن ومستحفظي الكتاب وأنصار الهدى وأولياء الحق، إن رحمة الله والله لاتُنال وجنّته لاتُدخل بالأماني ولايؤتي الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادقين المصدقين بما وعدهم الله عز وجل، ألم تسمعوا قول الله عز وجل ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ . . الآية(١)

---

(١) سورة النور / ٥٥ .

أنتم إن شاء الله منصورون ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[1] واستحيوا من ربكم أن يراكم فرَّاراً من عدوكم، وأنتم في قبضته ورحمته ، وليس لأحد منكم ملجأ ولا ملتجأ من دونه، ولامُتعَزَّزَ بغير الله، فجعل يمشي في الصفوف ، ويحرضهم ويقصّ عليهم، ثم انصرف إلى موقفه.

وقال أبو إسماعيل الأزدي وحدثني محمد بن يوسف عن ثابت ابن سهل بن سعد الأنصاري قال، ومرَّ عمرو بن العاص على الناس يومئذ ، فجعل يعظهم ويقص عليهم ويحرضهم، ويقول: أيها الناس غُضُّوا أبصاركم، واجثوا على الركب، وأشرعوا الرماح،والزموا مراكزكم ومصافكم، فإذا حمل عليكم عدوكم فأمهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فَثِبُوا في وجوههم وثوب الأُسْد، فو الذي يرضى الصدق ويثيب عليه، ويمقت الكذب ويعاقب عليه، ويجزي بالإحسان لقد بلغني أن المسلمين سيفتحونها كَفْرًا كفرا [2]، وَقصْرًا قصرا، فلا يهولنَّكم جموعهم ولاعددهم ، فإنكم لو صدقتموهم الشدَّة لقد انذعروا انذعار أولاد الحجل [3] .

قال : وكان أبو سفيان يومئذ يسير في الناس ، ويقف على أهل كل راية وعلى كل جماعة ،فيحرض الناس ويحضُّهم ويعظهم ويقول:

---

(١) سورة الأنفال الآية ٤٦ .

(٢) أي بلدا بلدا .

(٣) الحجل نوع من الطيور .

إنكم يامعشر المسلمين أصبحتم في دار العجم منقطعين عن الإبل، نائين عن أمير المؤمنين وأمداد المسلمين، وقد والله أصبحتهم بإزاء عدو كثير عددهم ، شديد عليكم حنَقُهم ، وقد وترتموهم في أنفسهم ونسائهم، وأولادهم وأموالهم وبلادهم، فلا والله لاينجيكم منهم اليوم وتبلغون رضوان الله إلا بصدق اللقاء والصبر في مواطن المكروهة ، فامتنعوا بسيوفكم، وتقربوا بها إلى خالقكم، ولتكن هي الحصون التي تلجؤون إليها، وبها تُمنعون (١) .

هذا ولقد كان لكلمات هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم وأمثالها أثر بالغ على عموم المسلمين ، فإن الموقف كان شديداً تعلوه الرهبة والتخوف من وقع المفاجأة حينما يقابل الفرد المسلم عشرة من الكفار، فكان لابد من قيام أهل الشجاعة والرسوخ في العلم من تثبيت أفراد الجيش الإسلامي ليواجهوا هول الصدمة بالثبات والصبر .

وصف المعركة :

أخرج محمد بن عبد الله الأزدي من خبر ثابت بن سهل بن سعيد الأنصاري قال وزحف الروم إلى المسلمين وهم يزفُّون زفّا، ومعهم الصلبان، وأقبلوا بالأساقفة والقسيسين والرهبان، والبطارقة والفرسان، ولهم دويّ كدوي الرعد، وقد تبايع عُظْمُهم على الموت، ودخل منهم ثلاثون ألفا، كل عشرة في سلسلة لئلا يفروا .

فلما نظر إليهم خالد بن الوليد مقبلين أقبل إلى نساء المسلمين

---

(١) فتوح الشام / ٢١٧ - ٢٢٠ ، وانظر تاريخ دمشق ٢/ ١٤٨ - ١٤٩ .

وهنَّ على تل مرتفع في العسكر ، فقال: يانساء المسلمين ، أيما رجل أدركتنَّه منهزمًا فاقْتُلْنَه فأخذن الخناجر، ثم أقبلن نحو المسلمين ، فقلن: لستم ببعولتنا إن لم تمنعونا اليوم .

وأقبل خالد إلى أبي عبيدة فقال له : إن هؤلاء قد أقبلوا بعدد وجدٍّ وَحدٍّ وإن لهم لشدَّة لايردها شيء، وليست خيل المسلمين بكثيرة، ولا والله لاقامت خيلي لشَدَّة حملتهم وخيلهم ورجالهم أبدا، وخيل خالد يومئذ أمام صفوف المسلمين، والمسلمون ثلاثة صفوف .

قال خالد : فقد رأيت أن أفرق خيلي فأكون أنا في إحدى الخيلين، ويكون قيس بن هبيرة في الخيل الأخرى، ثم تقف خيلنا من وراء الميمنة والميسرة. فإذا حملوا على الناس ، فإن ثبت المسلمون، فالله ثبتهم وثبت أقدامهم، وإن كانت الأخرى حملنا عليهم بخيولنا، وهي جامّة على ميمنتهم وميسرتهم، وقد انتهت شَدَّة خيلهم وقوتها، وتفرقت جماعتهم ، ونقضوا صفوفهم، وصاروا نَشَرًا ، ثم نحمل عليهم وهم على تلك الحال، فأرجو عندها أن يظفرنا الله بهم، ويجعل دائرة السوء عليهم .

وقال لأبي عبيدة : قد رأيت لك أن توقف سعيد بن زيد موقفك هذا، وتقف أنت من ورائه في جماعة حسنة، فتكونوا ردءًا للمسلمين.

فقبل منه أبو عبيدة مشورته، وقال: افعل ماأراك الله، وأنا فاعل ماذكرت، فأمر أبو عبيدة سعيد بن زيد ، فوقف في مكانه، وركب

أبو عبيدة، فسار في الناس يحرضـــهم، ويوصيهم بتقوى الله والصبر، ثم انصرف ، فوقف من وراءِ الناس ردءًا لهم (١) .

وهكذا لما اقترب الروم من المسلمـين وفَّق الله خالد بن الوليد إلى خطة تكمل مابدأه من خطته السابقـة التي قسم بها الجيش إلى أربعين كتـيبة تقـريبًا ، وذلك أنه رأى ضخـامة جـيش الروم ومايتقـدمه من الخيول التي تزيد عن خيول المسلمين أضـعافا، فأدرك أنه سيكون لهم شَدَّة عنيفة تؤثر فـيمن يواجههم ، وهو يدرك بألمعيته وخـبرته الحربية العالية أن مقاومة الجيوش الضخمة بجيوش لاتزيد عن عشرها لايكون بمجرد المواجهة والاعتماد على الشـجاعة والصبر والثبات ، وإنما لابد مع ذلك من إعـمال الفكر واسـتعـمال الحـيل، وذلك في تتبع نـقاط الضعف لدى الأعداء ثم الاستفادة من ذلك بالهجوم المركز الذي يبهت الأعداء ويحول بينهم وبين الاستفادة من طاقـتهم ، فيبقى أكوام منهم معطلين لايستطيعون المواجهة بمفردهم .

ونتيجة لهذا التفكير فـقد رأى خالد أن يقسم خيله قسمين، يكون هو على رأس قســم منهما وعلى الآخـر قيس بن هبـيرة المرادي الذي كان يعتبر الرجل الثاني في الفروسية بعد خالد، فيكون أحدهما خلف ميمنة المسلمين والآخر خلف ميســرتهم ، حتى إذا انتهت شَدَّة فرسان الروم الأولى واختلطوا بجيش المسلمين خرج لهم خالد وقيس بفرسان المسلمين من الميمنة والميسرة فأوقعوا الخلل في صفوفهم .

قال مـحمد بن عـبد الله الأزدي في سـياق خبـر ثابت بن سهل

---

(١) فتوح الشام / ٢٢٠ - ٢٢١ ، وانظر تاريخ دمشق ٢/ ١٥٠ - ١٥١ .

الأنصاري : وأقبلت الروم كقطع الليل حتى إذا حاذوا الميمنة نادى معاذ ابن جبل الناس، فقال: ياعباد الله المسلمين، إن هؤلاء قد تيسروا للشَّدَّة عليكم، ولا والله لايردهم إلا صدق اللقاء والصبر على البأساء، ثم نزل عن فرسه : وقال: من أراد أن يأخذ فرسي ويقاتل عليه فليأخذه، فوثب إليه ابنه عبد الرحمن بن معاذ وهو غلام حين احتلم. فقال: ياأبت ، إني لأرجو أن أكون أنا فارسًا أعظم غناء عن المسلمين مني راجلا، وأنت ياأبت راجل أعظم غناء منك فارسا، وعُظْم المسلمين رجالة، وإذا رأوك صابرًا محافظًا صبروا إن شاء الله وحافظوا .

فقال له معاذ بن جبل: وفقني الله وإياك يابني لما يحب ويرضاه، فقاتل معاذ وابنه قتالا ماقاتل مثله كثير من المسلمين .

ثم إن الروم تحاضّوا وتداعوا ، وقَصَّت عليهم الأساقفة والرهبان، وقد دنوا من المسلمين ، فإذا سمع معاذ ذلك منهم قال: اللهم زلزل أقدامهم ،وأرعب قلوبهم، وأنزل علينا السكينة، وألزمنا كلمة التقوى، وحبب إلينا اللقاءَ، ورضِّنا بالقضاء .

قال : وخرج باهان صاحب الروم ، فجال في أصحابه وتيسَّر ، وأمرهم بالصبر والقتال دون ذراريِّهم وأموالهم وسلطانهم وبلادهم، ثم بعث إلى صاحب الميسرة أن أحمل عليهم، وكان عليها الدَّرَنْجار، وكان متنسكا، فقالت البطارقة والرؤوس الذين معه : قد أمركم أميركم أن تحملوا عليهم .

قال : وتهيأت البطارقة ، ثم شدّوا على الميمنة، وفيها الأزْد،

ومذْحج وحضرموت وحميَر وخوْلان ، فثبتوا حتى صدقوا ، واقتتلوا قتالا شديدًا .

ثم إنه ركبهم من الروم أمثال الجبال ، فأزالوا المسلمين من الميمنة إلى ناحية من القلب، فانكشفت طائفة من المسلمين إلى المعسكر، وثبت عُظْم الناس فلم يزولوا ، وقاتلوا تحت راياتهم ولم ينكشفوا، ولم تنكشف يومئذ زَبيد وهي في الميمنة، وفيهم الحجاج بن عبد يغوث أبو عمرو بن الحجاج ، فنادى : ياخَيْفان[1] ياخيفان، فاجتمعوا إليه، ثم شدوا على الروم، وهم في نحو من خمسمائة رجل شدة شديدة ، فلم يتنهنهوا حتى خالطوا الروم، ثم قاتلوا قتالا شديدًا، وشغلوهم عن اتِّباع من انكشف من المسلمين، وشدت عليهم حمير وحضْرَمَوت وخولان بعدما كانوا زالوا ، ثم رجعوا إلى مواقفهم حتى وقفوا في الصف حيث كانوا .

واستقبلت النساء المسلمين وهم منهزمون ، ومعهن العناَهِر (وقال العناهرُ عمُد البيوت) فأخذن يضربن بها وجوههم .

قال سهل بن سعد :أخذت خولة ابنة ثعلبة بن مالك بن الدُّخْشُم عمودًا من تلك العمد، ثم أقبلت نحو المنهزمة وهي ترتجز وتقول :

ياهَاربًا عَن نِسْوةٍ تَقيَّات رُميتَ بالسَّهْم وَبالمنيَّات
فعَنْ قَليلٍ ماتُرَى سَبيَّات غير حظيَّات ولارضيَّات[2]

كل هذا وخالد بن الوليد يقف بخيله خلف الميمنة ينتظر اللحظة

---

(١) الخيفان الكثرة من الناس .

(٢) فتوح الشام / ٢٢٢ - ٢٢٣ ، وانظر تاريخ دمشق ٢/١٥١ - ١٥٢ .

المناسبة للهجوم الكاسح الذي يرجو أن يحسم به المعركة، وكان قد توقع حدوث بعض الخلل في جيش المسلمين لأنه يدرك ضخامة العبء الذي سيصبُّ على المسلمين حيث سيواجه ثلاثة صفوف من المسلمين عشرين صفًّا من الروم، فوضع خطته الحربية التي نوَّهنا عنها سابقًا، وقد حان له الآن تنفيذها، فهجم بخيله هجومًا قويًا شديدًا على جيش الروم من جانب ميسرتهم فقتل منهم في حملته تلك نحوًا من عشرة آلاف ودخل كثير منهم معسكر المسلمين مجرحين وهاربين من عنف الهجوم الكاسح، ولما قضى خالد على هجوم الروم ورفع الضغط عن المسلمين عاد يتتبع بفرسانه الروم الذين دخلوا معسكر المسلمين ، ثم جمع خيله ونادى فيهم وفي عموم الجيش : ياأهل الإسلام لم يبق عند القوم من الجلَد والقتال والقوة إلا ما قد ر أيتم، فالشَّدَّةَ الشدة ، فو الذي نفسي بيده ليعطينكم الله الظفر عليهم الساعة، إني لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم .

فجعل لايسمع هذا القول من خالد أحد من المسلمين إلا شجعه عليهم (١) .

وقد كان خالد جعل خلف الميسرة نصف الفرسان بقيادة قيس بن هبيرة حسب خطته السابقة وقد قام قيس بمثل الهجوم الذي قام به خالد في الميمنة، فإنه لما أحس بأن فرسان الروم قد فقدوا كثيرًا من طاقتهم واشتدت الوطأة على المسلمين هجم بفرسانه من جانب ميمنة

---

(١) فتوح الشام / ٢٢٥ - ٢٢٦ ، وانظر تاريخ دمشق ٢/ ١٥٤ .

الروم فقصف بعضهم على بعض كما فعل خالد وقتل منهم عدداً كبيراً[1] .

أما قلب الجيش الإسلامي فقد كان في مقدمته سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عم عمر بن الخطاب وأحد العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنهم أجمعين وقد كان أسداً في الحروب لايهاب الأهوال، ولهذا كان أبو عبيدة يختاره للمقدمة لتفوقه في الثبات أمام الأعداء، ومن ورائه شرحبيل بن حسنة، ثم أبو عبيدة في جماعة من المسلمين. وقد كان في مقابلهم من جيش الروم جبلة بن الأيهم في عرب الشام، والأرمن بقيادة جرجير فتوجهوا إليه كأمثال الجبال ولكن موجاتهم العاتية تحطمت أمام ثبات سعيد بن زيد ومن معه من الأبطال، فثبت قلب الجيش الإسلامي ولم يتزحزح، وكان من أهم عوامل ثباته وجود أبي عبيدة في كتيبة من وجوه المسلمين خلف القلب ، فكان من أوجعه حر القتال وفكر في أن ينهزم يستحي أن يمرَّ بأبي عبيدة وهو منهزم، وإن وجود أبي عبيدة خلف الجيش جزء من خطة خالد التي سبق ذكرها وقد تبينت نتائجها الحسنة في سير المعركة .

وفي الإشادة بجهود سعيد بن زيد يقول حبيب بن مسلمة: اضطُرِرنا يوم اليرموك إلى سعيد بن زيد ، فلله در سعيد، ماسعيد يومئذ إلا مثل الأسد، جثا والله على ركبتيه حتى إذا دنوا منه وثب في وجوههم مثل الليث فطعن برايته أول رجل من القوم فقتله، وأخذ والله يقاتل راجلا قتال الرجل الشجاع البأس فارسا[2] .

---

(١) فتوح الشام / ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٢) فتوح الشام / ٢٢٨ ، وانظر تاريخ دمشق ٢/ ١٥٥ .

هذا وقد نجحت خطة خالد بالهجوم المباغت بفرسان المسلمين من جانبي جيش الروم ، فاستطاع بذلك أن يفصل بين مشاة الروم الذين مايزالون في مصافِّهم وبين فرسانهم الذين دخلوا في جيش المسلمين وخرج كثير منهم من الخلف .

وقد ساعد على نجاح هذه الخطة قلة كثافة الجيش الإسلامي فكان فرسان الروم يخترقونه بسرعة، ثم يهرب كثير منهم في الصحراء ، خاصة بعد هجوم فرسان المسلمين، والروم كغيرهم من الكفار ليس لديهم استعداد للتضحية بأنفسهم ، فإن أهم شيء عندهم وقاية أنفسهم من الخطر، وقد كانوا قبل هذه المعركة يفرون من أول لقاء مع المسلمين ، فجاءت تعليمات هرقل لباهان أن يختار للجيش مكانا واسع المُطَّرد ضيق المهرب، فاختار ذلك المكان المقفل من الجهات الثلاث بحيث لايمكن الهروب إلا باختراق جيش المسلمين، ونظراً لخبرة المسلمين بالروم فقد أفسحوا لهم المجال للهرب فكان من يخترق جيشهم لايرجع إلى قومه في الغالب فأصبح مشاة الروم بدون فرسان في مواجهة المسلمين، عند ذلك نهد خالد بالجيش كله للهجوم على جيش الأعداء وقد كان معظمهم من المشاة، وقد ابتدأ الهجوم من القلب حيث أمر عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو أن ينشبا القتال الشامل وكانا على مجنبتي القلب .

فأنشبا القتال وارتجز القعقاع وقال :

ياليتني ألقاك في الطِّراد   قبل اعترام الجحفل الورَّاد

وأنت في حلبتك الوِرادِ

وقال عكرمة :

قد علِمَتْ بَهْكَنة الجواري　　　أنّي على مكرُمَة أُحامي (1)

وشد المسلمون عليهم جميعًا شَدَّة واحدة، وكان الأعداء في رعب شديد لما وقع لفرسانهم ، فكانت مقاومتهم ضعيفة جدًا، حتى شبَّههم بعض الرواة بالحائط كما جاء في رواية للطبري « وأقبل خالد والمسلمون على الرَّجْل - يعني المشاة - ففضُّوهم فكأنما هُدم بهم حائط » (2) .

ومازال المسلمون يقتلونهم وهم يتراجعون إلى الخلف، حتى اقتحموا خندقهم فاقتحمه المسلمون معهم ، ومازال المسلمون يقتلون منهم وهم يتراجعون إلى الخلف حيث يسيرون إلى مهلكهم، ذلك أن مكان المعركة يضيق شيئًا فشيئًا بين نهر الرقاد ونهر اليرموك حتى يلتقيان في الأخير ، واستمر المسلمون في قتالهم ودَفْعهم حتى أظلم الليل عليهم، والمسلمون يواصلون القتال، حيث لايمنعهم من ذلك ظلام الليل ولاطول جلاد، إلى أن تهافت الروم في هاوية سحيقة في نهر الرقاد، فسميت تلك الهاوية الواقوصة لأن الروم وُقصوا فيها، وقد هلك منهم في الواقوصة نحو مائة وعشرين ألفا، وقد كان اقترن منهم بالسلاسل ثمانون ألفا كل عشرة في سلسلة، فكانوا إذا هوى منهم واحد هوى أصحابه المقترنون معه، وقتل منهم في المعركة بعدما أدبروا نحو من خمسين ألفا (3) .

---

(1) تاريخ الطبري ٣/ ٣٩٨ .

(2) تاريخ الطبري ٣/ ٤٠٠ .

(3) تاريخ الطبري ٣/ ٤٠٠ ، فتوح الشام للأزدي / ٩٤ -٩٥ .

وهكذا عاد تخطيطهم أكبر وبال عليهم، فلما كانت نقطة الضعف البارزة لديهم هي الفرار عند اللقاء حاولوا تلافي ذلك باختيار هذا المكان الذي يصعب الفرار منه ، وقرنوا جنودهم بالسلاسل من أجل أن لايفروا ، فكان ذلك سببًا في هلاك هذا العدد الهائل منهم، وهكذا يجعل الله تخطيط الكافرين وبالا عليهم، ويهدي المسلمين إلى التخطيط الناجح المحطِّم لعدوهم، فله سبحانه الحمد والمنة .

وأخرج الأزدي من خبر حنظلة بن جُوَيَّة قال : واتبعهم خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، على الخيل، يقتلهم في كل واد وكل شعب، وفي كل جبل وفي كل ناحية ، فلم يزل يقتلهم حتى انتهى إلى دمشق.

فخرج إليه أهل دمشق فاستقبلوه ، وقالوا : نحن على عهدنا الذي كان بيننا وبينكم .

فقال خالد لهم : أنتم على عهدكم .

ثم اتبعهم خالد، فجعل يقتلهم في القرى والأودية، وفي الجبال والشعاب، والسهل والجبل، وفي كل وجه .

فلم يزل يقتلهم حتى انتهى إلى حمص .

فخرج إليه أهل حمص، فقالوا له مثل ماقال له أهل دمشق .

وقال لهم : نحن على ماكان بيننا وبينكم .

وأقبل أبو عبيدة على قتلى المسلمين، يرحمهم الله ، وجزاهم عن الإسلام وعن أهله خيراً ، فدفنهم [1] .

---

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٣١ ، وانظر تاريخ دمشق ٢/١٥٨ - ١٥٩ .

هذا وإننا حينما نتصور انتصار هذه الفئة القليلة التي لاتتجاوز عُشر جيش عدو قد أقبل وهو مملوء بالغيظ والعداء ، وقد اكتسب خبرة كافية في قتال المسلمين ، وتعاهد كبراؤه على الموت في سبيل الدفاع عن مملكة الروم . .

إننا حينما نتصور انتصار هذه الفئة على هذا العدو الهائل يتملكنا العجب، وتهيمن علينا الحيرة ، فإن هذا الانتصار في مقاييس البشر أقرب إلى الاستحالة .

إن الذي يتصوره الذهن المجرد أن جيش الروم الهائل سيطْبق على جيش المسلمين من كل جهة ، وسيشلُّ حركتهم ويتركهم كأمس الذاهب.

ولكن الذي يمحو هذا التصور من أذهاننا، والذي محاه قبل ذلك من أذهان المسلمين آنذاك هو الإيمان الراسخ بأن المسلمين الصادقين ليسوا وحدهم في الميدان، وإنما هم موصولون بقوة الله العلي القدير، ومن كانوا كذلك فإنهم لايُغلبون أبدا حتى يقع منهم الإخلال بشيء من واجبهم مع الله تعالى .

وفي ذلك يقول خالد بن الوليد في حال المشورة قبل المعركة: «وإن كنا إنما نقاتلهم بالله ولله فما جماعتهم ولو كانوا أهل الأرض أنها تغني عنهم شيئًا » .

وقد ثبت أن الله تعالى أمد أولياءه المؤمنين بالملائكة في أكثر من موطن، فقد أمدهم في بدر وحنين، واعتبر سبحانه الشرط اللازم لهذا الإمداد أن يتحلَّى المؤمنون بالتقوى والصبر كما جاء في قوله تعالى

﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٢٥] .

وقد كان الصحابة مثلا أعلى في تقوى الله تعالى والصبر على حر القتال .

وإن هؤلاء الذين أمدهم الله تعالى في عهد النبوة بالملائكة قد حضر اليرموك منهم ألف صحابي منهم مائة من أهل بدر[1] وصحبهم من التابعين من كانوا على نية صادقة واحتساب، وإن الصحابة الذين أمدهم الله تعالى بالملائكة في بدر وحنين لم يفقدوا في حروبهم بعد ذلك إلا شخص النبي ﷺ، ولكنهم ظلوا بعده على العهد لم يبدِّلوا ولم يغيروا، فحَرِيٌّ بهم وهم كذلك أن تنزل عليهم الملائكة لنصرهم.

تحديد تاريخ المعركة :

تعتبر معركة اليرموك كبرى معارك المسلمين، ومع كونها بهذا الحجم الكبير وأنها المعركة الفاصلة بين المسلمين والروم فقد اختلف المؤرخون في تاريخ حدوثها اختلافًا كبيرًا، فنجد سيف بن عمر الضَّبِّى يؤرخ لهذه المعركة في شهر جمادى الآخرة من العام الثالث عشر ويعتبرها أولى المعارك الكبرى في الشام ويعتمد ذلك ابن جرير الطبري، بينما نجد جمهور المؤرخين يعتبرونها في شهر رجب من العام الخامس عشر ويجعلونها آخر المعارك الكبرى في الشام، وممن قال بذلك ابن إسحاق والواقدي والأزدي وابن الكلبي والبلاذري وابن عساكر، وقد ذكر في ذلك تسعة أقوال، ثم قال: وهذه الأقوال هي

(١) البداية والنهاية ٧/ ٩ .

المحفوظة في تاريخ اليرموك ، وقد ذكر سيف بن عمر أنها كانت قبل فتح دمشق في أول خلافة عمر سنة ثلاث عشرة ، ولم يتابع على ذلك[1] .

وقال الإمام الذهبي : نزلت الروم اليرموك في رجب سنة خمس عشرة ، وقيل سنة ثلاث عشرة وأراه وهمًا [2] .

ولاشك بأن قول الجمهور بأنها كانت في العام الخامس عشر أرجح للدلائل التالية :

١- أن كثيرًا من التفاصيل التي مرَّ ذكرها لاتنطبق على كون المعركة في العام الثالث عشر وفي أواخر حياة الصديق رضي الله عنه، ومن ذلك الرسائل المتبادلة بين أبي عبيدة وعمر رضي الله عنهما، فهذا يدل قطعًا على أنها كانت في خلافة عمر، والرسائل أكثرها كان قبل المعركة .

٢- أنه جاء في خطاب هرقل الذي خاطب به عظماء الروم بعد فتح المسلمين لحمص " وقد قاتلتموهم - يعني المسلمين - غير مرة بأجنادين وفحل ودمشق والأردن وفلسطين وحمص " فذكر معارك الشام الكبرى ولم يذكر اليرموك مع شهرتها مما يدل على أنها لم تحدث آنذاك .

٣- جاء في أحداث اليرموك أن باهان قائد الروم بعث إلى أبي عبيدة يقول له: أرسل إليَّ الرجل منكم الذي كان قبلك أميرا - يعني خالد بن الوليد - وهذا لاينطبق على كون المعركة في شهر جمادى

(١) البداية والنهاية ٧ ، فتوح البلدان للبلاذري / ١٨٦ ، تاريخ دمشق ٢/ ١٤١-١٤٢ .

(٢) تاريخ الإسلام / الخلفاء الراشدون / ١٣٩ .

الآخرة من العام الثالث عشر لأن الأمير كان آنذاك أبا عبيدة ثم كان خالدا بتأمير أبي بكر لهما .

٤- جاء في حوار خالد مع باهان قبيل المعركة قوله " وقد علمتَ وبلغك ما أسأل وما أطلب وما أدعو إليه، وقد جاءك بذلك أصحابك ومن لقينا منكم بأجنادين ومرج الصفَّر وفحل ومدائنكم وحصونكم" .

فهذا دليل على تأخر معركة اليرموك عن هذه المعارك المذكورة وعن فتح المدائن التي من أبرزها دمشق وحمص .

٥- جاء في أحداث معركة فحل أن عكرمة بن أبي جهل حضرها وكان له دور بارز فيها وأنه حضر اليرموك وقتل فيها، فهذا دليل على تأخر معركة اليرموك عن معركة فحل .

٦- ذكر الإمام الطبري رواية عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال : « كنت في الجيش الذي مع خالد الذين أمَدَّ بهم أبا عبيدة وهو محاصر دمشق . . . » (١) .

فهذا يدل على أن وصول خالد إلى الشام كان أثناء حصار المسلمين دمشق وليس في أثناء معركة اليرموك .

وحيث تبين لنا أن هذه المعركة هي آخر المعارك الكبرى في الشام فهي المعركة الفاصلة حيث لم يقم للروم بعدها قائمة في بلاد الشام، فقد كان ملك الروم مرابطا في أنطاكية ينتظر أخبار هذه المعركة ليقرر بعدها مواصلة القتال واستعادة ملك الشام إن كانت المعركة لهم أو الجلاء عن الشام إلى غير رجعة إن كانت عليهم .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/١١ .

بلوغ هزيمة الروم ملك الروم :

قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي: وحدثني عبيد الله بن العباس قال : إن الهزيمة لما انتهت إلى ملك الروم، وهو بأنطاكية، فكان أول من جاءه رجل من المنهزمة ، فأخبره بهزيمة الروم، قال: قد كنت أعلم أنهم سيهزمونكم .

قال: فقال له بعض جلسائه : ومن أين علمت ذلك أيها الملك ؟

قال: من حيث أنهم يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة، ويرغبون في الآخرة أشد من رغبتكم في الدنيا، فلا يزالون ظاهرين ماكانوا هكذا ، وليغيِّرنَّ كما غيَّرتم ، ولينقضُنَّ كما نقضتم .

وروى بإسناده عن عبد الله بن قرط الثمالي قال: فإنه - يعني ملك الروم - لكذالك إذ جاءه رجل عظيم من عظماء الروم، فقال له الملك: ماوراءك؟ قال الشرُّ هُزمنا .

قال: فما فعل أميركم باهان؟ قال : قُتل، قال: فلان وفلان وفلان، فسمى له عدداً من أمرائه وبطارقته وفرسان الروم، قال: قتلوا.

فقال له : ولكنك أنت والله أخبث وألأم وأكثر من أن تذُبَّ عن دين أو تقاتل عن دنيا .

ثم قال لشرطه : أنزلوه ، فأنزلوه ، فجاءوا به، فقال له: ألست أنت كنت أشد الناس عليَّ في أمر محمد نبيّ العرب حين جاءني كتابه ورسوله؟ وكنتُ قد أردت أن أجيبه إلى ما دعاني إليه، وأدخل في دينه، فكنتَ أنت من أشد الناس علي حتى تركت ماكنت أريد من

ذلك ، فهلاً قاتلتَ الآن قوم محمد وأصحابه دون سلطاني، وعلى قدر ماكنتُ لقيتُ منك إذ منعتني من الدخول في دينه ؟ اضربوا عنقه، فقدموه ، فضربوا عنقه .

ثم نادى في أصحابه بالرحيل إلى القسطنطينية راجعا، فلما خرج من أرض الشام وأشرف على أرض الروم استقبل الشام بوجهه فقال: السلام عليك ياسورية، سلام مودِّع، لايرى أنه يرجع إليك أبدا.

ثم أقبل على أرضه، فنظر إليها وقال: ويحك أرضا، ماأنفعك لعدوك لكثرة مافيك من العشب والخصب والخير (١) .

وهكذا كان هرقل مصدقًا بالإسلام بقلبه ويعلم أن رسول الله ﷺ هو النبي الذي بشر به أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام، منذ وصل إليه كتاب النبي ﷺ يدعوه إلى الإسلام ، وسأل عنه أبا سفيان وصحبه، وقد جمع عظماء الروم آنذاك ودعاهم إلى الإسلام فأبوا جميعًا إباءً شديدًا فأظهر لهم أنه إنما أراد أن يختبر دينهم كما تقدم .

لقد كان هرقل يريد أن يدخل في الإسلام هو وقومه ويبقى على ملكه، فلما كان الخيار بين الإسلام والملك اختار الملك ولم يسلم .

وكان موقنًا بانتصار المسلمين في كل حروبهم مع الروم، ولكنه كان مضطرًا لبعث الجيوش لقتالهم لأنه لم يكن يتصرف بإرادته وإنما كان يتصرف بإرادة زعماء دولته.

وقد ظهر غضبه - في هذا الخبر - من ذلك الزعيم الرومي الذي جاءه بخبر الهزيمة ، حيث تذكَّر أنه كان من أشد الذين وقفوا في

---

(١) فتوح الشام / ٢٣٤ - ٢٣٦ .

وجهه حين دعاهم للإسلام، فقتله بسبب ذلك مع عدم ثباته في الدفاع عن دينه الذي أظهر تصلُّبه في اتباعه .

رسالتان بين أبي عبيدة وعمر :

قال أبو إسمـاعيل الأزدي : وكتب - يعني أبا عبيـدة - إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه، حين أظهره الله على أهل اليرموك، وخرج يطلبهم :

بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله أمير المؤمنين، من أبي عبيدة ابن الجراح، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعـد ، فالحمـد لله الذي أهلك المشركين ونصـر المسلمين، وقديما ماتولى الله أمرهم، وأظـهر فَلجهم، وأعز دعوتهم، فـتبارك الله رب العالمـين ، أُخبر أمـير المؤمنين، أكـرمه الله أنا لقـينا الروم، وهم في جموع لم تلق العرب مثلهـا جموعًا قط، فأتوا وهم يرون أن لاغالب لهم من الناس أحد ، فقاتلوا المسلمين قتـالا شديدًا، ماقوتل المسلمون مثله في موطن قط، ورزق الله المسلمين الصبر، وأنزل عليهم النصر، فقتلهم الله في كل قريـة وكل شعب، وكل واد وجبل وسهل، وغنم المسلمون عسكرهم، وماكان فيه من أموالهم ومتاعهم، ثم إني أتبعتهم بالمسلمين حتى بلغت أقـاصي بلاد الشام، وقد بعـثت إلى أهل الشام عُمَّـالي ، وقد بعثت إلى أهـل إيلياء ، أدعوهم إلى الإسـلام ، فإن قبلوا وإلا فليـؤدوا إلينا الجزية عن يد وهم صاغرون، فـإن أبوا سرت إليهم حتى أنزل بهم ، ثم لا أزايلهم حـتى يفتح الله على المسلمين ، إن شاء الله ، والسلام عليك .

فكتب إليه أمير المؤمنين عمر :

من عبد الله عـمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيـدة بن الجراح، سلام عليك ، فإني أحـمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعـد ، فقد أتاني كتابك، وفـهمت ماذكرت فيـه من إهلاك الله المشركين، ونصره المؤمنين، وماصنع الله لأوليـائه وأهل طاعته، فأحمـد الله على حسن صنيعه إلينا، وأستَتِمُّ الله ذلك بشكره[1] ، ثم اعلموا أنكم لم تظهروا على عدوكم بعدد ولا عدّة، ولاحول ولاقوة، ولكنه بعون الله ونصره ومَنِّه، وفضله ، فلله الطَّوْل والمنُّ والفضل العظيم، فتبارك الله أحسن الخالقين ، والحمد لله رب العالمين ، والسلام [2] .

مواقف بطولية لبعض المسلمين :

في هذا العنوان أذكر مواقف بطوليـة لبعض المجاهدين مما لم يرد له ذكر أثناء الكلام على المعركة :

١- فمن ذلك موقف لعكرمة بن أبي جهل فقد قال ذلك اليوم : قاتلت رسول الله ﷺ في كل موطن وأفرُّ منكم اليوم ! ثم نادى : من يبايع على الموت ؟ فبايعه عمه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور في أربعمـائة من وجوه المسلمين وفرسانـهم ، فقاتلوا قدَّام فـسطاط خالد حتى أُثبتوا جميعًا جراحا وقُتلوا إلا من برأ [3] .

قال ابن كـثيـر : وقد ذكـر الواقدي وغـيره أنهم لما صـرعوا من

---

(١) أي اطلب تمام ذلك من الله تعالى بشكره .

(٢) فتوح الشام / ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٣) تاريخ الطبري ٣/ ٤٠١ .

الجراح استسقوا ماء فجيء إليهم بشربة ماء فلما قُرِّبت إلى أحدهم نظر إليه الآخر فقال : ادفعها إليه ، فلما دُفعت إليه نظر إليه الآخر فقال: ادفعها إليه ، فتدافعوها كلهم من واحد إلى واحد حتى ماتوا جميعًا ولم يشربها أحد منهم رضي الله عنهم أجمعين (١) .

وقد مات عكرمة بعدما أبلى بلاء عظيمًا سواء في هذه المعركة أو ما سبقها من المعارك منذ أن دخل في الإسلام رضي الله عنه

٢- وكان لأبي سفيان دور كبير في تثبيت المسلمين وإثارة حماسهم وكان لكبر سنه لايقاتل ولكنه يدور على المسلمين ويثبتهم حتى مرَّ على ابنه يزيد فقال له: يابني عليك بتقوى الله والصبر فإنه ليس رجل بهذا الوادي من المسلمين إلا محفوفًا بقتال، فكيف بك وبأشباهك الذين وُلُّوا أمور المسلمين ؟ أولئك أحق الناس بالصبر والنصيحة، فاتق الله يا بني ولايكوننَّ أحد من أصحابك بأرغب في الأجر والصبر في الحرب ولا أجرأ على عدو الإسلام منك . فقال: أفعل إن شاء الله ، فقاتل يومئذ يزيد قتالا شديدًا .

وعن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: هدأت الأصوات يوم اليرموك فسمعنا صوتًا يكاد يملأ العسكر يقول : يانصر الله اقترب، الثباتَ الثبات يامعشر المسلمين ، قال: فنظرنا فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد (٢) .

٣- وأخرج الأزدي من خبر سهل بن سعد قال: وأقبل يومئذ

---

(١) البداية والنهاية ٧/ ١٢ .

(٢) فتوح الشام / ٢٢٨، البداية والنهاية ٧/ ١٤، تاريخ دمشق٢/ ١٥٥, ١٥٧ .

عمرو بـن الطُّفيل بن ذي النور وهو يقول : يامعـشر الأزد ، لايؤتيَنَّ المسلمون من قِبَلكم ، وأخذ يضرب بسيفه متقدمًا عليهم، وقاتل قتالا شديدًا ، وقَتَل من أشدائهم تسعة ، ثم قتل رحمه الله .

ونادى أبو هريرة ، يامبرور ، يامبرور ، فأطافت به الأزد [(١)] .

٤- أخرج أبو إسماعيل محمـد بن عبد الله الأزدي من خبر عبد الأعلى بن سُراقة قال: انتهيت إلى أبي هريرة يومئذ وهو يقول: تزينوا للحور العين ، وارغبوا في جوار ربكم في جنات النعيم، فما أنتم إلى ربكم في موطن من مواطن الخير أحب إليه منكم في هذا الموطن، ألا وإن للصابرين فضلهم .

قال: وأطافت به الأزد ، ثم اضطربوا هم والروم، فو الذي لا إله إلا هو لرأينا الروم وإنها لتدور بهم الأرض وهم في مـجال واحد كما تدور الرَّحا، فمـا برحوا ولازالوا ، وركبهم من الروم أمثـال الجبال، فما رأيت موطنا قطّ أكثـر قحفًا ساقطا[(٢)] ، أو معصمـا نادرا، أو كفًا طائحة من ذلك الموطن ، وقد والله أوحلناهم شرًا وأوحلونا [(٣)] .

٥- أخرج أبو إسـماعـيل محـمد بن عـبد الله الأزدي من خـبر حنظلة بن جُوَيَّة قال: والله إني لفي الميـسرة إذ مرّ بنا رجال من الروم على خيل العـرب، لايشبهـون الروم وهم أشبه شيء بنا، فـما أنسى قول قائل منهم : يامـعشر العرب الحقـوا بوادي القرى ويثرب ، وهو

---

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٢٤.

(٢) القحف العظم الذي فوق الدماغ .

(٣) فتوح الشام للأزدي / ٢٢٤ - ٢٢٥، تاريخ دمشق ٢/١٥٣ .

يقول :

فِي كُـلِّ حِـيـنٍ فِئَةٌ تُـغِيرُ نَحْنُ لَنَا الْبَلْـقَاءُ والسَّدِيرُ
هَيْهَاتَ يأبَى ذَلِـكَ الأمِيرُ والملـك الْمُـتَـوَّجُ الْمَخْبُورُ

قال : وأحمل عليه ، وحمل عليّ ، واضطربنا بسيفينا، فلم يغننا شيئًا .

قال : ثم إني اعتنقته فخررنا جميعا ، فاعتركنا ساعة ، ثم إنا تحاجزنا ساعة .

قال : فنظرت إلى عنقه وقد بدا منه مثل شراك النعل، فمشيت إليه، واعتهدت ذلك الموضع بسيفي ، فو الله ماأخطأته ، فقطعته ، وصرع ، فضربته حتى قتلته، وأقبلت إلى فرسي وقد كان عار[1] وإذا قومي قد حبسوه علي، فأقبلت حتى ركبته [2].

٦ - قال حنظلة بن جوية في هذه الرواية : وقاتل قبَاث بن أشيم يومئذ قتالا شديدًا ،وكسر في ذلك اليوم ثلاثة أرماح ، وقطع سيفين، وأخذ يقول كلما قطع سيفًا أو كسر رمحًا : من يعين بسيف أو برمح في سبيل الله رجلا قد حبس نفسه مع أولياء الله ، وقد عاهد الله لايفر ولايبرح، يقاتل المشركين حتى يُظهر الله المسلمين أو يموت. وكان من أحسن الناس بلاء يومئذ [3] .

---

(١) أي لم يبق على ظهره شيء .

(٢) فتوح الشام للأزدي / ٢٢٧.

(٣) فتوح الشام للأزدي / ٢٢٧ - ٢٢٨ ، تاريخ دمشق ٢/ ١٥٥ .

٧- أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر حبيب بن مسلمة قال: وشد على عمرو بن العاص جماعة من الروم، فانكشف عنه أصحابه، وثبت عمرو، فجالدهم طويلا، وقاتلهم قتالا شديدًا، ثم إن أصحابه تراجعوا إليه ، فلسَمِعْتُ أم حبيبة ابنة العاص وإنها لتقول : قبح الله رجلا يفر عن حليلته، وقبح الله رجلا يفر عن كريمته (١) .

وهذا موقف يذكر لعمرو بن العاص في الشجاعة والثبات وإن كانت شهرته في الدهاء والسياسة ، وكون الرجل يجمع بين الشجاعة والرأي من صفات الكمال في الرجال .

٨- قال حبيب بن مسلمة في هذه الرواية : وقاتل شرحبيل بن حسنة في رُبعه الذي كان فيه قتالا شديدًا ، وكان وسطًا من الناس، إلى جانب سعيد بن زيد، وجعل ينادي ، ويقول :﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا** ﴾ إلى آخر الآية(٢).

ثم يقول: أين الشارون أنفسهم ابتغاء مرضاته أين المشتاقون إلى جوار الله في داره ؟

فاجتمع إليه ناس كثير، وبقى القلب لم ينكشف فيه أهله الذين كانوا فيه مع سعيد بن زيد .

وكان أبو عبيدة من وراء ظهور المسلمين ردءًا لهم (٣) .

---

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٢٩ ،وانظر تاريخ دمشق ٢/ ١٥٦ .

(٢) سورة التوبة / ١١١ .

(٣) فتوح الشام للأزدي / ٢٢٩، تاريخ دمشق ٢/ ١٥٦ .

٩- قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي : وحدثني أبو عبد الله بن الحسين، أن الأشتر[1] كان من جلداء الرجال ومن أشدائهم وأهل القوة منهم والنجدة . وأنه قَتل يوم اليرموك قبل أن ينهزموا أحد عشر رجلا من بطارقتهم ، وقتل ثلاثة منهم مبارزة .

وأقبل الأشتر مع خالد بن الوليد حين طلب الروم وحين انهزموا، فلما بلغوا ثَنيَّة العُقاب من أرض دمشق، وهو يهبط الهابط منها من قِبَل حمص، فيقع في الغوطة، غوطة دمشق، وعلى ثنية العقاب جماعة عظيمة من الروم ، فلما انتهوا إلى تلك الجماعة من الروم يرمون المسلمين من فوقهم ، فتقدم إليهم الأشتر في رجال من المسلمين ، وإذا أمام الروم رجل من عظمائهم وأشدائهم، وهو عظيم جسيم، فمضى إليه الأشتر فلما دنا منه وثب الأشتر ، فاستوى هو والرومي على صخرة مستوية، فاضطربا بسيفيهما، فضرب كف الرومي، فأطار كفه، وضرب الرومي الأشتر بسيفه، فلم يضره شيئًا، واعتنق كل منهما صاحبه، ثم دافعه الأشتر من فوق الصخرة، فوقعا عنها، ثم تدحرجا، فأخذ الأشتر يقول وهو في ذلك ملازم العلج لايتركه وهما يتدحرجان : ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾[2] .

فلم يزل يقول ذلك حتى انتهى إلى موضع مستوٍ من الجبل

---

(١) هو مالك بن الحارث النخعي .

(٢) الأنعام / ١٦٢ - ١٦٣ .

وقرار، فلما استقرا جميعًا وثب الأشتر على الرومي، فقتله، ثم صاح في الناس : أن جوزوا ، فجاز الناس .

فلما رأت الروم ذلك ، وأن صاحبهم قد قتله الأشتر خلوا سبيل العقبة للناس ، ثم انهزموا [1] .

وهكذا استطاع الأشتر أن يفتح الطريق للمسلمين بقتل عظيم الروم الذي كانوا يتقون به ، وهو مثل من أمثلة الشجاعة الفذة والإقدام المندفع ، حيث ينسى المغامر نفسه وحياته في سبيل خدمة المثل العليا التي يؤمن بها .

١٠- أما نساء المسلمين فكان لهن عمل مهم أثناء القتال حيث قمن بتأنيب المتراجعين إلى الوراء وتثبيتهم ، فإنهم لما انكشف بعض المسلمين من الميمنة والميسرة استقبلتهم النساء ومعهن عمد الخيام والحجارة حتى رددْنَهم إلى المعسكر .

وصاحت نسوة من المسلمين يقلن : قاتلوا أيها المسلمون فلستم ببعولتنا إن لم تمنعونا، فكان لذلك أثر في تراجع المنكشفين إلى مواقفهم .

وكان لبعضهن مشاركة في قتال من اقترب منهن من الكفار [2] .

كما جاء عن إبراهيم النخعي رحمه الله حينما سئل عن جهاد النساء قال: كنَّ يشهدن مع رسول الله ﷺ فيداوين الجرحى ويسقين المقاتلة ، ولم أسمع معه بامرأة قتلت ، وقد قاتلن نساءُ قريش يوم

(١) فتوح الشام / ٢٣٣ - ٢٣٤ ، وانظر تاريخ دمشق ٢/ ١٥٨ .

(٢) فتوح الشام للأزدي / ٢٢٩، البداية والنهاية ٧/ ١١، تاريخ دمشق ٢/ ١٥٤ .

اليرموك حين رهقهم جموع الروم حتى خالطوا عسكر المسلمين ، فضرب النساء يومئذ بالسيوف في خلافة عمر رضي الله عنه [1].

هذا إضافة إلى مهمتهن المعروفة دائمًا من سقي الجرحى وتضميد جراحهم .

فهذه المواقف وأمثالها مما مر علينا في الكلام على هذه المعركة تبين لنا عظمة المسلمين وتفوقهم في الحياة الجهادية لأنهم جعلوا الجهاد هو قضيتهم الكبرى ، فبرعوا فيه وفاقوا أبطال الأمم الذين يُعَدُّ الواحد منهم عن ألف مقاتل ، حتى أصبح الرعب منهم يسبقهم في كل موطن فيزلزل أقدام أعدائهم ، ويهيئهم للهزيمة والفشل .

وإن ماقامت به النساء المؤمنات من تثبيت المجاهدين وتقريع المنهزمين يعتبر جهدًا عاليًا كان له دور جيد في تماسك المؤمنين وثباتهم .

وإن ماقامت به بعضهن من المشاركة في القتال دفاعًا عن أنفسهن يعتبر تضحية عالية وإسهامًا جيدًا في تخفيف العبء عن الرجال .

ولقد أدرك الأعداء الذين اخترقوا صفوف المؤمنين أنه ليس من السهل الاستيلاء على نساء المسلمين لأن كل واحدة منهن تُفَضِّل أن تُقتَل عن أن تقع أسيرة بيد الأعداء .

* * *

(١) مصنف عبد الرزاق ٥/٢٩٨، رقم ٩٦٧٣ .

مواقف وعبر
فى فتوحات الشام
(ما بعد اليرموك)

عاد أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه بعد« اليرموك » إلى توزيع الجيوش الإسـلامية في الشام حسب توجـيه أبي بكر رضي الله عنه، فأمَّـر على دمشق يزيد بن أبي سفيـان وأمره بأن يستكمل فـتح القرى التابعـة لها، وأمَّر على الأردن شرحـبيل بن حسنة وأمره بفـتح القرى التابعة له، وأمَّـر على فلسطين عمرو بن العاص وأمـره أن يفتح بيت المقدس وسائر قـراها، وسار هو إلى حمص وبرفقتـه خالد بن الوليد رضي الله عنهم أجمعين .

وقد قـام يزيد بن أبي سفـيان بفتح بيـروت وصيـدا وبعض قرى الساحل وكان على مقدمته أخوه معاوية، وقد تولى معاوية فتح بعض القرى والحصون بتوجيه من أخيه يزيد (١) .

* * *

(١) فتوح البلدان للبلاذري / ١٧٣ .

١ - فتح قِنَّسرين -

كان شمال الشام تابعًا لمدينة حمص حسب تقسيم الصحابة رضي الله عنهم في تقسيم الشام على أمراء الجهاد .

وقد ذكر الإمام الطبري في رواية له أن أبا عبيدة وجَّه خالد بن الوليد رضي الله عنهما لفتح قنَّسرين ، فلقى حولها جمعًا من الروم والعرب بقيادة « ميناس» وهو رأس الروم وأعظمهم بعد هرقل، فقُتِل ميناس ومن معه مقتلة لم يقتلوا مثلها، فأما الروم فماتوا على دمه حتى لم يبق منهم أحد، وأما العرب فأَرسَلوا إلى خالد يخبرونه بأنهم عرب وأنهم إنما حُشروا ولم يكن من رأيهم حربه فقبل منهم وتركهم.

وسار خالد إلى قنَّسرين فتحصنوا منه فقال: إنكم لو كنتم في السحاب لحملَنا الله إليكم أو لأنزلكم الله إلينا .

وهذه كلمة عظيمة تدل على ثقته البالغة بنصر الله تعالى كما أنها تحمل في طيَّاتها إظهار عزِّ الإسلام وتمكن دولته وسلطانه .

قال : فنظروا في أمرهم وذكروا مالقي أهل حمص فصالحوه على صلح حمص، فأبى إلا على إخراب المدينة فأخربها (١).

قال : ولما بلغ عمر ذلك قال: أمَّر خالد نفسه، يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني، وقد كان عزله هو والمثنى مع قيامه - يعني بأمر الخلافة - وقال: إني لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا إليهما (٢) .

---

(١) يعني أخرب حصونها الحربية .

(٢) تاريخ الطبري ٣/١٠٦ .

هكذا ذكر هذا القول بعد « قنسرين » ولم يكن خالد في هذه المعركة قد أمَّر نفسه وإنما ولاه أبو عبيدة ، ولم يظهر منه عمل كبير يلفت النظر بالنسبة إلى أعماله الحربية السابقة، وإنما أمَّر نفسه في معركة « اليرموك» كما سبق حيث قال لأبي عبيدة « ولِّني ماوراء بابك فأنا أكفيك بإذن الله أمر هذا العدو » ، وقد ظهر منه من البراعة في القيادة والقوة في تحمل المسئولية وبذل الطاقة العظيمة في معركة اليرموك مايبهر الأبصار ويستجيش البصائر .

فإذا ثبت أن عمر رضي الله عنه قال هذا القول عقب معركة قنسرين فإنما يريد بالدرجة الأولى ماقام به في اليرموك لقرب الزمن بين المعركتين وانطباق كلامه على ماجرى من خالد في اليرموك .

وإن هذا الثناء البالغ من عمر على خالد ليدلنا على عظمة شخصية عمر وتجرده الواضح من حظ النفس، فقد سبق له أن عزل خالدا وهو في أوج عزِّه، لَما تبدى له من المصلحة العامة في ذلك آنذاك، وتحمَّل ماقد يواجهه من لوم الناس في ذلك، فكان الوضع المعروف لدى أكثرية الناس في هذا المجال أن يغضَّ الطرف عن محاسن من كان له رأي فيه يخالف الأغلبية إن لم يُغَطِّ على محاسنه ويحولها إلى مساوئ كما يفعل بعض الناس، أما عمر الرجل العظيم الذي يهين نفسه من أجل أن تسود المكارم والمعالي فإنه لم يهضم أبا سليمان حقه وحاشاه أن يفعل ذلك .

* * *

٢ – فتح حلب وأنطاكية –

ذكر البلاذري في رواية له أن أبا عبيدة رحل إلى حلب وعلى مقدمته عياض بن غَنْم، فوجد أهلها قد تحصنوا، فنزل عليها، فلم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم ومنازلهم والحصن الذي بها، فأُعطوا ذلك، فاستثنى عليهم موضع المسجد ، وكان الذي صالحهم عليه عياض، فأنفذ أبو عبيدة صلحه .

وسار أبو عبيدة إلى أنطاكية وقد تحصن بها خلق من أهل جند قنسرين، فلما صار بقرية مهروبة وهي على فرسخين من مدينة أنطاكية لقيه جمع للعدو ففضَّهم وألجأهم إلى المدينة ، وحاصر أهلها من جميع جوانبها ثم إنهم صالحوه على الجزية والجلاء، فجلا بعضهم وأقام بعضهم [(١)] .

وهكذا تم فتح هتين المدينتين بهذه السرعة نظرًا لقوة المسلمين، واعتبارًا بما حصل لمدينتي دمشق وحمص، وبهذا نعلم ضرورة وجود دولة الإسلام القوية في كل زمن لأن وجودها يُخضع أعداءها لها بسلاح الرعب من غير أن يكون قتال ، وهذا يوفر قوة جيش المسلمين لاستخدامها عند الحاجة .

* * *

---

(١) فتوح البلدان / ١٩٩ – ٢٠٠ .

٣ - فتح اللاذقية -

أخرج البلاذري بإسناده عن مشايخ من أهل حمص قالوا: استخلف أبو عبيدة عبادة بن الصامت الأنصاري على حمص، فأتى[١] اللاذقية فقاتله أهلها، فكان بها باب عظيم لايفتحه إلا جماعة من الناس ، فلما رأى صعوبة مُرامها عسكر على بُعدٍ من المدينة، ثم أمر أن تُحفر حفائر كالأسراب يستتر الرجل وفرسه في الواحدة منها، فاجتهد المسلمون في حفرها حتى فرغوا منها ، ثم إنهم أظهروا القفول إلى حمص، فلما جنَّ عليهم الليل عادوا إلى معسكرهم وحفائرهم، وأهل اللاذقية غارُّون، يرون أنهم قد انصرفوا عنهم، فلما أصبحوا فتحوا بابهم وأخرجوا سرحهم، فلم يَرُعْهم إلا تصبيح المسلمين إياهم ودخولهم من باب المدينة ، ففُتحت عنوة، ودخل عبادة الحصن ثم علا حائطه فكبَّر عليه، وهرب قوم من نصارى اللاذقية إلى «اليُسَيْد» ثم طلبوا الأمان على أن يتراجعوا إلى أرضهم، فقوطعوا على خراج يؤدونه قلُّوا أو كثروا ، وتُركت لهم كنيستهم، وبنى المسلمون باللاذقية مسجداً بأمر عبادة، ثم إنه وُسِّع بعدُ [٢] .

هذا وإن في هذا الخبر موقفًا حربيًا يذكر لعبادة رضي الله عنه، وفيه لون جديد من ألوان التخطيط الحربي القائم على المكر بالأعداء باجتلاب شعورهم بالأمن ثم اغتنام غفلتهم والإيقاع بهم، والمسلمون في حروبهم يحبون المبارزة بالحرب التي يتواجه فيها الأقران وتبرز فيها

---

(١) يعني عبادة بن الصامت .

(٢) فتوح البلدان / ١٨٠ - ١٨١ .

شجاعة الشجعان ، ولكن حينما يتحصن منهم الأعداء بالأسوار والأبواب المحكمة فإنهم يلجئون إلى استعمال الحيل وتصيُّد غفلات الأعداء حتى يهتكوا حصونهم ويقابلوهم وجهًا لوجه، وقلَّما يصمد لهم أعداؤهم .

* * *

٤ - فتح قَيساريَّة [١] -

ظلت قيسارية ممتنعة من المسلمين نحوا من سبع سنين، وكان عمرو بن العاص يحاصرها ثم يتركها لينضم إلى جيوش المسلمين في معاركهم الكبرى .

وحينما وَلَّى أمير المومنين عمر معاوية على جزء من الشام أمره بالمسير إليها، وجاء في كتابه له : أما بعد فإني قد وليتك قيسارية فسر إليها واستنصر الله عليهم وأكثر من قول لا حول ولاقوة إلا بالله، الله ربنا ورجاؤنا ومولانا ، نعم المولى ونعم النصير .

فسار معاوية إليها في سبعة عشر ألف من الجنود وعلى قيسارية أمير يسمى « أبنى » ، فخرجوا إلى جيش معاوية فقاتلوه فهزمهم عدة مرات، ثم إنهم خرجوا بجمع كبير فاقتتلوا في حفيظة واستماتة فانهزموا وقُتل منهم في المعركة ثمانون ألفًا وعشرون ألفًا في حال هزيمتهم .

وكان فتحها في العام التاسع عشر للهجرة .

وجعل معاوية يحبس الأسرى عنده ويقول : ماصنع ميخائيل بأسرانا صنعنا بأسراهم مثله، ففَطَمه عن العبث بأسرى المسلمين حتى افتتحها .

ووجَّه معاوية بالفتح إلى أمير المؤمنين عمر مع رجلين من«جذام» ثم خاف ضعفهما عن المسير فوجَّه رجلاً من خثعم ، فكان الخثعمي يُجهد نفسه في السير والسُّرَى وهو يقول :

---

(١) مدينة في فلسطين على ساحل البحر بين حيفا ويافا .

أَرَّقَ عَيْنِي أخَواَ جـذام　　　أُخَيُّ جُشْـم وأخـو حرام

كيف أنام وهما أمـامي　　　إذ يرحلان والهجير طامي

فسبقهما ودخل على عمر فكبَّر عمر وكبر المسلمون (١) .

وهكذا تم فـتح هذه البلدة التي اسـتـعـصت على المسلمين عـدة سنوات لمناعة أسوارها ، ولأن الروم وضـعوا ثقلهم فيهـا حينما أفلت الشام من أيديهم ، وقد لجأ إليها كـثير ممن فر من معارك المسلمين مع الروم في الشام .

وإن كثافة عدد القتلى ليدلنا على كثرة من كان فيها من المحاربين.

ولقد كـان فتح هذه البلدة من مآثـر معاوية رضي الله عنه، كـما أننا نلمح في هذا الخـبر مـثلين مما كـان يتصف به مـعاوية من الحـزم والدهاء : الأول في حبـس أسرى الأعداء عنده حـتى يضمن سـلامة أسرى المسلمين، والثـاني في إرساله رسولا ثالثًـا يخبر بالفـتح وعدم اكتـفائه بالرسـولين السابقين وإشـعار الأخـير بذلك مما جـعله ينافس الرسولين السابقين ويصل قبلهما .

*　　*　　*

(١) فتوح البلدان للبلاذري / ١٩١ - ١٩٤ ، تاريخ الطبري ٣/ ٦٠٤ باختصار .

٥ - فتح بيت المقدس -

وَجدَ عـمرو بن العاص نفـسه بين قوتين، قـوة ترابط داخل بيت المقدس، وقوة قد تحصنت بأجنادين، وذلك كله تحت قيادة «الأرطبون» وكان أدهى الروم وأبعدها غورا، وأنكاهـا فعلا، وقد رابط بأجنادين، وبعث عـمرو جيـشا لحـصار بيت المقـدس بقيـادة علقمـة بن حكيم الفراسي ومسروق بن فلان العكي، وبعث أبا أيوب المالكي إلى الرملة وكان بها جـيش تابع للأرطبون، ولما أمن عمرو على جـيشه من هذه القوات توجه إلى القوة الكبرى في أجنادين .

ذكر ذلك ابن جرير الطبري رحمه الله ثم قال : وأقام عمرو على أجنادين لايقدر من الأرطـبون على سقطة، ولاتشـفيه الرسل، فـوليَه بنفسه، فدخل عليه كأنه رسول فأبلغه مايريد وسمع كلامه، وتأمل حصونه حتى عرف ماأراد .

وقال أرطبـون في نفسه : والله إن هذا لعمـرو أو إنه للذي يأخذ عمرو برأيه ، وماكنت لأصيب القـوم بأمر أعظم عليهم من قتله، ثم دعا حرسيـا فسارَّه بقتله، فقال: اخرج فقم مكان كـذا وكذا، فإذا مرَّ بك فاقتله، وفطن له عمرو، فقـال: قد سمعت مني وسمعت منك، فأما ما قلتـه فقد وقع مني موقعا، وأنا واحد من عشـرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكاتفه ويُشهدنا أموره، فأرجع فآتيك بهم الآن فـإن رأوا في الذي عـرضتَ مـثل الذي أرى فـقـد رآه أهل العـسكر والأمير، وإن لم يروه رددتهم إلى مـأمنهم، وكنت على رأس أمرك، فقال: نعم.

ودعا رجلا فسارَّه، وقـال: اذهب إلى فلان فردَّه إليّ، فرجع إليه الرجل، وقال لعمرو: انطلق فجيء بأصحابك، فخرج عمرو ورأى أن لايعود لمثلها، وعلم الرومي بأنه قد خدعه فقال: خدعني الرجل، هذا أدهى الخلق، فبلغَتْ عمر فقال: غلبه عمرو، لله عمرو [1].

لقد كـان عمـر بن الخطاب قال حـينما علم بمواجـهة عـمرو بن العـاص لأرطبون الروم : قـد رمـينا أرطبون الـروم بأرطبون العـرب فانظروا عَمَّ تنفرج. وقد انفرجت عن استخدام ذكي من عمرو لما وهبه الله من الدهاء، عـرف به مداخل الـعدو ومـخارجـه ومواطن قـوته وضعفه.

وكان أرطبـون الروم من الدهاء بحيث عـرف أن عمرًا وقـد جاء على هيئة رسول ليس رجلا عاديا بل هو رجل يحـمل همًّا كبيرًا وقد هيمن على نفـسه فجعله يستـعمل كل طاقته في التـعرف على المواقع والرجال والسلاح وكل مـايتعلق بالحرب ولم يكن مجـرد رسول لقائد الجيش يؤدِّي الرسالة وهو غافل عن استكشاف قوة العدو وخفاياه .

وكان عمـرو بارعًا في دهائه حينما أدرك مـاأراده به الأرطبون من قراءة ذلـك في وجهـه وماقـام به من تصرف يوحي بإرادة الغـدر به، فابتكر بسرعة هذه الحيلة التي استطاع بها أن يتخلص منه، ولاشك أن عمـرًا كان أدهى منه، لأن أرطبون الروم لـم يستطع إخفـاء ماأراد في ضميره بل ظهر ذلك على وجهه حتى أدرك ذلك عمرو، بينما استطاع عمرو أن يعرض خدعته ببـساطة وكان أملك لأعصابه مع أنه كان في

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٦٠٥ .

مقام الخوف، ومن المعلوم أن الخوف يظهر في آثار منها اصفرار الوجه وتلعثم اللسان، لكن عمرًا لم يبد على وجهه أيٌّ تغير ولم يفقد شيئًا من رباطة الجأش وفصاحة اللسان، حتى خفي أمره تمامًا على أرطبون الروم، وطمع في إفناء عشرة من مفكري المسلمين بدلا من واحد .

ألا ماأحوج المسلمين اليوم إلى ممثلين لهم بذكاء عمرو ودهائه، خاصة وأن معركة المسلمين مع أعدائهم أصبحت في هذا الزمن تعتمد في أكثر مراحلها على التفوق الفكري، ولطالما استفاد القادة المسلمون من العباقرة في تذليل الصعوبات وحل المشكلات وإخضاع الأعداء للخطط التي يريدونها، ولطالما جنَّبوا أممهم تضحيات كبيرة في الأنفس والأموال بسلوك الخطط التي يرسمها العباقرة وتوجيه أذكيائهم ووجهائهم للتفاوض مع الأعداء .

أما عمرو بن العاص فإنه وقد أفلت من قبضة الأرطبون قد استفاد من رؤية معسكر الأعداء ، فأصبح أجرأ على حربهم وقد عرف مكامن ضعفهم وقوتهم فالتقوا اللقاء الأخير الذي انهزم به الأعداء، وقد لجأ الأرطبون مع من بقي من جيشه إلى القدس ، واستطاع دخولها والتحصن بها .

أبو عبيدة إلى القدس :

بعد أن أكمل أبو عبيدة تطهير شمال الشام بمساعدة خالد بن الوليد توجه بجيشه إلى القدس التي استعصى فتحها على عمرو بن العاص.

قال محمد بن عبد الله الأزدي في رواية له : فنادى بالرحيل إلى

إيلياء ، وقدَّم خالد بن الوليد على مقدمته بين يديه، وأقبل يسير حتى انتهى إلى حـمص، فبعث على حمـص حبيب بن مَسْلَمـة القُرشي، وأرض قنسرين إذ ذاك مـجموعـة إلى صاحب حمص، وإنما سـميت حمص الجند المقـدّم ، لأنها كانت أدناهـا من الروم ومن دمشق ومن الأردن وفلسطين ، وهن كلهن وراءها .

ثم خرج من حمص ومن دمشق ، فولاَّها سعيد بن زيد بن عمرو ابن نُفَيل، ثم خـرج حتى مَرَّ بالأردن، فنزلها ، فعـسكر بها، وبعث إلى أهل إيليـاء الرسل، وقال: اخرُجـوا إليّ أكتب لكم الأمـان على أنفسكم وأموالكم ، ونَفِ لكم كما وفينا لغيركم . فتثاقلوا وأبَوْا.

قال: فكتب أبو عبيدة إليهم :

بسم الله الرحمن الرحـيم، من أبي عبيدة بن الجـراح إلى بطارقة أهل إيلياء وسكانها، سـلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله العظيم ورسـوله، أما بعـد ، فإنا ندعـوكم إلى شهـادة ألا إله إلا الله، وأن محمداً عـبده ورسوله، وأن الساعة آتية لاريب فـيها، وأن الله يبعث من في القبـور، فإذا شهـدتم بذلك حرمت علينا دمـاؤكم وأموالكم، وكنتم إخـواننا في ديننا ، وإن أبيتم فـأَقرُّوا لنا باعطاء الجـزية عن يد وأنتم صاغـرون ، وإن أبيتم سرت إليكم بقـوم هم أشد حبـا للموت منكم للحياة ولشرب الخمر وأكل الخنزير ، ثم لا أرجع عنكم إن شاء الله حتى أقتل مقاتلتكم، وأسبي ذراريكم (١) .

وهذا كتاب قـوي شرح فيه أبو عبيدة دعـوة الإسلام، ودعا أهل

---

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٤٢ - ٢٤٣ .

بيت المقدس إلى الدخول فيه بالترغيب أولا ثم بالترهيب ثانيا، وليس أعظم في الترغيب من أن يكونوا إخوانا للمسلمين إذا أسلموا، لهم مالهم وعليهم ماعليهم، وليس أبلغ في الترهيب من التهديد بالغزو برجال هم أحب للموت من أعدائهم للحياة !

قال: ثم إن أبا عبيدة انتظر أهل إيلياء، فأبوا أن يأتوه ولايصالحوه، فأقبل إليهم حتى نزل بهم، فحاصرهم حصاراً شديداً، وضيق عليهم من كل جانب، فخرجوا إليه ذات يوم، فقاتلوا المسلمين ساعة، ثم إن المسلمين شدوا عليهم من كل جانب، فقاتلوهم ساعة، ثم انهزموا فدخلوا حصنهم، فكان الذي ولى قتالهم خالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان، كل واحد منهما في جانب .

فبلغ ذلك سعيد بن زيد وهو على دمشق، فكتب إلى أبي عبيدة، رضي الله عنه ورحمه :

بسم الله الرحمن الرحيم، من سعيد بن زيد إلى أبي عبيدة بن الجراح، سلام عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فلعمري ماكنت لأوثرك وأصحابك بالجهاد في سبيل الله على نفسي، وعلى مايقربني من مرضاة ربي عز وجل، فإذا أتاك كتابي هذا فابعث إلى عملك من هو أرغب فيه مني، فليعمل لك عليه مابدا لك، فإني قادم عليك وشيكا، إن شاء الله، والسلام .

قال: فلما وصل كتابه إلى أبي عبيدة قال، أشهد ليفعلنّها .

فقال ليزيد بن أبي سفيان: اكفني دمشق، فوجهه إليها، فسار يزيد إليها، فوليها [1].

---

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٤٤ - ٢٤٦ .

قال : فلما حضر أبو عبـيدة أهل إيلياء ورأوا أنه غير مقلع عنهم وظنوا أنه لاطاقة لهم بحربه قالوا له : نحن نصالحك قال: فإني أقبل منكم الصلح .

قـالوا : فأرسل إلى خليـفـتكم عمـر، فيـكون هو الذي يعطينا العهد، وهو يصالحنا ، ويكتب لنا الأمان (١) .

فقبل ذلك أبو عـبيدة منهم ، وهمّ بالكتاب، وكان أبو عـبيدة قد بعث معاذ بن جبل على الأرْدُنّ، وكان معاذ لايفـارق أبا عبيدة لرغبته في الجهاد، وكان أبو عبيـدة لايكاد يقطع أمرًا دون رأي معاذ، فأرسل إلى معاذ . فلما قدم عليه أخبره بما سأله القوم .

فقال له مـعاذ : تكتب إلى أمير المؤمنين ، وتسـأله القدوم عليك فلعله يقـدم عليـك ، ثم يأبى هؤلاء الصلح، فـيكون مـسـيـره عناء وفضلا، فلا تكتب له حتى تـوثق هؤلاء وتستحلفهم بأيمانهم المغلظة، لئن أنت سألت أميـر المؤمنين القدوم عليهم، وكتبت إليـه بذلك فقدم عليهم، فأعطـاهم الأمان، وكتب لهم كتابا على الصلـح لَيَقْبَلُنَّ ذلك ويصالحوا عليه .

فأخذ عليهم أبو عبيدة الأيمان المغلظة ، فحلفوا بأيمانهم، لئن عُمَرُ أمير المؤمنين قدم عليهم ، ونزل بهـم ، فأعطاهم الأمان على أنفسهم وأمـوالهم، وكـتب على ذلك كـتابـا ليقـبلُنّ ذلك وليـؤدُّنّ الجـزية، وليدخلُنَّ فيما دخل فيه أهل الشام .

---

(١) وإنما طلبوا ذلك لأن في كـتبهم المقدسـة أن الذي يفتح بيت المقدس هو عـمر ، وقد ذكر باسمه وصفاته كما سيأتي مايفيد ذلك .

فلما فعلوا ذلك كتب أبو عبيـدة إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بسم الله الرحمن الرحـيم . لعبد الله عمر أمـير المؤمنين من أبي عبيدة بن الجراح، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعـد فإنا أقمنا على إيليـاء ، وظنوا أن لهم في المطاولة بهم فرجا ورجاء ، فم يزدهم الله بها إلا ضـيقًا ونقصًا وهزلا وأزلا، فلما رأوا ذلك سألونا أن نعطيهم ماكـانوا به ممتنعين قبل ذلك وله كارهين، وأنهم سـألوا الصلح على أن يَقْدَم عـليهم أمـير المؤمنين، فـيكون هو المؤمِّن لهم والكاتب لهم كتابا، وإنا خشـينا أن يقدم أمير المؤمنين، ثم يغدر القوم فيرجعـون، فيكون سيرك - أصلحك الله - عناء وفضلا، فـأخذنا عـليهم المواثيـق المغلظة بأيمانهم ، لئن أنت قـدمت عليـهم، فأمَّنتهم على أنفسهم وأموالهم ليقبلُنَّ ذلك، وليؤدُّنَّ الجزية، وليدخلُنَّ فيما دخـل فيه أهل الذمة، ففعلوا وأخـذنا عليهم الأيمان بذلك، فإن رأيت يا أمـير المؤمنين أن تـقدم علينا فـافـعل، فإن في سـيرك أجـرًا وسلاما، وعافية للمسلمين، أراك الله مرشدك، ويسر أمرك، والسلام عليك .

فلما أتى عمر ، رضي الله عنه كـتابه جمع رءوس المسلمين إليه، فقرأ عليـهم كتاب أبي عبيـدة إليه، واستشارهـم بالذي كتب إليه أبو عبيدة.

فـقال له عـثمـان بن عفـان : أصلحك الله ، إن الله قـد أذلَّهم وحصرهم وضيق عليهم، وأراهم ماصنع بجموعهم وملوكهم ، وقتل من صناديدهم، وفتح على المسلمين بلادهم، فهم في كل يوم يزدادون

هزلا وأزْلا - قال: والأزل شدة العيش - وذلا ونقصا، وضيقًا ورَغْما، فإن أنت أقمت ولم تسر إليهم علموا أنك بهم وبأمرهم مستخفّ ، وبشأنهم محتقر وغير معظم ، فلم يلبثوا إلا يسيرًا حتى ينزلوا على الحكم أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وإلا حاصرهم المسلمون وضيقوا عليهم حتى يعطوا بأيديهم .

فقال عمر : ماذا ترون ؟ هل عند أحد منكم غير هذا الرأي ؟

فقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - : نعم ياأمير المؤمنين، عندي غير هذا، فقال : فماهو ؟

قال : إنهم ياأمير المؤمنين قد سألوك المنزلة التي لهم فيها الذل والصغار، وهي على المسلمين فتح ولهم عزّ، وهم يعطونكها الآن في العاجل في عافية، ليس بينك وبين ذلك إلا أن تقدم عليهم، ولك ياأمير المؤمنين في القدوم عليهم الأجر في كل ظَمإ وكل مَخمَصَة[1] ، وفي قطع كل وادٍ وكل فج وشعب، وفي كل نفقة تنفقها حتى تقدم عليهم، فإن قدمت عليهم كان قدومك الأمن والعافية، والصلح والفتح، ولست تأمن لو أنهم يئسوا من قبولك الصلح ومن قدومك عليهم أن يتمسكوا بحصونهم، ولعلهم أن يأتيهم من عدونا منهم مدد لهم، فيدخلوا معهم في حصونهم، فيدخل على المسلمين من حربهم وجهادهم بلاء ومشقة، ويطول بهم الحصار ، ويقيم المسلمون عليهم، فيصيب المسلمين من الجهد والجوع نحو مايصيبهم ، ولعل المسلمين يدنون من حصونهم ، فيرمونهم بالنّشاب، أو يقذفونهم بالحجارة،

---

(١) كل عطش وكل جوع .

فـإن قُتل أحـد من المسلمين تمنيـتم أنكم افتـديتم رجـلا من المسلمين بمسيركم إلى مقطع التراب، ولكان المسلم بذلك من إخوانه أهلا .

فقال عمر - رضي الله عنه - قد أحسن عثمان في مكيدة العدو، وقد أحسن عليّ النظر لأهل الإسلام .

ثم قال : سـيروا على اسم الله ، فـإني معسكر وسـائر، وخرج الناس معه ، أشراف الناس، وبيوتات العرب، والمهاجرون والأنصار، وأخرج عمر معه العباس بن عبد المطلب [1].

هذا وإن هذه المحاورة لتدلنا على تفوق الصحابة رضي الله عنهم - وخاصة أمير المؤمنين عمر - في الاستفادة من الشورى التي أمر الله تعالى بها وأمر بها رسوله ﷺ وطبـقها في حياته، ولقد درأ الله عنهم شرورًا كـثيرة وحقق لهم خـيرًا كثـيرًا بسبب اسـتقامتـهم على الأخذ بالشورى .

وهذه المحاورة تدلنا على أن العـقل البشري لايحـيط بالأمور من كل جوانبها غالبًا، بل يغلب على فكر أحد المستشارين أمر بينما يغلب على فكر غيره أمور أخرى، ولقد أوجـز عمر رضي الله عنه اختلاف وجهة النظر بين عثمان وعلي رضي الله عنهما بكلمات معدودة حيث قال : « قـد أحسن عثمـان في مكيدة العدو، وقـد أحسن علي النظر لأهل الإسلام » وفي هذا الكلام ثناء على الرجلين وتقـدير لهما، ثم أخذ برأي علي لأنه رآه أرفق بالمسلمين .

---

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٤٧ - ٢٥٠ .

وصول أمير المؤمنين عمر إلى الشام :

ووصل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه إلى الشام .

يقول الأزدي في سياق روايته : ثم خرج من الجابية إلى إيلياء، فخرج إليه المسلمون يستقبلونه. . . فأقبلوا يبتدرونه ، فقال للمسلمين: مكانكم .

ثم نزل عمر رضي الله عنه عن بعيره فأخذ زمام جمله، وزمامه من ليف، ثم دخل الماءَ بين يدَيْ جمله حتى جاز الماء إلى أصحاب أبي عبيدة فإذا معهم برذون يُجنِّبونه ، فقالوا ياأمير المؤمنين، اركب هذا البرذون ، فإنه أجمل بك وأهون عليك في ركوبك ، ولانحب أن يراك أهل الذمة في مثل هذه الهيئة التي نراك فيها، واسقبلوه بثياب بيض .

فنزل عمر رضي الله عنه عن جمله ، وركب البرذون وترك الثياب.

فلما هملج به البرذون نزل عنه ، وقال خذوا هذا مني، فإن هذا شيطان وأخاف أن يغيِّر عليَّ قلبي .

قالوا : ياأمير المؤمنين ،فلو لبست هذه الثياب البيض، وركبت هذا البرذون لكان أجمل في المروءة، وأحسن في المركز، وخيرًا في الجهاد .

فقال لهم عمر رضي الله عنه : ويْحكم لاتعتزوا بغير ماأعزكم الله به فتذلوا .

ثم مضى، ومضى المسلمون معه حتى أتى إيلياء فنزل بها، فأتاه رجال من المسلمين ، فيهم أبو الأعور السُّلَمي وقد لبسوا لباس الروم وتشبهوا بهم في هيئتهم .

فقال عمر رضي الله عنه : احثوا في وجوههم التراب حتى يرجعوا إلى هيئتنا وسنتنا ولباسنا .

وكانوا قد أظهروا أشياء من الديباج . ثم أمر بهم فخرق ذلك عليهم.

فقال له يزيد بن أبي سفيان : ياأمير المؤمنين، إن الدواب والثياب عندنا كثيرة ، والعيش عندنا رفيع، والسعر عندنا رخيص، وحال المسلمين كما تحب ، فلو أنك لبست من هذه الثياب البيض، وركبت من هذه الدواب الغرَّة، وأطعمت المسلمين من هذا الطعام الكثير كان أبعد للصوت، وكان أزين لك في هذا الأمر، وأعظم لك في الأعاجم.

فقال له : يايزيد لا والله لاأدع الهيئة التي فارقت عليها صاحَبيَّ، ولاأتزين للناس بما أخاف أن يشينَني عند ربي ، ولاأريد أن يعظُم أمري عند الناس ويصغر عند الله .

ولم يترك عمر رضي الله عنه هيئته على الأمر الذي كان عليه في حياة رسول الله ﷺ وحياة أبي بكر رضي الله عنه ، حتى خرج من الدنيا (١) .

وهكذا اطَّرح عمر رضي الله عنه مظاهر الدنيا، ولم يُلْق لها

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٥٢ - ٢٥٤ .

بالا، وغلب عليه ذكر الآخرة ، ومافارق عليه صاحبيه رسول الله ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه، ولم يستطع أمراء المسلمين في الشام أن يؤثروا عليه بما ذكروا من مسوغات تغيير الملبس والمركب ونحو ذلك.

وتظهر في هذا الخبر حساسية عمر المرهفة نحو مظاهر الدنيا والخوف من الافتتان بها، ويُذَكِّره تراقص البرذون لما ركبه بمظاهر الدنيا، فينزل عنه سريعًا ويعود إلى جمله، وهذا يدل على قوة إيمانه ورسوخ يقينه .

ونراه يركز في موعظته للصحابة على الاعتصام بالإسلام الذي أعز الله به المسلمون، والحذر من النظر إلى المظاهر الدنيوية، واعتبار أنها سبيل إلى العزة والكرامة .

خطبة لعمر :

قال : ثم إن عمر - رضي الله عنه - قام في الناس ، فحمد الله وأثنى عليه بماهو أهله، وصلى على النبي ﷺ ، ثم قال: ياأهل الإسلام ، إن الله قد صدقكم الوعد، ونصركم على الأعداء ، وورَّثكم البلاد، ومكَّن لكم في الأرض، فلايكن جزاء ربكم إلا الشكر، وإياكم والعمل بالمعاصي ، فإن العمل بالمعاصي كفر للنعم، وقَلَّ ماكفر قوم بما أنعم الله عليهم، ثم لم يَفزعوا إلى التوبة إلا سُلبوا عزَّهم ، وسُلِّط عليهم عدوهم . ثم نزل (١) .

فأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يذكِّر المسلمين في هذه الخطبة

---

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٥٦ .

بأن ذلك العز الذي يعيشون فيه والتمكين في الأرض سببه نصر الله تعالى إياهم .

وضمان ثباته واستدامته يكون بشكر المنعم جل وعلا بذكره وطاعته.

وزوال هذه النعم العظيمة يكون بمعصية الله تعالى فليحذر المسلمون من المعاصي حتى لايُسلبوا عزهم في الدنيا ثم يبوؤوا بالندامة يوم القيامة .

أذان بلال :

وحضرت الصلاة، فقال عمر : يابلال ، ألا تؤذن لنا رحمك الله؟ فقال بلال ياأمير المؤمنين ، أما والله ماأردت أن أؤذن لأحد بعد رسول الله ﷺ ، ولكن سأطيعك اليوم إذ أمرتني في هذه الصلاة وحدها.

فلما أذن بلال ، وسمعت الصحابة صوته ذكروا نبيهم ﷺ، فبكوا بكاء شديدًا، ولم يكن من المسلمين يومئذ أحد أطول بكاء من أبي عبيدة ابن الجراح، ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما حتى قال لهما عمر رضي الله عنه حسبُكما رحمكما الله (1) .

هذا الخبر يبين لنا حب الصحابة رضي الله عنهم العظيم لرسول الله ﷺ حيث بكوا ذلك البكاء الشديد لذكراه، وإن هذا الحب العالي من أهم الدوافع التي دفعتهم للتقيد الشديد بسنته، وبذلك ظهر تفوقهم في سلمهم وحربهم .

---

(1) فتوح الشام للأزدي / ٢٥٦ .

شكوى من بلال :

فلما قضى عمر رضي الله عنه صلاته قام إليه بلال فقال: ياأمير المؤمنين ، إن أمراء أجنادك بالشام والله مايأكلون إلا لحوم الطير والخبز النقي، ومايجد ذلك عامة المسلمين .

فقال لهم عمر رضي الله عنه : مايقول بلال ؟

فقال له يزيد بن أبي سفيان : ياأمير المؤمنين ، إن سعر بلادنا رخيص، وإنا نصيب هذا الذي ذكر بلال ههنا بمثل ماكنا به نقوت عيالاتنا بالحجاز .

فقال عمر رضي الله عنه لا والله لاأبرح العرصة[1] أبداً حتى تضمنوا لي أرزاق المسلمين في كل شهر .

ثم قال . انظروا كم يكفي الرجل مايشبعه ويكتفي به في كل يوم؟ فقالوا له : كذا وكذا .

قال : كم يكون ذلك في الشهر ؟ قالوا: جريبين [2] مع مايصلحه من الزيت والخلّ عند رأس كل هلال، فضمنوا له ذلك .

ثم قال : يامعشر المسلمين ، هذا لكم سوى أعطياتكم ، فإن وفى لكم أمراؤكم بهذا الذي فرضت لكم عليهم، وأعطوكموه في كل شهر فذلك ماأحب، وإن هم لم يفعلوا فأعلموني حتى أعزلهم عنكم وأولّي أمركم غيرهم .

---

(١) أي ذلك المكان والعرصة المكان الواسع بين البيوت .

(٢) الجريب مكيال وزنه حوالي ثلاثين رطلا .

قال: فلم يزل ذلك جاريًا لهم دهرًا مــن دهرِهم حتى قطعه عنهم ولاة السوء (١) .

وهذا الذي ذكر بلال رضي الله عنه في هذا الخبر لايعني أن أمراء الجند يوســعون علــى أنفســهم من الأمــوال العامــة، بل إن ذلك من أموالهم الخاصة، ولو كان من مال المسلمين لحاسبهم عليه أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه .

ولكن لما علم عــمــر بأن هناك تفــاوتًا في المعــيشــة بين الأغنيــاء والفقراء رفع من شأن الفقراء بما ضمن لهم من المعــيشة اليومية إضافة إلى أعطياتهم السنوية .

فلله در أمير المؤمنــين عمر من أمير عــادل يواسي الجراح ويقضي الحاجات ويقارب بين طبقات المجتمع .

عمر يجري الصلح مع أهل بيت المقدس :

قال محــمد بن عبد الله الأزدي : حدثنــي الحسن بن علي قال: ولما قدم عمر ضربت له قبة من شعر، وجلس فيها على التراب ثم قام يصلي، وعلت للمسلمين ضجة عظيمة بالتهليل والتكبير، فسمع أهل إيلياء ، فأشرفوا عليهم لينظــروا شأنهم، ونادى واحد منهم : يامعشر العرب ماشأنكم ؟

قالوا : إن أمير المؤمنين عمر قــد قدم علينا من مدينة نبينا، قال: فرجع فأعلم البطريق ، فأطرق إلى الأرض لايتكلم .

---

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٥٦ - ٢٥٧ .

فلما كان الغد وصلى عمر بالناس صلاة الفجر قال لأبي عبيدة: تقدم إلى القوم ، وأعلمهم أني قد أتيت .

قال : فخرج أبو عبيدة ، وصاح بهم وقال ، إن صاحبنا أمير المؤمنين قد قدم ، فما تصنعون فيما قلتم ؟

قال : فأعلموا البطريق فخرج من كنيسته، وعليه المسوح، وترجّل الرهبان والقسس والأساقفة معه، وقد حمل بين يديه صليبًا لايخرجونه إلا في يوم عيدهم، وتقدم إزاء أبي عبيدة وقال: ياهذا الرجل ، إن كان صاحبك قد أتى فدعه يدنُ منا، فإنا نعرفه، وأفردوه من بينكم، وليقف بإزائنا حتى نراه .

قال : فرجع أبو عبيدة إلى عمر ، وأخبره بما قال البطريق .

فَهَمَّ عمر بالقيام ، فقال له أصحابه ، ياأمير المؤمنين ، تخرج إليهم منفردًا وليس عليك آلة حرب، وإنا نخشى عليك منهم غدرا ومكرا، فينالون منك .

فقال عمر : ﴿ **قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ (١) .

ثم أمر ببعيره ، فاستوى عليه ، وسار بين القوم ، وليس معه غير أبي عبيدة ، حتى قرب من السور ، ووقف بإزاء البطريق والجاثليق.

وتكلم البطريق وقال :هذا والله الذي نجد صفته، ويكون فتح بلادنا على يديه .

---

(١) سورة التوبة آية (٥١) .

ثم إنه قال لأهل بيت المقـدس : انزلوا إليه واعقدوا مـعه الأمان والذمة، هذا والله صاحب محمد بن عبد الله .

قال : فلما سمعت الروم كلام البطريق نزلوا مسرعين، وكانوا قد ضاقت أنفسـهم من الحصار ، ففـتحوا الأبواب، وخرجـوا إلى عمر يسألونه العهد والميثاق والذمة ، ويقرُّون له بالجزية .

فنظر إليهم عمـر ، وخر ساجدًا لله وقـال : ارجعوا إلى بلادكم وذويكم ولكم الذمة والعهد إذا سألتمونا وأقررتم الجزية .

قال : ورجع عمر إلى عسكره فبات فيه ليلة (١) .

هذا وقول عالم النـصارى عن عمر رضي الله عنه « فـإنا نعرفه» يعني أنه مـذكور في كتـبهم التي ورثوها عن أنبـيائهم عليـهم السلام بصفته ، وكونهم طـلبوا أن يكون الصلح على يده دليل على أن اسمه موجـود في كتبـهم ، وقد جاء في رواية أخـرجها الإمـام الطبري أن عمرو بن العاص رضي الله عنه خادعهم ليعرف من هو الذي ذكر في كتبهم يتم الصلح على يديه، حيث كتب كـتابًا إلى الأرطبون جاء فيه «وقد عـلمت أني صاحب فـتح هذه البلاد» وأرسله مع رجل يـعرف لغتهم وأمره أن يتنكر وأن لايكلمهم بلغـتهم ، فقرأ الأرطبون الكتاب بمشهد من وزرائه فقالوا له : من أين علمت أنه ليس بصاحبها؟ قال: صاحبها اسمه « عمر » ثلاثة أحرف (٢) .

هذا وإن ذهاب أمـيـر المؤمنين عـمـر إليـهم وهو أمـيـر العـالم

---

(١) فتوح الشام / ٢٥٧ - ٢٥٩ .

(٢) تاريخ الطبري ٣/٦٠٦ .

الإسلامي، وكلٌّ الأعداء يتمنون قتله .. إن ذهابه إليهم بغير سلاح وليس معه إلا أبو عبيدة دليل على عظمة توكله على الله جل وعلا .

بشرى عظيمة :

قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي : وحدثني عطاء عن شَهرِ بن حوشَب عن كعْب [1] قال، قلت لعمر رضي الله عنه ، وهو بالشام عند انصرافه : ياأمير المؤمنين ، إنه مكتوب في كتاب الله تعالى ، إن هذه البلاد التي كان فيها بنو إسرائيل وكانوا أهلها مفتوحة علىٍّ رجل من الصالحين، رحيم بالمؤمنين ، شديد على الكافرين ، سره مثل علانيته، وعلانيته مثل سره، وقوله لايخالف قلبه، والقريب والبعيد عنده في الحق سواء ، وأتباعه رهبان بالليل، وأُسْدٌ بالنهار ، متراحمون ، متواصلون ، متنازلون .

فقال له عمر رضي الله عنه : ثكلتك أمك ، أحقٌّ ماتقول ؟

قال : إي، والذي أنزل التوراة على موسى ، والذي يسمع ماأقول إنه لحق .

قال عمر رحمة الله عليه فالحمد لله الذي أعزَّنا ،وأكرمنا وشرفنا، ورحمنا بمحمد ﷺ وبرحمته التي وسعت كل شيء .

قال : وكان كعب رجلا من العرب من أهل اليمن من حِميْر [2] .

وهذه صفات جليلة عالية تدل على عظمة عمر والصحابة الذين معه رضي الله عنهم .

---

(١) كعب هو المشهور بكعب الأحبار الحميري .

(٢) فتوح الشام / ٢٦٢ .

عمر في المسجد الأقصى :

أخرج ابن جرير عن رجاء بن حيوة عن من شهد أنه قال: لما شخص عمر من الجابية إلى « إيلياء » فدنا من باب المسجد قال: ارقبوا لي كعبا - يعني كعب الأحبار لعلمه بما في الكتب السابقة- فلما انفرق به الباب قال: لبيك اللهم لبيك بما هو أحب إليك، ثم قصد المحراب ، محراب داود عليه السلام، وذلك ليلاً فصلى فيه، ولم يلبث أن طلع الفجر فأمر المؤذن بالإقامة فتقدم فصلى بالناس، وقرأ بهم « ص » وسجد فيها ، ثم قام وقرأ بهم في الثانية صدر« بني إسرائيل» [1] ثم ركع ثم انصرف .

فقال : عليَّ بكعب ، فقال : أين ترى أن نجعل المصلَّى؟ فقال: إلى الصخرة ، فقال: ضاهيت والله اليهودية ياكعب، وقد رأيتك وخلْعَك نعليك ، فقال: أحببت أن أباشره بقدمي، فقال : قد رأيتك، بل نجعل قبلته صدره كما جعل رسول الله ﷺ قبلة مساجدنا صدورها، اذهب إليك فإنا لم نؤمر بالصخرة ،ولكنا أمرنا بالكعبة، فجعل قبلته صدره .

ثم قام إلى كناسة قد كانت الروم قد دفنت بها بيت المقدس في زمان بني إسرائيل ، فلما صار إليهم أبرزوا بعضها وتركوا سائرها، وقال: ياأيها الناس اصنعوا كما أصنع، وجثا في أصلها وحثا في فرج

---

(١) يعني سورة الإسراء ، وفي السورتين مناسبة ظاهرة، فسورة (ص) فيها ذكر داود وسليمان عليهما السلام ، وقد عمرا المسجد الأقصى، وسورة الإسراء فيها ذكر مسرى رسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى .

من فروج قبائه وسمع التكبير من خلفه، وكان يكره سوء الرِّعة في كل شيء ، فقال: ماهذا ؟ فقالوا : كبَّر كعب وكبَّر الناس بتكبيره، فقال: عليَّ به، فأُتي به، فقال: ياأمير المؤمنين إنه قد تنبَّأ على ماصنعت اليوم نبي منذ خمسمائة سنة، فقال: وكيف؟ فقال: إن الروم أغاروا على بني إسرائيل فأُديلوا عليهم، فدفنوه- يعني بيت المقدس- ثم أُديلوا - يعني بني إسرائيل - فلم يفرغوا له - يعني لتنظيفه- حتى أغارت عليهم فارس فبغوا على بني إسرائيل ، ثم أُديلت الروم عليهم حتى وَليتَ ، فبعث الله نبيا على الكناسة- يعني في أمرها وذلك قبل خمسمائة عام من ذلك التاريخ كما ذكر كعب - فقال: أبشري «أوري شلَم » عليك الفاروق ينقِّيك مما فيك (١) .

وهذه فضيلة عظمى لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حيث ذكره الأنبياء عليهم السلام ، وقام بتنظيف المسجد الأقصى ، وأظهر الحق الذي غطى عليه الروم والفرس .

وصول عمر إلى المدينة :

ثم إن عمر رضي الله عنه أقبل نحو المدينة ، فاستقبله الناس، يهنئونه بالنصر والفتح، فجاء حتى دخل مسجد رسول الله ﷺ فصلى ركعتين عند المنبر ، ثم صعد المنبر ، فاجتمع الناس إليه، فقام فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي ﷺ وقال :

أيها الناس ، إن الله قد اصطنع عند هذه الأمة أن يحمدوه

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٦١١، وأوري شلَم اسم القدس بالعبرانية وينطقونها الآن أورشليم.

ويشكروه، وقد أعز دعوتـها، وجمع كلمتها، وأظهر فَلَـجها ونصرها على الأعداء، وشرَّفهـا ومكّن لها في الأرض، وأورثها بلاد المشركين وديارهم وأموالهم، فـأحْدِثوا لله شكرًا يزدكم، واحمدوه على نـعمه يُدِمْها لكم ، جعلنا الله وإياكم من الشاكرين ثم نزل (1) .

* * *

(1) فتوح الشام / ٢٦٦ .

٦ - حصار الروم مدينة حمص -

ذكر الإمام الطبري في أحداث السنة السابعة عشرة للهجرة أن الروم وأهل الجزيرة [١] اتفقوا على غزو المسلمين والهجوم على مدينة حمص، فلما علم أبو عبيدة بذلك ضمَّ إليه جيوشه القريبة وعسكروا بفناء مدينة حمص، وأقبل خالد بن الوليد رضي الله عنه من «قِنَّسرين» حتى انضم إليهم فيمن انضم من أمراء الجيوش فاستشارهم أبو عبيدة في المناجزة أو التحصن إلى مجيء الغياث، فكان خالد يرى مناجزتهم، وأشار سائرهم بالتحصن، وأن يكتب إلى عمر، فأخذ أبو عبيدة برأي الأكثر ، وكتب إلى عمر يخبره بخروج الروم إليه، وانشغال أجناد الشام عنه بالمرابطة في مواقعهم فلما بلغ الخبر عمرَ رضي الله عنه كتب إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : أن اندب الناس مع القعقاع بن عمرو ، وسرِّحْهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي إلى حمص، فإن أبا عبيدة قد أحيط به .

وكان عمر قد أعد خيولاً احتياطية في كل بلد استعدادًا للحروب المفاجئة ، فكان في الكوفة أربعة آلاف فرس، فجهز سعد عليها الجيش الذي أرسله إلى الشام .

وكتب عمر أيضًا إلى سعد : أن سرِّح سهيل بن عدي إلى الجزيرة في الجند، ولْيَأْت « الرَّقَّة » فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص، وإن أهل « قَرْقِيسياء» لهم سلف، وسرِّح عبد الله ابن عبد الله بن عتبان إلى « نصيبين » فإن أهل قرقيساء لهم سلف،

(١) يعني بلاد الجزيرة التي تقع شمال غرب العراق وهي الآن تابعة لسوريا .

ثم لينفُضا حرَّان والرُّها، وسرِّح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ ، وسرح عياضًا، فإن كان قتال فقد جعلت أمرهم جميعًا إلى عياض بن غَنْم .

فمضى القعقاع في أربعة آلاف من يومهم الذي أتاهم فيه الكتاب نحو حمص، وخرج عياض بن غنم وأمراء الجزيرة فأخذوا طريقهم نحو الأهداف التي وجهوا إليها .

وخرج أمير المؤمنين عمر من المدينة مغيثًا لأبي عبيدة يريد حمص حتى نزل الجابية .

وعلم أهل الجزيرة الذين اشتركوا مع الروم في حصار أهل حمص بخروج الجيوش من العراق، ولايدرون هل مقصدهم حمص أم بلادهم في الجزيرة فتفرقوا إلى بلدانهم وإخوانهم، وتركوا الروم يواجهون المعركة وحدهم .

ولما رأى أبو عبيدة أن أنصار الروم من أهل الجزيرة قد انفضوا عنهم، استشار خالدا في الخروج إليهم وقتالهم فأشار عليه بذلك، فخرجوا إليهم وقاتلوهم وفتح الله عليهم .

وقدم القعقاع بن عمرو ومن معه من أهل الكوفة بعد ثلاثة أيام من المعركة .

وقدم أمير المؤمنين عمر فنزل بالجابية ، فكتبوا إليه بالفتح وبقدوم المدد عليهم بعد ثلاثة أيام من الفتح وبالحكم في ذلك، فكتب إليهم : أن أشركوهم فإنهم قد نفروا إليكم وقد تفرق لهم عدوكم [1] .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٥٠ .

هذا وإن في هذا الخبر مواقف عالية للصحابة رضي الله عنهم نوجزها فيما يلي :

١- حينما داهم الروم وأحلافهم المسلمين جمع أبو عبيدة أمراء الأجناد فاستشارهم في القتال أو التحصن حتى مجيء الأمداد من الخليفة ، وهذا مثل من الأمثلة الكثيرة التي تدل على أن أمور المسلمين في ذلك العصر تقوم على الشورى ، وقد أمر الله جل وعلا رسولهﷺ بمشاورة أصحابه مع أنه معصوم كما قال تعالى ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾[1]وطبَّق ذلك في حياته وتأسى به فيه أصحابه رضي الله عنهم .

ومشورة أهل الحل والعقد في الأمور المهمة تجمع عقولا كثيرة كلها تفكر في القضية بدلا من أن يفكر فيها عقل الرجل المسئول وحده فَينتج عن ذلك رأي موحد مدروس، وفي حال فشل القضية لاتكون المسئولية متركزة على فرد واحد، ويتضاءل إنكار الناس لكون القضية قد دُرست وبذل فيها الجهد .

٢ - جاء في هذا الخبر أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قد أعد خيولا للأمور الطارئة، في جميع أقطار المسلمين ، ووكل بها أناسًا يقومون بسياستها وتمرينها لتكون مستعدة للجري في أي وقت فإذا نابت المسلمين نائبة ركبها قوم وتقدموا إلى أن يستعد الناس كما جاء في بعض الروايات [2] .

---

(١) سورة آل عمران / ١٥٩ .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٥٢ .

وفي هذا دليل على اهتمام الصحابة رضي الله عنهم بأمور الجهاد، وعنايتهم بتنفيذ أوامر الله تعالى كقوله ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ** ﴾ [(١)] .

وواضح أنه لكل عصر أسلحته ووسائله الخاصة به، والصحابة رضي الله عنهم قد بلغوا في عصرهم أعلى المستويات في الاستعدادات الحربية، مع ما اختصوا به من القوة المعنوية الفائقة، الناتجة عن تمسكهم القوي بهذا الدين الحنيف، فلذلك فشل الأعداء في مواجهتهم سواء في الحروب التي يتم التخطيط لها والعلم بها، أو في محاولاتهم المتكررة للغدر بالمسلمين وأخذهم على غرة .

٣- حينما نتأمل هذه الخطة الحربية البديعة التي رسمها عمر رضي الله عنه لإرباك الأعداء وتفريقهم نجد أمرًا عجبا، ويزداد عجبنا إذا علمنا أنه يضع الخطط الحربية وهو بعيد عن ميدان المعارك ، فقد أمر ببعث جيش سريع من الكوفة إلى حمص ليقوم بعملية الإنقاذ وخرج هو بجيش من المدينة ، وهذا كله يبدو أمرًا معتادا ، ولكن الأمر الذي يثير الإعجاب هو ماقام به من الأمر ببعث الجيوش إلى بلاد المحاربين ليضطرهم إلى ترك ميدان القتال والتفرق إلى بلادهم لحمايتها، وقد نجحت هذه الخطة حيث تفرقوا فهان على المسلمين القضاء على الروم.

---

(١) سورة الأنفال / ٦٠.

٤ - ونستفيد أخيراً أن أعداء المسلمين جميعًا لايؤمن غدرهم وإن هادنوا المسلمين وأظهروا مسالمتهم، فإنـهم إنما يتحيَّنون الفرص المناسبة للانقضاض على المسلمين والقضاء عليهم، وقد كانت مواقف الصحابة رضي الله عنهم عاليـة في أخذ الحيطة والحذر والرصـد الحربي الدائم حيث كانوا يعرفون تحركات الأعداء في وقت مبكر وقد مرت بنا أمثلة واضحة لذلك .

ويحسن بنا أخيراً أن نعقد مقارنة بين مواجهة المسلمين لغزو الروم هذا ومواجهتهم لغزوهـم السابق الذي تم حسمه بمعركة اليرموك ، ففي الغـزو السابق خـرج أبو عبـيدة وخـالد بجيش المسلمين من حـمص وضمـوا إليهم جيشـهم في دمشق وخرجوا منهـا واجتمعت جـيوش المسلمين في جنوب الشام ليواجهـوا أعداءهم وهم جميع، وفي الغزو الأخير ظل أبو عـبيدة وخالد مع جيش المسلـمين في حمص وتحصنوا بها إلى أن يصل مدد المسلمين .

والفرق واضح فـإنه في الغزو الأول كان كل من يستطيع الخلـيفة أن يجندهم قد وجههم إلى العراق، وكـان المسلمون في انتظار المعركة الحاسمة في القادسية فليس من المؤمل أن يصل إليهم مدد كبير، فكان الرأي أن تجتـمع الجيـوش في الشام لمواجـهة الأعـداء ولو تخلوا عن المدن، أما الغزو الأخـير فكانت جيوش العراق قد انتـهت من المعركة الفـاصلة وبإمكان أمـير المـؤمنين أن يمدهم من العـراق والمدينة، فكان الرأي بقاء الجيوش في حماية المدن الكبيره والتحصن إلى حين وصول المدد .

* * *

٧ - فتح بلاد الجزيرة -

تقدم لنا أن الروم وأهل بلاد الجزيرة التي تقع جنوب بلادهم أغاروا على مدينة حمص وحصروا فيها أبا عبيدة رضي الله عنه والمسلمين وأن عمر رضي الله عنه أرسل إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يأمرهُ بإمداد أهل حمص بجيش يخرج من الكوفة إلى حمص، وجيوش تخرج إلى الجزيرة .

وقد أرسل سعد جيشا من الكوفة بقيادة القعقاع بن عمرو التميمي، وأرسل جيوشًا إلى الجزيرة وكلها تحت قيادة عياض بن غنم رضي الله عنه .

فخرجَت هذه الجيوش إلى الجزيرة فسلك سهيل بن عدي وجنده طريق الفراض حتى انتهى إلى « الرَّقَّة » فحاصرهم، فنظروا إلى أنفسهم بين قوتين للمسلمين في العراق والشام فصالحوه .

وسلك عبد الله بن عبد الله بن عِتْبان طريق دجلة حتى انتهى إلى نصيبين فلقيه أهلها بالصلح كما صنع أَهل الرقة .

ولما أعطى أهل الرقة ونصيبين الطاعة ضم عياض سهيلا وعبد الله إليه وسار بالناس إلى حران فأخذ مادونها، فلما انتهى إليهم اتقوه بالإجابة إلى الجزية فقبل منهم ، ثم سرَّح سهيلا وعبد الله إلى الرُّها فاتقوهما بالإجابة إلى الجزية .

وهكذا فتحت الجزيرة كلها على سعتها صلحا، فكانت أسهل البلدان أمرا [١] .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٥٣ .

ولو عقدنا مقارنة بين فتح بلاد الجزيرة ، وماتم فتحه من بلاد المسلمين قبل ذلك لوجدنا فرقا كبيرًا في الجهود الذي بذلت في تلك البلاد .

وهذا إنما يرجع لعزة المسلمين وقوة دولتهم ، فكلما قويت شوكة المسلمين، وانتشر وجودهم الحربي فإن الأعداء يرهبونهم فليقون لهم ما بأيديهم ويستسلمون لهم بدون مقاومة، ولايفكرون في غزو بلادهم، وكلما ضعف أمر المسلمين وتضاءل وجودهم الحربي فإن الأعداء يطمعون بهم، ويصعب عليهم - والحال هذه - القضاء على قوة أعدائهم .

ومن العرض السابق لفتح بلاد الجزيرة يتبين لنا بجلاء أهمية سلاح الرعب الذي ينصر الله به المسلمين إذا قاموا بأمره تعالى وأقاموا علم الجهاد في سبيله، وهذا السلاح يوفر عليهم جهودًا كبيرة حيث يضطر المعاندين إلى الاستسلام والصلح بدون مقاومة .

وكان من قادة المسلمين في فتح بلاد الجزيرة الوليد بن عقبة وقد انحاز إليه المسلمون من عرب الجزيرة وصالحه الكفار منهم إلا بني إياد ابن نزار فإنهم ارتحلوا إلى الروم، وقد كتب الوليد إلى أمير المؤمنين يُعلمه بأمرهم فكتب عمر رضي الله عنه إلى ملك الروم :إنه بلغني أن حيًّا من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك، فو الله لتُخرِجَنَّه أو لننبذنَّ إلى النصارى ، ثم لنُخرجنَّهم إليك، فأخرجهم ملك الروم، فخرجوا، فتَمَّ منهم على الخروج أربعة آلاف مع أبي عدي بن زياد، وخنس بقيتهم فتفرقوا فيما يلي الشام والجزيرة من بلاد الروم، فكل

إيادي في أرض العرب من أولئك الأربعة آلاف (١) .

وفي هذا الخبر نموذج للمواقف العالية التي جرت من خلفاء المسلمين في معاملتهم مع الأعداء ، فإن الأعداء في أغلب الأزمان لهم مصالح في بلاد المسلمين تَقلُّ أو تكثر، وبإمكان قادة المسلمين أن يحملوا الأعداء على احترام المصالح الإسلامية بتهديدهم في مصالحهم التي يرعونها في بلاد الإسلام .

وكان بعض عرب الجزيرة من النصارى قد رفضوا دفع الجزية لكونهم يرونها منقصة ومذمة، فبعث الوليد برؤساء النصارى وعلمائهم إلى أمير المؤمنين فقال لهم : أَدُّوا الجزية : فقالوا لعمر: أبلغنا مأمننا ، والله لئن وضعت علينا الجزاء لندخلن أرض الروم والله لتفضحُنَّا من بين العرب ، فقال لهم : أنتم فضحتم أنفسكم، وخالفتم أمتكم فيمن خالف وافتضح من عرب الضاحية، والله لتؤدنَّه وأنتم صَغَرةٌ قَمأة [يعني حقيرين] ولئن هربتم إلى الروم لأكتبن فيكم، ثم لأسبينكم .

قالوا : فخذ منا شيئًا ولاتسمه جزاء ، فقال : أما نحن فنسميه جزاء وسموه أنتم ماشئتم، فقال له علي ابن أبي طالب : ياأمير المؤمنين ألم يُضْعِف عليهم سعد بن مالك الصدقة؟ قال: بلى ، وأصغى إليه فرضي به منهم جزاء ، فرجعوا على ذلك .

ومن هذا الخبر نأخذ درسًا في معاملة المتكبرين من الأعداء الذين يخاطبون المسلمين بعزة وأنفة ويهددون باللجوء إلى دول الكفر، فنجد

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٥٤ .

أميـر المؤمنين عمـر خاطبـهم بعنف وحقَّـرهم وهددهم إذا لجـئوا إلى الكفار بالسـعي في إحضارهم ومعاملـتهم كمعاملة الحـربيين من سبي ذراريهم ونسائهم ، وهذا أشد عليهم كثيراً من دفع الجزية .

ففي هذا الجواب القوي أزال مافي رؤوسهم من الكبرياء والتعاظم فرجعوا متواضعين يطلبون من أمير المؤمنين أن يوافق على أخذ مايريد من غير أن يُسَمَّى ذلك جزية .

وهنا تدخَّل علي رضي اللـه عنه - وكان لرأيه مكـانة عند عمـر لفقهـه في الدين - فأشار عليه بأن يُضْـعِف عليهم الصدقه كـما فعل سعد بن أبي وقاص بأمثالهم ، فقبل ذلك أمير المؤمنين تألفًا لهم ومنعًا من محاولة اللجوء إلى دول الكفر .

وقد أصـبح هذا الرأي مقـبولا حـينما وقع مـوقعه، وذلـك بعد ماأزال أمير المؤمنين عـمر ما في نفوسهم من العزة والكـبرياء، فأما لو قبل ذلك منهم في بداية العـرض فإنهم سيعـودون بكبريائهم ولايُؤمن منهم بعد ذلك أن ينقضوا العهد ويسيئوا إلى المسلمين .

* * *

٨ - عزل خالد عن قِنَّسرين -

تبين لنا أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه جاء بنفسه نجدة لأبي عبيدة رضي الله عنه ومن معــه من المسلمين في حمص وحينما اطمأن عمر إلى حال المسلمين هناك عاد إلى المدينة .

وعلى إثر عودة أمير المؤمنين إلى المدينة قــام خالد بن الوليد ومعه عياض بن غَنْم رضي الله عنهما في جيش من المسلمين بغزو الروم في بلادهم ، ولعلهم أرادوا بذلك إرهاب الروم حتى لايتجرؤوا على غزو المسلمين مرة أخرى .

وقد قاموا بمغامرة جريئة نجحت وغنموا فيها غنائم كثيرة ، ولكن كان من نتائجــها عزل خالد بن الوليد عن ولايــة قِنَّسرين، وهو العزل النهائي له عن العمل ، وذلك أنه لما رجع من الغزوة وتسامع الناس بما غنم قصــده رجال من الآفــاق ، وكان ممن قــصده الأشعــث بن قيس الكندي فأجازه خالد بعشرة آلاف، وكــان عمر لايخفى عليه شيء من عمله، حيث كان يُكتَب إليه بما يكون من عــماله ، فدعا البريد فكتب معه إلى أبي عبــيدة أن يقيم خالدًا ويعقله بعمامــته وينزع عنه قلنسوته حتى يُعلمهم من أين إجازة الأشعث ، أَمِنْ ماله أم من إصابة أصابها؟ فإن زعم أنها من إصــابة فقد أقر بخيانة، وإن زعم أنهــا من ماله فقد أسرف .

وتمَّ استجوابه بحضور أبي عــبيدة ، وأقر بأن ذلك كان من ماله، ولما علم بعــزله ودَّع أهل الشام وخــرج إلى المدينة إجــابة لطلب أميــر المؤمنين، فلمــا قدم على عمــر ، قال : لقــد شكوتك إلى المسلمين،

وبالله إنك في أمري غير مُجمِل ياعمر، فقال عمر : من أين هذا الثراء؟ قال : من الأنفال والسهمان، مازاد على الستين ألفا فهو لك، فقوَّم عمر عروضه فخرجت إليه عشرون ألفا فأدخلها بيت المال، ثم قال: ياخالد والله إنك عليَّ لكريم ، وإنك إليَّ لحبيب ، ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء [1] .

وهكذا نجد الموقف أمام قضية فيها حرج كبير لأمير المؤمنين عمر، حيث يُقْدم فيها على استجواب رجل بلغت شهرته الآفاق، فحاز على إعجاب المؤمنين ، وأرهب الكافرين في كل أقطار الأرض، ولكن عمر أمام مبادئ إسلامية واضحة لابد من أن يطبقها، وجاهلية بقيت رواسبها عالقة ببعض النفوس لابد أن يطمسها، فالمال في الإسلام لابد من التحري الدقيق فيه ، من أين اكتُسِب وفيم أُنفِق؟ خاصة من الولاة الذين يقتدى الناس بهم، وإذا كان الاكتساب حلالاً، والإنفاق في حلال فلابد من اجتناب السرف والخيلاء وإلا وقع المنفق في المأثم.

كان ذلك واضحًا أمام عمر ، وكان واضحًا لديه فيما يتعلق بهذا الأمر أن من رواسب الجاهلية تَطَلُّع ذوي الشرف واللسان إلى انتجاع ذوي السلطان والغنى وطلب رِفدهم وعائدتهم عن طريق الثناء بالشعر وغير ذلك من الوسائل المعروفة .

فلما سمع بأن مِنْ هؤلاء مَنْ قصدوا خالد بن الوليد لهذا الغرض فزع من ذلك وأشفق على المجتمع الإسلامي أن تحيا فيه عوائد الجاهلية، فكانت عقوبته لخالد بليغة مؤثرة .

---

(١) تاريخ الطبري باختصار ٤/ ٦٧ .

وهذه العقـوبة من النظرة الأولى تبـدو أكبر بكثـير من المخـالفة، ولكن عند التـأمل في الدوافع التي دفعت عمـر إلى إجرائهـا يتبين لنا أنها إجراء مناسب لإقـرار مبادئ الإسلام ومحو مبـادئ الجاهلية، هذا الأمر الذي ظل عمر يجاهد من أجله بقوة لاتعرف الكلل ولا التردد.

ولقد كان إجراء هذه العقـوبة على رجل عظيم القدر في المجتمع الإسلامي وأثِير عند عمر نفسه له أكبر الأثر في قطع هذا الطريق الذي مُحِـي تمامًا في عـهد رسول الـله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه، وبدأ الناس يعودون إليه لما كثرت عوائد الفتوح .

أما خـالد رضي الله عنه فـلاشك أنه لم يكن يتصـور هذه الآثار الناجمة عن تصرفه ، وكان رجلا كريمًا شـهمًا فأجاز قاصديه من ماله الخاص .

وقد يقول قـائل : إنه كان يكفي في معاقبتـه بعث خطاب عتاب وتحذير إليـه ، أو تغريمه المبلغ المصروف مع ذلك، ولكن عـمر رضي الله عنه كان أخبر الناس بطبيعـة خالد، فهو رجل قد بلغ الكمال في القيـادة الحربية ، ولكنـه ليس على النمط الذين يريدهم عمـر للإمارة حيث كـان لايُلزم نفسه بالتحـري الدقيق في الحسـابات والرجوع في ذلك إلى دار الخـلافة ، يدل على ذلـك المحاورة التي جـرت بين أبي بكر وعمـر في شأن خالد رضي الله عنهم ، وقد ذكـرها الحافظ ابن كثير قال :

وقد حكى مالك عن عمـر بن الخطاب أنه قال لأبي بكر : اكتب إلى خـالد أن لايعطي شاة ولابعـيرًا إلا بأمـرك ، فكتب أبو بكر إلى

خالـد بذلك فكتب إليه خـالد : إما أن تدعني وعـملي وإلا فشـأنك وعملك، فأشـار عليه عمر بعزله ، فقـال أبو بكر : فمن يجزي عني جزاء خالد ؟ قال عمر : أنا ، قال : فأنت ، فـتجهز عمر حتى أُنيخَ الظهر في الدار ، ثم جاء الصـحابة فأشاروا على الصديق بإبقـاء عمر بالمدينة وإبقـاء خالد بالشـام . فلما ولي عـمر كتب إلى خـالد بذلك فكتب إليـه خالد بمثل ذلك فعـزله ، وقال : مـاكان الله ليـراني آمر أبابكر بشيء لاأنفذه أنا [1] .

وهذا الخبر يدلنا على أن أبا بكر كان يعلم ميل خالد إلى الاجتهاد في صرف الأموال أحيانًا، ولكنه أبقاه لعـدم وجود من يقوم مقامه في الشئون الحربية .

واستعداد عمر لأن يقـوم مقام خالد في ذلك ليس من باب سؤال الإمارة المنهي عنه ، وإنما هو مما تقـدم بيانه من أن المسلم إذا آنس من نفسه الكفاءة في عمل معين وأَمِن الـفتنة فلا بأس من أن يعرض نفسه للعـمل ، على أنه مُـقْـدم على عمـل صالح فـيـه خدمـة للإسـلام والمسلمين.

وهذا هو العزل الأول لخـالد حين كان أميرًا على الشـام ، فعزله عمر وولَّى أبا عـبيدة إمرة الشام ولكن ظل خالد قـائدًا للجيوش تحت إمرة أبي عبيدة إلى أن فتح قِنَّسريـن فولاه عليها وأقره على ذلك أمير المؤمنين عمر .

وقد اعتذر عمر إلى الناس من عزله خالدا عن إمرة الشام بأمرين:

---

(١) البداية والنهاية ٧/ ١١٥ .

أولهما : يتعلق بحماية التوحيد ، وقد روى الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن عدي بن سهيل قال : كتب عمر إلى الأمصار : إني لم أعزل خالدا عن سخطة ولاخيانة ،ولكن الناس فُتنوا به ، فخفت أن يوكلوا إليه ويُبتلوا به، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وأن لايكونوا بعَرضِ فتنة (١) .

وهذا ملحظ مهم لأن التوكل على الله وحده هو العامل الرئيس في النصر . وفيه تبرئة لخالد، وبيان أن ماتجاوز فيه كان عن اجتهاد منه في خدمة الجهاد ولم يكن عن خيانة .

والثاني : هو ماتقدم من تجاوزه في صرف المال، وقد روى الإمام البخاري في التاريخ وغيره من طريق علي بن رباح عن ياسر بن سمي البرني قال: سمعت عمر يعتذر إلى الناس بالجابية من عزل خالد، فقال: أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين فأعطاه ذا البأس وذا الشرف واللسان ، فأمَّرت أبا عبيدة (٢) .

ولاشك أن عمر وخالدًا مجتهدان فيما ذهبا إليه ولكن عمر أدرك أمورًا لم يدركها خالد رضي الله عنهما .

حياة خالد بن الوليد الجهادية :

لقد بدأ خالد بن الوليد رضي الله عنه حياته الجهادية في السنة التي أسلم فيها وذلك في العام الثامن للهجرة، حيث حاز على شرف اللقب الجهادي العظيم « سيف الله » يوم أن كانت النهاية المشرفة

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٦٨ .

(٢) البداية والنهاية ٧/ ١١٥ .

لمعركة «مؤتة » على يده ، فلقبه رسول الله ﷺ بهذا اللقب .

ثم تتابعت أحداثه الجهادية في أواخر حياة النبي ﷺ ، ومن أبرز ذلك قيادة سرية « دومة الجندل» ، وقيادة مقدمة الجيش في « فتح مكة المكرمة وحنين » .

ثم كان جهاده الكبير في حروب الردة في العام الحادي عشر، حيث قضى على تجمع طليحة الأسدي وتجمع مسيلمة الحنفي، اللذين هما أضخم التجمعات الحربية في جزيرة العرب آنذاك، وكانت تلك المعركتان أبرز معارك حروب الردة، حيث تقرر بهما مصير بلاد العرب لصالح دولة الإسلام .

ثم قام في العام الثاني عشر بقيادة الجيش الإسلامي الموجه لجهاد الفرس، حيث تمت على يده فتوح العراق الأولى التي نجحت في إضعاف قوة الفرس وضم غربي العراق للدولة الإسلامية .

ثم كان له شرف المشاركة في فتوح الشام وقيادة معاركها، ومن أبرزها معركتا فحل واليرموك التي تقرر بها مصير الحروب بين المسلمين والروم .

لقد كان خوض معامع القتال والاصطلاء بنار الحروب وأهوالها أعظم هوايات خالد بن الوليد رضي الله عنه .

وإذا كان كثير من الناس يحبون الراحة والدعة والسكون فإننا نجد خالدًا يقول في أمنيته المحبوبة إليه : مامن ليلة يُهدى إليَّ فيها عروس

أنا لها محب أحب إليَّ من ليلة شديدة البرد كثيرة الجليد في سرية أصبِّح فيها العدو [1] .

وهكذا تُحبَّب المعالي إلى النفوس العالية ، فالقتال أمر مكروه للنفوس حسب طبائعها المعتادة كما قال الله تعالى ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [2] ولكنه أمام الأفذاذ من الرجال محبوب ، بل هو أحب إليهم من الشهوات التي جُبِلَ الإنسان عليها، وذلك أن من سما بفكره نحو المعالي من الأمور يعيش بخياله وأحاسيسه لهذه الأمور فلا يكاد يفكر بشيء غيرها .

وكلما حالت المشاقُّ والعقبات دون الوصول إلى المراد كلما ازداد أصحاب الهمم العالية إصراراً وشوقًا إلى بلوغ المقصود، ويصوِّر ذلك شَدْوُ خالد بن الوليد بقطع المفاوز في ليلة شديدة البرد كثيرة الجليد والأمل يحدوه إلى ملاقاة عدوه في الصباح .

ويشبه هذه الأمنية السامية - مع الفارق الكبير في البذل والتضحية- هُيام أهل العلم بالتحصيل والبحث، حتى يُنسيهم الاستغراق في ذلك كثيراً من الملذات الحسية والمعنوية التي يتنافس الناس عليها .

وإذا كانت النفوس كباراً تَعِبَتْ في مرادها الأجسام

وإنه بمثل هذا البطل المغوار، والقائد المقدام ينتشر الإسلام وتُحْمَى

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٣٧٥ .

(٢) البقرة / ٢١٦ .

بلاد المسلمين ، وتقوم دولة الحق ورايته عالية فوق بقاع المعمورة.

فما أحوج الأمة الإسلامية إلى الرجال الأكفاء الذين يجسِّدون هذه المعاني السامية، فيحيونها بتضحيات يراها الناس ويحسُّون بها، فإن مآثر الأمة الماضية تظل مادة مذكِّرة عبر الأجيال، ولكن الانتفاع الكامل بها يتم بالتأسِّي بأولئك العظماء ، وتطبيق هذه المعاني الكريمة من عظماء الرجال الذين يشاركون أفراد الأمة في ظروف الحياة المعاصرة، حتى لايظن ظانٌّ أن هذه المواقف والدروس التربوية إنما كانت في عصور ملائمة لوجودها، وأنَّ تكرارها يتطلب ظروفًا حياتية مشابهة .

والحقيقة أنه كلما قوى المحرك الإيماني فإن الله تعالى يتكفل بنصر أوليائه، وتسخير ظروف الحياة لصالحهم .

نهاية خالد :

بعد ذلك العمر الجهادي القصير نسبيا ، المليء بالأحداث الجهادية المتلاحقة حانت وفاة هذا البطل الكبير الذي كان أعظم قادة العالم في عصره، وذلك في العام الحادي والعشرين للهجرة [1] .

ولقد كان ذِكْر الجهاد على لسان خالد حتى في حال احتظاره، كما ذكر الإمام الذهبي من خبر عاصم بن بهدلة عن أبي وائل أظن قال: لما حظرت خالدًا الوفاةُ قال: لقد طلبت القتل مظانَّه فلم يُقدَّر لي إلا أن أموت على فراشي، وما من عملي شيء أرجى عندي بعد التوحيد من ليلة بِتُّها وأنا مُتَتَرِّس والسماء تهلّني ننتظر الصبح حتى

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٣٨٣ .

نغــير على الكفــار، ثم قال : إذا مِتُّ فــانظروا إلى سلاحي وفــرسي فاجعلوه عدَّة في سبيل الله (١) .

كما ذكــر الذهبي عن أبي الزناد : أن خالد بن الوليد لما احــتُضِر بكى وقال: لقيت كذا وكذا زحفًا، ومافي جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو رمــية بسهم ، وها أنا أمــوت على فراشي حتف أنفي كــما يموت العَيْر (٢) ، فلا نامت أعــين الجبناء (٣) . فرضي الله عن خالد ورحمه رحمة واسعة .

* * *

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٣٨١ .

(٢) أي الحمار .

(٣) سير أعلام النبلاء ١/ ٣٨٢ .

مواقف وعبر
في
فتـــح المـــدائن

١ - في الطريق إلى المدائن -

ننتـقل إلى الحديث عن المواقف التي جـرت بين القـادسية وفـتح المدائن، وقد أقام سـعد رضي الله عنه في القادسية شـهرين حتى أتاه أمر أميـر المؤمنين بالتوجه نحو المدائن، فـبعث مقدمة الجـيش بقيادة زُهرة بن الحَوِيَّة، وأَتْبعـه بعبد الله بن المعتَّم في طائـفة من الجيش ثم بُشَرحْـبيل بن السمط في طائفـة أخرى ، ثم بهاشم بن عتـبة بن أبي وقاص وقد جعله على خلافته بدلاً من خالد بن عرفطة، ثم لحق سعد بهم ببقية الجيش وقد جعل على المؤخرة خالد بن عرفطة .

معركة « برس » :

ارتحل قائد المقدمات زهرة بن الحوية التميمي متوجهًا نحو المدائن، فلما انتهى إلى « برس » لقيه بها أحد قادة الفرس وهو «بصبهري» في جمع فناوشوه فـهزمهم زهرة ، فهرب بصبهـري ومن معه إلى «بابل» وبها جمع من فلول الفـرس في القادسية وبقـايا رؤسائهم، وقد طعن زهرة بصبهري أثناء هروبه فمات بعد وصوله إلى بابل .

ولما هُزم بصبهري أقبل « بسطام» أمير برس فصالح زهرة وعقد له الجسور ، وأتاه بخبر الذين اجتمعوا ببابل [١].

معركة بابل :

لما علم زهرة بخبر الذين اجـتمعوا ببابل كتب إلى سـعد بالخبر، ولما علم سـعـد بذلك ارتحل بالناس على نظامـه السـابق، ولما وصل إلى«برس» قدَّم زهرة، ثم أتبعه بعبـد الله بن المعتَّم ، ثم بشرحبيل بن

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٢١٩ - ٢٢٠ .

السمط وهاشم ابن عتبة ، واتَّبعهم فنزلوا ببابل وعلى الجمع فيها «الفيرزان » .

وقد قال قادة الفرس : نقاتل المسلمين شيئًا من قتال ثم نفترق، وكان كل واحد منهم يريد أن يستولي على جزء من فارس ، وكأنهم أرادوا بهذا التجمع وقتال المسلمين أن يعذرهم « يزدجرد» إذا تفرقوا .

فاقتتلوا فهزمهم المسلمون في أسرع من لَفْت الرداء ، فانطلقوا على وجوههم ولم يكن لهم همَّة إلا الافتراق، فخرج الهرمزان نحو الأهواز فأخذها ، وخرج الفيرزان نحو نهاوند فأخذها ، وذهب النخيرجان ومهران الرازي للمدائن [1] .

معركة كُوثَى :

تقدم زهرة من بابل نحو المدائن، وكان النخيرجان ومهران قد استخلفا على جنودهما « شهريار » وقد التقى زهرة بهذا الجيش في أكناف« كوثى» فخرج شهريار فنادى : ألا رجل ، ألا فارس منكم شديد عظيم يخرج إلي حتى أنكِّل به! فقال زهرة : لقد أردت أن أبارزك، فأما إذا سمعت قولك فإني لا أُخرج إليك إلا عبدًا ، فإن أقمت له قتلك إن شاء الله ببغيك ، وإن فررت منه فررت من عبد ، وكايده .

ثم أمر أبا نباتة نائل بن جعشم الأعرجي - وكان من شجعان بني تميم- فخرج إليه ، ومع كل واحد منهما الرمح، وكلاهما وثيق الخلق، إلا أن الشَّهريار مثل الجمل، فلما رأى نائلا ألقى الرمح

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٦٢٠ .

ليعتنقه، وألقى نائل رمحه ليعتنقه ، وانتضيا سيفيهما فاجتلدا ، ثم اعتنقا فخراً عن دابتيهما ، فوقع على نائل كأنه بيت ، فضغطه بفخذه وأخذ الخنجر وأراغ حل أزرار درعه فوقعت إبهامه في فم نائل فحطّم عظمها، ورأى منه فتورا فثاوره فجلد به الأرض ثم قعد على صدره وأخذ خنجره فكشف درعه عن بطنه فطعنه في بطنه وجنبه حتى مات فأخذ فرسه وسواريْه وسلَبه ، وانكشف أصحابه فذهبوا في البلاد .

وأقام زهرة بكوثَى حتى قدم عليه سعد ، فأتى به سعداً ، فقال سعد: عزمت عليك يانائل بن جعشم لَمَا لبست سواريه وقباءه ودرعه ولتركبّن برذونه ، وغنّمه ذلك كله ، فانطلق فتدرع سلبه، ثم أتاه في سلاحه على دابته ، فقال : اخلع سواريك إلا أن ترى حربا فتلبسهما فكان أولَ رجل من المسلمين سُوِّر بالعراق (١) .

وهكذا رأينا هذا الفارس البطل كيف قضى على خصمه الذي يشبه الجمل من ضخامته ، ولم يشغله كون ذلك الفارسي قد جثم على صدره بجسمه الهائل ولا ما ينتظره من الموت عن أن يغتنم الفرص للإيقاع بخصمه ، فاستفاد من وقوع إبهام ذلك الفارسي في فمه ليحطم عظمها ويشل حركته ، فكان ذلك التصرف السريع بداية النهاية بالنسبة لخصمه الذي كان واثقًا من تفوقه .

ولقد رأينا في هذا الموطن وفي مواطن كثيرة أن نتائج حروب المبارزة في الفتوحات الإسلامية الأولى تكون دائمًا لصالح المسلمين، والمبارزة فنٌ رفيع يكون له دائمًا مابعده ، ولقد رأينا في هذا الموطن وفي مواطن أخرى مشابهةً أن عوامل النصر المادية تكون لصالح

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٦٢١ - ٦٢٢ .

الأعداء ثم يقيِّض الله تعالى في الأخير سببًا لصالح المبارز المسلم لايتوقعه الأعداء فتكون النتيجة لصالحه ، وهذا شاهد واضح على أن الله تعالى دائمًا مع أوليائه المؤمنين بنصره وتأييده .

معركة مظلم ساباط :

مضى زهرة بن الحوية التميمي من « كوثَى » بالمقدمات إلى «بَهُرَسِير» شرقي المدائن، وقد تلقاه «شيرزاد» بساباط بالصلح وتأدية الجِزاء، فأمضاه إلى سعد بن أبي وقاص .

واصطدم زهرة بكتيبة كسرى التي سمِّيت باسم ابنته« بوران» فهزمهم وفَلَّ جمعهم ، ثم مضى إلى المدائن[1] .

هذا القائد البطل الذي اختاره سعد لهذه المهمة الشاقة حيث كان يتقدم الجيش فيتحمل هو ومن معه من الأبطال هول المفاجآت وتذليل الصعوبات ، ولاشك أنه كان رجل المواقف حيث استمر مسئولا عن هذه المهمة من قبل معركة القادسية .

وكان موضع ثقة عمر رضي الله عنه كما جاء في الخطاب الذي وجهه إلى إلى سعد في شأن زهرة حيث قال فيه : أنا أعلم بزهرة منك، وجاء فيه : تَعْمَدُ إلى مثل زهرة وقد صَلَى بمثل ما صَلَى به وقد بقي عليك من حربك مابقي تكسر قرنه وتفسد قلبه ! أَمْضِ له سلَبه وفَضِّله عند العطاء بخمسمائه .

وكان سعد قد استكثر عليه سلب الجالنوس أحد قادة الفرس وكان زهرة قتله أثناء مطاردته فلول الفرس يوم القادسية،وتعجَّل زهرة فلبس

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٦٢٢ .

سلب الجالنوس قبل أن يأذن له سعد فغضب سعد ونزعه منه[1].

وهذا نوع من الخطأ لكنه محتمل من زهرة وقد قدَّم هذه التضحيات الكبيرة، ولذلك لام أمير المؤمنين سعداً على موقفه منه وأمره بإعادة ماأخذ منه .

وهذا دليل من الأدلة الكثيرة التي تدل على براعة عمر رضي الله عنه وتفوقه في معرفة الرجال .

وقد توجه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى المدائن وجرى له موقف يذكر، وذلك حينما وصل إلى « مظلم ساباط» ولعله سُمِّي بذلك لكثرة مابه من الأشجار ، وكان فيه كتائب لكسرى ، وفيه أُسُودٌ قد دُرِّبت على الهجوم وكان منها أسد ضخم يسمى « المُقَرَّط» كان كسرى قد اختاره ، فلما وصل هاشم إلى مظلم ساباط انتظر حتى أتى سعد ببقية الجيش، فلما وصل سعد وافق وصول ذلك الأسد فبادر إلى الهجوم على جيش المسلمين ، فنزل إليه هاشم وقاتله بسيفه حتى قتله ، وسُمِّي سيفه المَتْن لقوته وإنما القوة من حامله، وقد أكبر سعد هذا الموقف من ابن أخيه هاشم فكافأه بتقبيل رأسه ، ورأى هاشم ذلك كبيراً من سعد فقبَّل قدم عمه رضي الله عنهم أجمعين[2].

وهكذا نرى قادة المسلمين يسارعون إلى ركوب المخاطر ومواجهة الأهوال ، فقد كان بإمكان هذا القائد المغامر أن يوجه لذلك الأسد كتيبة ممن هم تحت قيادته ، ولكنه كان من قوم يستعذبون الشدائد

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٦٧ .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٦٢٢ .

ويتنافسـون في البذل والتضحـية فقـدَّم نفسه فداء لأخـوانه المجاهدين فنصره الله على ذلك الوحش الكاسر .

وهكذا أثبـتوا للعـالم أنهم لايقـتصـرون على منازلة أندادهم من البشر، بل تجاوزوا ذلك إلى منازلة الوحوش الضارية .

وهذا موقف يُثبت لنا شجاعـة هذا القائد إلى جانب ما عُرف عنه من الرأي والتدبير ، فلا يظنَّنَّ ظانّ أن سعدًا ولاه النيابة عنه لكونه ابن أخيـه، فقد ولاه قيـادة جيش العراق القـادم من الشام أبو عبـيدة بن الجراح رضي الله عنه وفي جيشه القعقاع بن عمرو وقيس بن هبيرة ، وأمثالهـما من الأبطال ، وإنما كانوا يولُّون القيـادة من كان يجمع بين سداد الرأي والشجاعة .

هذا وقد نزل سعـد في « مظلم ساباط» بعد أن قـدم هاشما ومن معه نحـو بَهُرَسير وهي الجزء الغـربي من المدائن، ولما نزل سعد ذلك المكان قرأ قـول الله تعالى ﴿ **وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ** ﴾ [**إبراهيم: ٤٤**] .

وإنما تلا هذه الآية لأن في ذلـك المكان كـتـائب لكسـرى تُدْعَى بوران، وكانوا يحلفون بالله كل يوم : لايزول ملك فارس ماعشنا [١].

وقد هزمهم وفرقهم زهرة بن الحوية كما سبق .

* * *

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٦٢٢ .

٢ – التوجه نحو المدائن –

توجه زهرة قائد المقدمـات إلى المدائن، والمدائن هي عاصمة دولة الفـرس ، وتقع شـرق نهـر دجلة وغـربه، فـالجـزء الذي يقع غـربه يسمى«بَهُرْسير » والذي يقع شرقه يسمى « أسبانير» و« طيسفون» .

وقد وصل زهرة إلي بهرسـير وبدأ حصار المدينة . ثم سـار سعد ابن أبي وقاص بالجيش الإسلامي ومعـه قائد قواته ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقـاص إلى المدائن الغربية « بهرسير» وفـيها مَلك الفرس يَزْدَجرد، فحاصـرها المسلمون شهرين، وكان الفرس يخـرجون أحيانًا لقتال المسلمين ولكنهم لايثبتون لهم .

وقـد أصيب زهرة بن الحـوية بسـهم ، وذلك أنه كان عليـه درع مفصومة، فقيل له : لو أمـرت بهذا الفصم فسُرد [يعني حتى لاتبقى فيها فتحة تصل منها السهام] فقال : ولِمَ ؟ قالوا : نخاف عليك منه، قال: إني لكريم على الله إن تَرك سـهمُ فارسَ الجندَ كلَّه ثم أتاني من هذا الفصم حتى يثبت فيَّ .

وكـان كـريما على الله تـعالـى كـمـا أَمَّل ، فكان أولَ رجل من المسلمين أصـيب يومئذ بـسهم ، فثـبت فيـه من ذلك الفصم، فـقال بعضـهم: انزعوها منه، فـقال: دعوني فـإن نفسي مـعي مادامت فيَّ لعلي أن أصيب منهم بطعـنة أو ضربة أو خطوة ، فمضى نحـو العدو فضرب بسيفه شهريار من أهل اصطخر فقتله (١).

وهذا مـوقف عظيـم من هذا القـائد البطل يـدل على قـوة إيمانه

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٦، وقد جاء لزهرة ذكر بعد فتح المدائن فلعله شفي من تلك الإصابة .

ورغبته الصادقة في الاستشهاد في سبيله ، فإنه لما علم الله تعالى صدق نيته ورغبته في الإصابة قدَّر إصابته من ذلك المكان .

ثم لننظر إلى هذا البطل الذي خالط حب الجهاد شِغاف قلبه، حيث يعارض في نزع السهم من جسمه خشية أن تخرج روحه قبل أن يضرب في الأعداء ، فهو يريد بقاء نفسه لا للمتاع الدنيا الزائل وإنما ليضرب ضربة يثخن بها في العدو ، أو على الأقل أن يتقدم إليهم خطوات لتخرج نفسه وهو أقرب ما يكون إلى العدو .

سبحان الله ما أعظم هؤلاء الرجال ! أما كان يكفي زهرةَ من النضال والتضحية ماقدمه في مواقفه السابقة الكثيرة ؟ أما كان من حقه- وقد أصيب - أن ينزوي في ناحية بعيدة آمنة ليعالج جرحه ويأخذ قسطًا من الراحة ؟

نعم كان ذلك من حقه ، ولكنه من قوم ينسون أنفسهم في سبيل تقديم الخدمة لأمتهم ، ويضحون بأرواحهم في سبيل الدفاع عن دينهم ونشر دعوتهم ، ويرون أن أسمى أمنية تتطلع إليها نفوسهم أن يُستشهدوا في سبيل الله تعالى .

وقد بقي المسلمون في حصار بهرسير شهرين ، استعملوا خلالها المجانيق ، وقد صنع لهم الفرس الموالون لهم عشرين منجنيقًا شغلوا بها الفرس وأخافوهم (١) .

وفي هذا دلالة على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا لايهملون تحصيل أسباب النصر المادية إذا قدروا عليها ، وأنهم كانوا على ذكر

---

(١) تاريخ الطبري ٦/٤ .

تام لقول الله تعالى﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ** ﴾ [1] ، إلى جانب تفوقـهم في أسباب النصر المعنوية التي انفـردوا بأهمها وأبرزها وهو الاعتماد على الله تعالى وذكره ودعاؤه .

ومما يُذكر من الأمثلة على معية الله تعالى لأوليائه المؤمنين بالنصر والتأييد ما أخرجه الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن أنس بن الحليس قال : بينمـا نحن محاصرون بهـرسير بعد زحفـهم وهزيمتهم أشـرف علينا رسـولٌ فـقال : إن المـلك يقـول لكم : هل لكم إلى المصالحة على أن لنا ما يلينا من دجلة وجَبَلُنا ولكن ما يليكم من دجلة إلي جبلكم؟ أمَا شـبعتم لا أشبع الله بطونكم ! فبـدر الناسَ أبو مُفَزِّر الأسود ابن قطبة ، وقد أنطقـه الله بما لايدري ماهو ولانحن ، فرجع الرجل ورأيناهم يقطعـون إلى المدائن - يعني يعبرون النهـر إلى شرق المدائن - فقلنا : يا أبا مفزر ماقلت له ؟ قال : لا والذي بعث محمداً بالحق ما أدري ماهو إلا أن عليَّ سكينة ، و أنا أرجو أن أكون أُنطقتُ بالذي هو خير، وانتاب الناس يسألونه حـتى سمع بذلك سعد فجاءنا فقال: ياأبا مـفزر ماقلت ؟ فو الله إنهم لهُرَّاب ، فحـدثه بمثل حديثه إيانا .

فنادى الناس ثم نهد بهم ، وإن مَجَانيقنا لتخطر عليهم ، فماظهر على المدينة أحد ولاخـرج إلينا إلا رجل نادى بالأمان فأمَّنَّاه ، فـقال: إنْ بقي فيها أحد ، فما يمنعكم ؟ [يعني لم يبـق فيها أحد] فتسورها الرجال وافـتتـحناها فما وجـدنا فيـها شيـئًا ولا أحـدا ، إلا أسارى أسرناهم خارجًا منهـا ، فسألناهم وذلك الرجل : لأي شيء هربوا ؟

---

(١) سورة الأنفال / ٦٠ .

فقالوا : بعث الملك إليكم يعرض عليكم الصلح ، فأجبتموه بأنه لا يكون بيننا وبينكم صلح أبدًا حتى نأكل عسل أفريذين بأُتْرُجٍّ كوثَى ، فقال الملك : واويله ! ألا إن الملائكة تكلَّم على ألسنتهم ، ترد علينا وتجيب عن العرب، والله لئن لم يكن كذلك ماهذا إلا شيء أُلقي عَلى فِيِّ هذا الرجل لِنَنْتَهِي ، فأَرزُوا إلى المدينة القصوى[1] .

وهكذا أنطق الله تعالى هذا المسلم العربي بلسان العجم بكلام لايصدر إلا منهم ، ولاشك أنه كان بلغة فارسية متقنة لايُشتبه فيها أنها من عربي تعلم الفارسية ، فأيقن الفرس حالاً بأن من نطق بذلك ملكٌ يجيب عن المسلمين أو رجل منهم أُلقي هذا الكلام على لسانه ، فأخْلَوا مدينتهم الغربية من الرعب وانحازوا إلى مدينتهم الشرقية واحتموا بنهر دجلة الذي كان يجري بغزارة في تلك الأيام .

ولما دخل المسلمون « بَهُرْسير » - وذلك في جوف الليل-لاح لهم الأبيض [وهو قصر الأكاسرة] فقال ضرار بن الخطاب: الله أكبر أبيض كسرى، هذا ما وعد الله ورسوله، وتابعوا التكبير حتى أصبحوا [2].

وقوله « هذا ما وعد الله ورسوله » يعني يوم حفر الخندق لما بشر النبي ﷺ أصحابه بفتح فارس والروم ووصف لهم قصورها وقد سبق بيان ذلك .

مشورة بين سعد وجنوده في عبور النهر :

هذا ولما علم سعد أن كسرى قد عبر بالسفن إلى المدائن الشرقية وضم السفن كلها إليه وقع في حيرة من أمره ، فالعدو أمامهم وليس

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٧ .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٨ .

بينهم إلا النهر ، ولاسبيل إلى عبوره لعدم توفر السفن ، وهو يخشى أن يرتحل عدوه فيصعب القضاء عليه ، وقد أتى سعدًا بعض أهل فارس فدلُّوه على مخاضة يمكن اجتيازها مع المخاطرة ، فأبى سعد وتردد عن ذلك ، ثم فاجأهم النهر بمدٍّ عظيم حتى اسودَّ ماء النهر وقذف بالزَّبد من سرعة جريانه ، وفي أثناء ذلك رأى سعد رؤيا صالحة مفادها أن خيول المسلمين قد عبرت النهر ، فعزم لتأويل رؤياه على العبور، وجمع الناس فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال : إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون إليه معه وهم يخلصون إليكم إذا شاؤوا فَيُنَاوشونكم في سفنهم ، وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتَوا منه، قد كفاكموهم أهل الأيام [1]، وعطلوا ثغورهم ، وأفنوا ذادتهم [2]، وقد رأيت من الرأي أن تبادروا جهاد عدوكم بنيَّاتكم قبل أن تحصركم الدنيا ، ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم .

فقالوا جميعًا : عَزَم الله لنا ولك على الرشد فافعل .

وقبل أن أذكر خبر العبور أحب أن أقف أمام هذه العزيمة الصادقة وقفات :

الأولى : تَذَكُّر معية الله جل وعلا لأوليائه المؤمنين بالنصر والتأييد، فهذه الرؤيا الصادقة التي رآها سعد رضي الله عنه من الله جل وعلا لتثبيت قلبه ليُقدم على هذا الأمر المجهول العاقبة .

الثانية : أن الله تعالى يُجري الأمور لصالح المؤمنين ، فالنهر

---

(١) يعني المجاهدين السابقين .

(٢) يعني مادتهم التي يدافعون عنها .

جرى بكثافة مفاجئة على غير المعتاد ، وظاهر هذا أنه لصالح الفرس، حيث إنه سيمنع أي محاولة لعبور المسلمين ، ولكن حقيقته أنه لصالح المسلمين ، حيث أعطى ذلك الكفار طمأنينة فلم يستعدوا لقدوم المسلمين المفاجيء لهم ، ولم يستطيعوا أن يحملوا معهم كل ما يريدون حَمْلَهُ في حال الفرار ، وإقدامُ المسلمين على العبور رغم المخاطر، وتوقع الهلاك في عرف البشر المعتاد أثار فزع الأعداء وخارت عزائمهم.

وهذا يشبه ما جرى يوم بدر من تقليل الكفار في أعين المسلمين وتقليل المسلمين في أعين الكفار ، ليُقْدم كل فريق على قتال الآخر، فيجري بذلك ما قدره الله تعالى من ظهور الحق على الباطل ﴿ **وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ** ﴾ [**الأنفال** : ٤٤] .

الثالثة : أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتفاءلون خيراً بالرؤيا من الرجل الصالح، ويعتبرونها مُرجِّحا للإقدام على العمل ، وكانوا رضي الله عنهم يحسنون الظن بالله تعالى ، ويعتبرون أن رُؤَى الخير تثبيت وتأييد منه تعالى .

الرابعة : أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتصفون بالجرأة والإقدام وقد مرت أمثلة كثيرة على جرأتهم في منازلة الأبطال ومجاولة الوحوش الضارية، وهاهم يُقدمون على خوض النهر الجارف بخيولهم، ومن قبل خاضوا البحر بخيولهم بقيادة العلاء بن الحضرمي،كما مر معنا سابقًا ، وعلى قدر أهل العزم تكون العزائم .

الخامسة : أن قادة المسلمين في ذلك العهد كانوا يتصفون غالبًا

بالحزم واغتنام الفـرص لاستنفاد طاقة الجنود وهم في حمـاسهم وقوة إيمانهم ، فهذا سعد رضي الله عنه يأمر جـيشه بأن يعبروا إلى الأعداء بسلاح الإخلاص والتقوى وقد كان مطمئنًا إلى مستوى جيشه الإيماني فأقدم على ما أقدم عليه مستعينًا بَعْد الله تعالى بذلك المستوى الرفيع .

السـادسة : اتصـاف الصحـابة رضي الله عنهم ومن معـهم من التابعين بالطاعـة التامة لقادتهم ، وكـانوا يعتبرون هذه الطاعـة واجبًا شرعيًا وعملا صالحًا يتقربون به إلى الله تعالى .

عبور النهر وفتح المدائن :

وقد ندب سـعد الناس إلى الـعبور وقـال : مَنْ يبدأ ويحـمي لنا الفِراضَ [يعني سـاحل النهر الشرقي] حتى تتـلاحق به الناس لكيلا يمنعوهم من الخروج ؟ فانتدب له عاصم بن عـمرو التميمي وكان من أصحـاب البأس والقوة ، وانتدب بعـده ستمـائة من أهل النجدات ، فأمَّر عليهم سعد عاصمًـا ، فسار فيهم حتى وقف على شاطيء دجلة وقال : من ينتدب مـعي لنحمي الفراض من عدوكم ولنحـميكم حتى تعبروا ؟ فانتدب له ستون من أصحـاب البأس والنجدة ، ثم اقتحموا دجلة ، واقتحم بقية الستمائة على إ ثرهم .

وهكذا تكونت من جـيش المسلمين فـرقة مـن الفدائيين عـددهم ستمـائة وقد سميت كتـيبة الأهوال ، واستخلص عـاصم منهم ستين تحت قيادته ليكونوا مقدمة لهذه الفرقة .

وهذا تخطيط مـحكم من سـعد أوَّلاً ثم من عـاصم ، وذلك أن مـواجهـة الأهوال والمغامـرات لاتكون بالعـدد ا لكبيـر ، وإنما تكون

بأصحاب البأس الشديد والقدرة القتالية العالية وإن كانوا قلائل ، وذلك أنه إذا انضم لهذه الفرقة من هم أقل كفاءة وشجاعة ثم ارتدوا عند هجوم الأعداء يسببون انهزام الفرقة كلها .

ومما يميز المسلمين آنذاك أن كل واحد منهم يعرف قدر نفسه وطاقتها، فلا يندفع إلا في حدود إمكاناته ، وذلك لأنهم لا يعملون للمجد الدنيوي ، لأن من كان كذلك قد يغامر بنفسه وهو غير مؤهل لذلك، رجاء أن يبقى فيحوز ذلك المجد ، وهو في أدائه هذا العمل لن ينجح كثيراً لأنه سيبذل جل طاقته في الدفاع عن نفسه، وهذا يفوِّت الغرض الذي يجب أن يغامر من أجله ، وإنما كان أولئك يعملون للآخرة، ولرفع مجد الإسلام ، فهم لا يضعون خطواتهم إلا في موضعها الصحيح ، وقد يغامر بعضهم وهو غير مؤهل حينما يتعين عليه الإقدام ثم يسِّهل الله له مخرجًا من الهول الذي غامر بنفسه فيه كما تقدم.

واقتحم عاصم النهر بالستين على الخيول وقد ذُكر من طليعتهم الذين سبقوا إلى الشاطيء الآخر أصمُّ بني وَلاَّد التيمي ، والكَلَج الضبِّي، وأبو مفزِّر الأسود بن قطبة ، وشرحبيل بن السِّمط الكندي، وحَجْل العجلي ، ومالك بن كعب الهمداني ، وغلام من بني الحارث ابن كعب .

فلما رآهم الأعاجم أعدُّوا لهم فرسانا فالتقوا بهم في النهر قرب الشاطيء الشرقي ، فقال عاصم : الرماحَ الرماح ، أشرعوها وتوخَّوا العيون ، فالتقوا فاطَّعَنوا ، وتوخَّى المسلمون عيونهم ، فولَّوا نحو الشاطيء ، والمسلمون ينخسون خيولهم بالرماح لتسرع في الهروب ، فصارت تسرع وأصحابها لايملكون منعها .

ولحق بهم المسلمون فقتلوا عامتهم ونجا من نجا منهم عورانا ، ولحق بقية الستمائة بإخوانهم فاستولوا على الشاطيء الشرقي[1] .

هذا ولقد كان بإمكان الفرس الموكَّلين بحماية الشاطيء أن يلزموا مكانهم وأن يكثِّفوا رماية المسلمين بسهامهم ، وذلك لو تَمَّ سيعرقل تقدم المسلمين بعض الوقت ، وستقع فيهم إصابات نظرًا لكونهم في الماء وعدوهم في اليابسة ، والنظر إلى الموضوع من الناحية الحربية يجعل القدرة المادية إلى جانب الفرس لأن الذي فوق الأرض يستطيع أن يحدِّد الأهداف أكثر ممن يعوم في الماء ، ولكن الله سبحانه أعمى بصائر الفرس عن ذلك مع أنهم أهل الحروب الذين ورثوها كابرًا عن كابر ليتم ما أراده الله تعالى من نصرة دينه وأوليائه ، حيث قدَّم أعداؤهم طائفة منهم لخوض الجانب الشرقي من النهر وجانب النهر عادة يكون خفيف الماء، فالتحموا مع المسلمين ، ولم يستطيعوا الثبات لهم وأصبحوا عائقًا يحول بين الرماة ومواصلة رمي المسلمين .

جاء في رواية سيف بن عمر عن شيوخه قالوا : ولما رأى سعد عاصما على الفراض [يعني التي في الجانب الشرقي] قد منعها أذن للناس في الاقتحام وقال :« قولوا : نستعين بالله ونتوكل عليه ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » .

وهذا القول تعبير من سعد ومن كانوا معه عن مدى تعلقهم بالله تعالى ، واعتبارهم أن الأمر بيده كله ، وأن تدبير أمور الحرب والسلم عنده، فهو الذي يوهن قلوب الأعداء ويعمي بصائرهم عن إدراك عوامل النصر ، وهو الذي يوفق المسلمين لهذه العوامل وللتفكير

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٩ .

السديد في الخـروج من المآزق ، وهو الذي يذلل لهم شواهق الجـبال المليئة بالجليد، وأعماق البحار والأنهار التي تقذف بالأمواج والزَّبَد ، وهو الذي يُمدهم بالملائكة عليهم السلام إذا كان الأعداء فوق طاقتهم الكبرى.

فهـذا الكلام ليس مجـرد كلام يقال باللسـان، كما يـقوله بعض المسلمين الذين عُمِرتْ قلوبهم بالخوف من طغـاة البشر وتضخمت في أنظارهم قـوتهم وتضاءل في قلوبهم الخـوف من الله تعالـى ،و تذكّر قوته وسعة ملكه ، ثم مع ذلك يرجون من النطق بهذا الكلام أن يظهر مفعوله المدهش في واقع حياتهـم .

إن الصحابة رضي الله عنهم قبل أن ينطقوا بهذا الكلام قد جردوا قلوبهم تمامًا من حب غير الله تعالى ومن تعظيم طغاة البشر أو الخوف منهم ، وعمروها بحب الله تعالى والإيمان بعظمته وقوته والخوف منه وحده، واعتبار أن السماوات والأرض ومافيهن في قبضته تعالى .

فسعد حينما يأمر الجيش الإسلامي بالنطق بهذه الكلمات لايحاول أن ينشيء في قلوبهم عقيـدة التوحيد الصافية، وإنما يـذكِّرهم بما يعبر عن هذه العـقيـدة ليـتذكـر منهم من كان شـارد الفكر عن ذكـر الله القلبي.

ولذلك كانت هذه الكلمات وأمثالهـا تعطي مفعولها المؤثر ، لأن أولئك الصادقين كـانوا يتمتـعون بانسـجام تام بين أقوالهم وأعـمالهم واعتقاداتهم .

فالذي يركع لله تعالى مثلا قد قام بتعظيمه بفعله لأن الركوع هيئة تعظيم ، ثم قام بتـعظيمه بقوله حـيث يقول سبحـان ربي العظيم فإذا

وافق ذلك حضور القلب واعتقاده بعظمة الله تعالى كان ركوعا كاملا وأدى مفعوله في تقوية الإيمان وتقويم السلوك والظفر بمعية الله تعالى بالنصر والتأييد ، أما إذا كان القلب غافلا والفكر شاردًا فإن ذلك يكون مجرد أقوال وأفعال لاتعطي شيئًا من ثمراتها العظيمة التي شُرعت من أجلها .

ولقد كانت أعمال الصحابة وأذكارهم عامرة بالاعتقاد الحي المتجدد مع تجدد الزمن ، فلذلك استقامت حياتهم وظفروا بهذه الانتصارات الباهرة التي أصبحت مضرب الأمثال .

فسعد رضي الله عنه يذكِّرهم بالاستعانة بالله تعالى والتوكل عليه وحده ، لأنه جل وعلا هو الذي بيده حسم تلك المعركة وغيرها من أفعال العباد ، ثم يذكِّرهم بالذكر الذي قاله إبراهيم عليه السلام حينما أُلقيَ في النار ، وقاله رسول الله ﷺ حينما هدده الكفار بجمعهم كما ذكره الله سبحانه بقوله ﴿ **الَّذين قَالَ لَهم النَّاس إِنَّ النَّاسَ قَدْ جمعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانا وَقَالُوا حَسْبنَا اللَّهُ وَنعم الْوَكيلُ** ﴾ (١) فإذا كان الكفار يعتَدُّون بجمعهم وقوتهم المادية فإن المسلمين الصادقين يعتدون بالله تعالى وكفى به معينا وناصرا وهو جل شأنه نعم المعتمد.

ثم يذكِّرهم بأن التحول من حال الضعف إلى القوة، ومن العسر والشدة إلى اليسر والسهولة ، ومن انغلاق السبل إلى انفتاحها لايكون إلاّ بالله تعالى وحده ، حينما يقول المسلم مع الاعتقاد الجازم «لاحول ولا قوة إلا بالله العظيم » .

قال الرواة في الرواية المذكورة : وتلاحق عُظْم الجند فركبوا

---

(١) سورة آل عمران / ١٧٣ .

اللُّجَّة، وإنَّ دجلة لَتَرمي بالزَّبَد ، وإنها لمسودَّة ، وإن الناس ليتحدثون في عومهم وقد اقتربوا ، ما يكترثون كما يتحدثون في مسيرهم على الأرض[1] .

وجاء في رواية أبي بكر بن حفص بن عمر : وكان الذي يساير سعدًا في الماء سلمان الفارسي ، فعامت بهم الخيل ، وسعد يقول : «حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرَنَّ الله وليَّه ، وليظهرنَّ الله دينه ، وليهزمنَّ الله عدوه ، إنْ لم يكن في الجيش بَغْي أو ذنوب تغلب الحسنات» [2] وهذا حُسْن ظن بالله تعالى ، وثقة عظيمة بتحقق وعده أوليائه بالنصر ، ثم إدراك دقيق لعوامل تخلف ذلك حيث اشترط خُلُوَّ الجيش من الظلم والعدوان ومن الذنوب الأخرى التي تغلب الحسنات .

فجميع النصوص التي فيها الوعد بنصر المؤمنين وتمكينهم في الأرض حق لامرية فيه ، ويجب على المسلمين أن يؤمنوا بها وبتحقق وقوعها ، ولكن مع تجرد قلوب المسلمين من تعظيم طغاة البشر والخوف منهم ، وتجرد ألسنتهم من الثناء عليهم وتعداد محامدهم ، أو بعبارة أخرى أن يكون من توجهوا لهذا الأمر من الموحدين ، ثم أن ينزهوا أنفسهم عن الظلم والعدوان ، فإن الظالمين قد يُديل الله عليهم جبابرة الكفار وإن كانوا أبعد منهم عن الهدى المنحرف بمراحل ، ثم أن ينزعوا أنفسهم عن المعاصي التي تغلب الحسنات كما جاء في تعبير سعد رضي الله عنه ، ومن ذلك الكبائر والإصرار على الذنوب وعدم

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٠ .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ١١-١٢ .

المبالاة بآثارها، ولم يأت في استثناء سعد ذكر التوحيد ، وإنما ذكر البغي والمعاصي لأن الذين معه كانوا جميعًا من الموحدين .

وهذه المعاني مذكورة في قول الله تعالى ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ (١) .

فالعبادة تشمل تطبيق الإسلام في جميع شئون الحياة فكل عمل مشروع أراد به فاعله وجه الله تعالى فهو عبادة (٢) .

واجتناب الشرك يعني إخلاء القلب وتجريده من أي اعتقاد يزاحم وجود الإيمان بالله تعالى وذلك كالخضوع للطغاة وتعظيمهم والخوف منهم ، أو التعلق بالدنيا على أنها غاية يُعمل من أجلها ، وما يترتب على اعتقاد القلب من الأقوال والأعمال الشركية .

قال الرواة : فقال له سلمان : الإسلام جديد ، ذُلِّلَتْ لهم والله البحور كما ذُلِّلَ لهم البر ، أما والذي نفس سلمان بيده ليخرُجنَّ منه أفواجا كما دخلوه أفواجا (٣).

وقول سلمان رضي الله عنه : الإسلام جديد ، يعني لازال حيا واتباعه أقوياء الإيمان معتزون به ، وقد جعلوه قضيتهم التي من أجلها يحيون ومن أجلها يموتون ، وإليها يَدْعون وعنها يدافعون ، أما حينما

---

(١) سورة النور / ٥٥ .

(٢) ينظر كتاب « شمول العبادة في الإسلام » للمؤلف .

(٣) تاريخ الطبري ٣/ ١١ - ١٢ .

يتقادم العـهد فإنه تأتي أجيال ترث هذا الدين وراثة لا اخـتيارًا ، ولا تجعله القـضية التي تأخـذ على أفرادها مشـاعرهم واهتمـاماتهم ، بل يجعلون همـهم الأكبر هو العلو في الدنيا والتـمتع بمتاعهـا ، ويصبح الدين أمر ثانويًا في قاموس حياتهـم ، فعند ذلك يخرجون منه أفواجًا كما دخلوه أفواجًا .

هذا وقد تم عـبور المسلمين جـميـعًا سالمين لم يُصَب أحـد منهم بأذى كما جاء في عدة روايات أخـرجها الإمام الطبري ، ولم يقع في النهر منهم إلا رجل واحـد كما جاء في رواية أبي عثـمان النهدي : أنهم سلموا من عند آخرهم إلا رجـلا من بارق يدعى " غرقدة" زال عن ظهر فرس شـقراء كأني أنظر إليهـا تنفض أعرافها عُـريًا والغريق طاف، فثنى القعقاع ابن عمرو عنان فرسـه إليه فأخذ بيده فجرَّه حتى عبر ، فـقال البارقي - وكان من أشد الناس - أَعْـجَزْتَ الأخوات أن يلدن مثلك ياقعقاع، وكان للقعقاع فيهم خؤولة[1] .

وهذه منقبة للقعقاع تضاف إلى مناقبه الكثيرة في الشهامة والبطولة والنجدة .

هذا وقد كان عبور المسلمين مفاجأة للفرس لم يكونوا يتوقعونها ، ولم يحسبوا لها حسابا ، حيث إنَّ قطع النهر وهو بتلك الكثافة والقوة في الجريان لا يمكن أن يتم إلا بالسفن عادة .

ولقد كان بإمكان الفـرس لو توقعوا هذا العبور أن يجهـزوا جيشًا على السفن يقاتلون به المسلمين بحـيث لايمكنونهم من العبور ، ولكن الله تعالى قدر جريان النهر بتلك الكثافة المـفاجئة كما جاء في إحدى

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٢ .

الروايات « وفَجئَـهم المدُّ » وفي عبارة أخرى « وفي سنة جَوْدٍ صيـفها متتابع» .

قدر الله سبحانه ذلك ليطمـئن الفرس على عدم وصول المسلمين إليهم لعلمهم بأن فيـضان النهر يستمر عدة أشهـر حسب المعتاد وليس لدى المسلمين سفن يعبرون عليها .

فكان عبـور المسلمين في تلك الحال مفـاجأة أذهلت الفرس كـما جاء في رواية سـيف السابقة : فَفَـجِئُوا أهل فـارس بأمر لم يكن في حسابهم ، فأجهضوهم وأعجلوهم عن جمهور أموالهم [1] .

وفي رواية أخرى عن أبي مالك حبيب بن صـهبان قال : لما عبر المسلمون يوم المدائن دجلة ، فنظروا إليهم وهم يعبرون جعلوا يقولون بالفـارسية « ديوان آمـد » - قال أبو بكر بـن سيف : يعني قـد جاء الشيطان- وقالوا بعضهم لبعض : والله ما تقاتلون الإنس وما تقاتلون إلا الجن ، فانهزموا [2].

وهكذا كـانت هذه الكرامـة العظيمـة التي أكـرم الله بها أوليـاءه المؤمنين من عبور النـهر سببًا في فزع الأعـداء وهروبهم وجلائهم عن عاصـمة مـلكهم، وقد اعـتبـروا أن عبـور المسلمين بدون سفن أمـر لايجري من الإنس عادة وإنما يمـكن من الجن الذين مكَّنهم الله تعالى من الطيران في الهـواء وغير ذلك مما لايبلغه الإنس ، فنادى بـعضهم بعضا بالتحريض على الفـرار ، لأنه لاطاقة لهم بقتال من جرى منهم هذا الأمر الخارق .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٠ .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ١٤ .

وبعد ذكر خبر العبور أحِبُّ أن أبين أن عبور النهر لم يكن أمرًا عاديًا كما يصوره بعض الكتابَ المعاصرين حيث يرون بأن الخيل تعوم عادة في الماء ، وأنهم استخدموها للعبور كما تُستخدم السفن ، وهذا التصوير مخالف لسياق الخبر ، فلو كان الأمر عاديا لما تحيَّر سعد وتردد في العبور، ولما كان لحيازة الأعداء جميع السفن إلى شاطئهم فائدة تذكر ، ومما يدل على أن العبور كان خارقًا للعادة أن الفرس لما رأوا المسلمين يسيرون في النهر فوق ظهور الخيل ذهلوا من هول المفاجأة وقالوا :والله ما تقاتلون الإنس وما تقاتلون إلا الجن كما تقدم.

ومما يدل على ذلك أيضًا ما أخرجه الإمام الطبري بإسناده عن عمير الصائدي قال : لما أقحم سعد الناس في دجلة اقترنوا فكان سلمان قرين سعد إلى جانبه يسايره في الماء ، وقال سعد : ذلك تقدير العزيز العليم، والماء يَطْمُو بهم ، وما يزال فرس يستوي قائمًا إذا أعيا يُنْشَز له تلعة فيستريح عليها كأنه على الأرض فلم يكن بالمدائن أعجب من ذلك ، وذلك يوم الماء ، وكان يُدْعَى يوم الجراثيم- يعني من كثرة مارفع للمسلمين من الأرض و سط النهر -.

وأثبت ذلك أيضًا سيف بن عمر فيما يرويه عن شيوخه قالوا: كان يوم ركوب دجلة يُدْعَى يوم الجراثيم ، لايَعيا أحد إلا أُنشِزت له جرثومة يريح عليها (١).

ومن الغريب أن بعض الكتاب المعاصرين يفسر ذلك بالجُزُر النهرية التي تكون أحيانًا في وسط الأنهار ، فهل كان الرواة الأوائل

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٣ .

من الغباء بحيث لايعرفون الجزر النهرية ؟ ولو كان هناك جزر لوقف عليها طائفة من الجند على الأقل ولم تكن خاصة بأفراد يصيبهم الإعياء .

ومما يدل أيضًا على كون الأمر خارقًا للعادة ماتقدم من قول سلمان رضي الله عنه عن المسلمين : ذُلِّلت لهم والله البحور .

فلو كان الأمر اجتيازًا معتادًا لما كان لهذا القول حاجة .

ومما يدل على ماذكرنا أيضًا ما أخرجه الإمام الطبري من طريق سيف عن قيس بن أبي حازم قال : خضنا دجلة وهي تطفح ، فلما كنا في أكثرها ماء لم يزل فارس واقفا ما يبلغ الماء حزامه[1] .

فإذا كان الماء لايبلغ أحزمة الخيل مع أنهم في أغزر مكان من دجلة فهل يُتصور أن الخيل كانت تسير على أقدامها في أرض النهر مع ماذكر الرواة من عمق النهر وغزارته ومَدِّه العظيم في تلك الأيام ؟ أم هل يُتصور أن لدى الخيل قوة على العوم وهي تحمل راكبيها ثم لايبلغ الماء أحزمتها ؟

إن ذلك كله لايمكن تصوره ، ولكن المؤمن الذي هو على علم ويقين من أمر الله تعالى يدرك أن قدرته تعالى فوق كل شيء وأنه هو الذي حمل ذلك الجيش الكبير بقدرته تعالى ولطفه ومَنِّه .

كما يدل عليه أيضًا ماجاء في رواية أبي عثمان النهدي قال : طبَّقنا دجلة خيلاً ورَجْلاً ودوابَّ[2] .

---

(1) تاريخ الطبري ٤/ ١٣ .

(2) تاريخ الطبري ٤/ ١٠ .

فهذا يدل على أن العبور غير مقتصر على الخيل ، وأنه كان هناك مشاة يسيرون على أقدامهم ودواب أخرى .

أما الفرس فإنهم لما علموا ببدء عبور المسلمين بعثوا من الفرسان حامية تعوق تقدمهم حتى يتمَّ جلاؤهم .

وقد قاومت هذه الحامية بعض الوقت ، وخرج ملك الفرس يزدجرد إلى حلوان ، وخلت المدائن من الجيش الفارسي إلا حامية في القصر الأبيض .

وقد دخل المسلمون المدائن الغربية فلم يجدوا مقاومة حتى وصلوا إلى القصر الأبيض فامتنعت به حاميته، وقد دعاهم المسلمون إلى الإسلام، وكان الذي تولى ذلك سلمان الفارسي رضي الله عنه حيث قال لهم : إني منكم في الأصل وأنا أرقُّ لكم، ولكُم فيّ ثلاث أدعوكم إليها ما يصلحكم : أن تسلموا فإخوانا، لكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإلا فالجزية ، وإلا نابذناكم على سواء إن الله لايحب الخائنين .

ولما كان اليوم الثالث قبل أهل القصر الجزية وخرجوا[1] .

ولما دخل سعد المدائن فرأى خلوتها وانتهى إلى إيوان كسرى أقبل يقرأ ﴿ **كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ** ﴾ [**الدخان** : ٢٥-٢٨][2] .

مواقف من أمانة المسلمين :

لما فتحت المدائن وجَّه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فِرَقًا من

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٤ .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ١٦ .

المسلمين لتتبُّع المنهزمين وجمع الغنائم ، وقد أدَّوا تلك الغنائم بكل أمانة وإخلاص ، وقد رُويت في ذلك أخبار تدل على مبلغ أمانتهم .

فمن ذلك ما قام به زُهرة بن الحويَّة قائد المقدمة ، حيث خرج يتبع المنهزمين فأدرك بعضهم على جسر النهروان ، فازدحموا فوقع بغل في الماء ، فعجلوا واجتمعوا عليه ، فقال زهرة : إني أقسم بالله إن لهذا البغل لشأنا ، ما كَلِب القوم عليه ولاصبروا للسيوف بهذا الموقف الضَّنك إلا لشيء بعدما أرادوا تركه ، وترجَّل زهرة يومئذ حتى إذا أزاحهم أمر أصحابه بالبغل فاحتملوه فأخرجوه فجاؤوا بما عليه حتى ردَّه إلى الأقباض ما يدرون ما عليه وإذا الذي عليه حلية كسرى ثيابه وخرزاته ووشاحه ، ودرعه التي كان فيها الجوهر ، وكان يجلس فيها للمباهاة(١) .

وهكذا جمع زهرة في هذا الخبر بين الدهاء حيث أدرك أن وراء اهتمام الفرس بذلك البغل سرًّا ، والشجاعة حيث ترجل عن فرسه وقاتل أولئك القوم ، والأمانة حيث سلَّم ما على البغل من غير أن ينظر فيه .

ومنها خبر الكَلَج الضبيِّ وقد خرج للطلب فوجد اثنين من البغَّالين فقتلهما بعد أن أفلت من سهامهما ، ثم ساق البغلين حتى سلَّمهما لصاحب الأقباض ، وإذا فيهما تاج كسرى ، وفيهما الجوهر وثياب كسرى من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر .

ومنها خبر القعقاع بن عمرو وقد لحق بفارسي يحمي الناس فقتله، وإذا معه غلافان وعيبتان ، وإذا في أحد الغلافين خمسة

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٧ ، بتصرف .

أسيـاف وفي الآخر ستـة ، وهي من أسياف المـلوك من الفرس ومن الملوك الذين جـرت بينهم وبين الفرس حـروب وفيهـا سيف كـسرى وسيف هرقل وإذا في العيبتين أدراع من أدراع الملوك وفيها درع كسرى ودرع هرقل ،فجاء بهـا إلى سعد ، فقال : اختـر أحد هذه الأسياف فاختـار سيف هرقل ، وأعطاه درع بهرام ،وأما سـائرها فنفلها كتـيبة الخرساء التي هي بقيا دة القعقاع،إلا سيف كسرى والنعمان ،فقد رأى أن يبعثهما إلى أمير المؤمنين لتسمع بذلك العرب لمعرفتهم بهما(١).

ومنهـا مارواه أبو عبـيدة العنبـري قال: لما هبط المسلمـون المدائن وجـمعـوا الأقـباض أقـبل رجل بحُقٍّ مـعه ، فـدفـعه إلى صـاحب الأقباض، فقال والذين معه : ما رأينا مثل هذا قط ، ما يعدله ماعندنا ولايقاربه ، فقالوا : هل أخذت منه شيئًا ؟ فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به، فـعرفوا أن للرجل شأنا فقـالوا : من أنت ؟ فقال : لا والله لا أخبركم لتـحمدوني ، ولا غيركم ليقـرِّظوني ، ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه ، فأتْبـعوه رجلا حتى انتهى إلى أصحـابه ، فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس (٢) .

ومنها ما رُوي عن عصمة بن الحارث الضَّبِّي قال : خرجت فيمن خرج يطلب ، فـأخذت طريقًا مسلـوكًا وإذا عليه حَمَّـار ، فلما رآني حثَّه فلحق بآخر قدامـه ، فمالا وحثَّا حماريهما ، فـانتهيا إلى جدول قد كُـسر جسـره فثبتـا حتى أتيتـهما ، ثم تفـرقا ، ورماني أحـدهما فـألَظظْت به [يعني تبـعتـه] فقـتلتـه وأفلت الآخر ، ورجـعت إلى

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٨ ، بتصرف .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ١٩ .

الحمارين ، فأتيت بهما صاحب الأقباض ، فنظر فيما على أحدهما فإذا سَفَطان في أحدهما فرس من ذهب مسرج بسرج من فضة على ثَفْره [1] ولبَبَه الياقوت والزمرد منظوم على الفضة ولجام كذلك ، وفارس من فضة مكلَّل بالجوهر، وإذا في الآخر ناقة من فضة عليها شليل[2] من ذهب وبطان من ذهب ولها زمام من ذهب ، وكل ذلك منظوم بالياقوت ، وإذا عليها رجل من ذهب مكلل بالجوهر ، كان كسرى يضعهما إلى اسطوانَتَي التاج[3] .

وَبعْدُ فهذه نماذج من وقائع كثيرة تدل على صدق أولئك المجاهدين وأمانتهم ، وتجردهم من مصالحهم الخاصة ، فإن الذي جمعوه وأدَّوه يعتبر من أعظم عجائب الدنيا ونفائسها ويكفي في تقدير قيمته أنه عنوان حضارة الفرس المادية ، حيث ظل الأكاسرة يجلبونه بالأموال العظيمة، ويصنعون منه تلك المظاهر الدنيوية الخادعة .

وإنَّ أداء هذه الأموال والنفائس العظيمة مع إمكان إخفاء بعضها دليل على قوة إيمان أولئك المجاهدين ، وإذا كانت هذه حالهم فلا غرابة في محالفة النصر لهم بما يشبه خوارق العادات أو بما هو من خوارقها .

ولقد أثنى على ذلك الجيش أكابر الصحابة رضي الله عنهم ، فمن ذلك قول سعد بن أبي وقاص : والله إن الجيش لذو أمانة ولولا ماسبق لأهل بدر لقلت على فضل أهل بدر .

---

(١) هو السير الذي في مؤخرة السرج .

(٢) هو ما يوضع على عجز البعير .

(٣) تاريخ الطبري ٤/ ١٨ - ١٩ .

وقول جابر بن عبد الله : والله الذي لا إله إلا هو ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة ، ولقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كالذي هجمنا عليه من أمانتهم وزهدهم : طليحة بن خويلد، وعمرو بن معد يكرب ، وقيس بن المكشوح .

وأكبر من ذلك ثناء أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه عليهم لَمَّا رأى خُمس تلك الغنائم كما أخرج الإمام الطبري من طريق سيف عن مخلد ابن قيس العجلي عن أبيه قال : لما قُدم بسيف كسرى على عمر ومنطقته وزبرجده قال : إن قوما أدَّوا هذا لذَوُوا أمانه ، فقال علي رضي الله عنه: إنك عففتَ فعفَّت الرعية ، ولو رتَعْتَ لرتَعَتْ [1] .

وصول نوادر الغنائم إلى المدينة وموقف لعمر :

هذاولما قسم سعد غنائم المدائن العظيمة أرسل إلى أمير المؤمنين عمر بالأخماس وأرسل معها نوادر من لبس كسرى وفرشه وأشيائه الخاصه ، واستأذن الجيش في ذلك فأذنوا وطابت بذلك نفوسهم ، ولما وصل ذلك إلى المداينة ورآه أمير المؤمنين فزع لمنظره وذكَرَ به حقارة الدنيا وحقارة من اغتر بها ، وقد أراد أن يُلقي على المسلمين في المدينة درسًا عمليّا في التزهيد بمظاهر الدنيا ، وقد ذكر خبر ذلك الحافظ ابن كثير من رواية الهيثم بن عدي قال: أخبرنا أسامة بن زيد الليثي قال حدثنا القاسم بن محمد بن أبي بكر قال : بعث سعد بن أبي وقاص أيام القادسية إلى عمر بقباء كسرى وسيفه ومنطقته وسوارَيْه وسراويله وقميصه وتاجه وخفَّيه - وقد كانت كما في روايات أخرى من مواد غالية الثمن كالحرير والذهب والجوهر - قال : فنظر عمر في وجوه

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٩ - ٢٠ ، البداية والنهاية ٧/ ٦٧ .

القوم ، وكـان أجسمـهم وأبدنهم قامة سـراقة بن مالك بن جـعثم ، فقال : ياسُرَاقَ قم فالبس ، قال سراقة : فطمعت فيه ، فقمت فلبست فقـال : أدبر فأدبرت ، ثم قـال : أقبل فـأقبلت ، ثم قـال بخ بخ ، أعيـرابي من بني مدلج عليـه قباء كـسرى وسراويله وسـيفه ومنطقـته وتاجه وخفاه ، رب يوم ياسراق بن مـالك لو كان عليك فيه هذا من متـاع كسرى وآل كسـرى كان شرفًـا لك ولقومك، انزع ، فنزعت ، فقـال : اللهم إنك منعت هذا رسولك ونبـيك وكان أحب إليك مني وأكـرم عليك مني ، ومنعـته أبا بكر وكـان أحب إليك مني وأكـرم عليك مني ، وأعطيتنيه فأعـوذ بك أن تكون أعطيتنيه لتمكر بي ، ثم بكى حتـى رحمه من كـان عنده ، ثم قال لعـبد الرحـمن بن عوف : أقسمت عليك لما بِعْته ثم قسمته قبل أن تمسي [1] .

وهكذا جسَّم عـمر رضي الله عنه مظاهر الدنيا الخلابـة الخداعة ، حينما ألبس سراقة متاع كسرى ، وكأنه يقول : انظروا إلى قمة مظاهر الدنيا التي بُذلت فيها آلاف الدنانير ، ثم ما الذي أغنته عن صاحبها؟ فها هو في حياته الدنيا يُطرد من كل بلد ، ويعيش في رعب وخوف ، ثم هو في الآخرة من أصحاب الجـحيم ، فهل جلبت له هذه المظاهر السعادة في الدنيا والآخرة ؟ وهل دفعت عنه ما يكره في الدارين ؟

الواقع أنها تهـاوت كما تتهـاوى الخرائب ، وسقط معـها كل من انخدع بها .

ثم يشير عمر رضي الله عنه بقوله « رب يوم ياسراق بن مالك لو كـان عليك فيـه هذا من متـاع كـسرى وآل كـسرى كـان شرفـا لك

---

(١) البداية والنهاية ٧/ ٦٨ .

ولقومك». . يشير إلى أن العرب في جاهليتهم ليسوا أحسن حالا من غيرهم في الاغترار بمظاهر الدنيا ، فقد كانوا يعظمون أهل هذه المظاهر ، فلو غنم هذه المغانم أهل الجاهلية ولبسوها لاعتبروا ذلك شرفا لهم ، أما وقد غنمها المسلمون فإنهم لن يستحلوا لبسها ، ولن يروها شيئًا يذكر، لأن الله سبحانه أعزهم بالإسلام فلا عزة لهم بغيره.

وبعد أن تم ما أراده عمر من تحقير مظاهر الدنيا مرت عليه لحظات من محاسبة النفس غلب عليه فيها جانب الخوف من الله عز وجل، فقارن بين حياته وحياة خليليه السابقين رسول الله ﷺ وخليفته أبي بكر رضي الله عنه ، فرأى أنهما قد سلما من رؤية هذه المظاهر فخشي أن يكون قد ابتلي بها استدراجًا ، فسَحَتْ عيناه بدموع هملت من سحب الخشية ، وتحدَّرت من منابع الحزن ، حتى أشفق عليه أصحابه مما يرونه يعاني من الحزن المضني والتأثر العميق ، وماذاك إلا لقوة معرفته بالله تعالى ، ومن كان بالله أعرف كان من الله أخوف.

وهكذا فُتحت مدينة « المدائن » عاصمة دولة الفرس التي كانت تملك أكثر من نصف الأرض الشرقي .

فيا تُرى لو كان الفاتحون من غير المسلمين هل يتركون تلك المدينة وقصرها الأبيض المشهور وإيوان كسرى ؟!

إن البدهي في منطق العقول المعتادة أن ينتقل حاكم المسلمين وأميرهم من المدينة المنورة ذات المباني الطينية والخشونة في العيش ليعيش في قصور الأكاسرة ، وليجعل من حاضرة ملكهم التي تم بناؤها بجهود ضخمة عاصمة لدولة الإسلام .

وإذا لم يتم ذلك فـلا أقل من أن يتـربع على عـرش تلك المدينة والي العراق والمشرق .

ولكن أمير المؤمنين عمـر رضي الله عنه لم يفعل ذلك،ولم يفعله أيضاوالي العـراق سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه . . ذلك لأنـهما من قوم زكى الله تعـالى قلوبهم وطهر سرائـرهـم ،فطمحت أنظارهم وأفكارهم نحو قـصور الجنة ونعـيمها الـدائم . . فرأوا أن أيَّ تنعم في الدنيا ينقص من رفعة درجاتهم في الجنة .

* * *

مواقف وعبر
فى
فتـــوح المشـــرق

١ – موقعة جلولاء –

ذكر الإمـام محـمد بن جـرير الطبري عـدة روايات عن موقـعة جلولاء من طريق سيف بن عمر عن شيوخـه وخلاصتها أن الأعاجم لما هُزموا مـرات عديدة في المعـارك التي خاضـوها مع المسلمين والتي كان آخرها معركـة القادسية وفتح المدائن،اجتمعـوا على مفترق الطرق إلى مدائنهم في جلولاء فتذامروا وقالوا :إن افـترقتم لـم تجتمعوا أبدًا، وهذا مكان يفرق بيننا فهلموا فلنجتـمع للعرب به ولنقاتلهم فإذا كانت لنا فهو الذي نريد وإن كانت الأخـرى كنا قد قضينا الذي علينا وأبلينا عذرا ، واجـتمعوا عـلى قيادة مهـران الرازي ،وحفروا خندقًـا حول مـدينتهم ،وأحـاطوا به الحـسك من الخشب إلا الـطرق التي يعبـرون منها.

وقد كـتب سعـد بن أبي وقاص إلى أمـير المؤمنين عـمر يخـبره بذلك، فكتب إلى سعد يأمر ببـعث هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى جلولاء في اثني عشر ألفا ، وأن يجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو التميمي وعلى ميمنته مسعر بن مالك ، وعلي ميسرته عمرو بن مالك ابن عتبة وعلى ساقته عمرو بن مرة الجهني .

وسار إليهم هاشم بجيشـه فحاصرهم وطاولهم أهل فارس فكانوا لايخرجون لهم إلا إذا أرادوا ، وزاحفهم المسلمون ثمانين زحفا ، كل ذلك يعطي الله المسلمين عليهم الظفر ، وغلـبوا المشركين على حسك الخشب التي اتخذوها لإعاقة المسلمين فاتخذ الأعداء حسك الحديد .

وجـعل هاشم يقـوم في الناس ويـقول : إن هـذا المنزل منزل له

مابعده وجعل سعد يمده بالفرسان ، حتى إذا طال الأمر وضاق الأعداء من صبر المسلمين اهتموا بهم فخرجوا لقتالهم ، فقام هاشم في الناس فقال: أبلوا الله بلاء حسنا يتم لكم عليه الأجر والمغنم واعملوا لله ، فالتقوا فاقتتلوا، وبعث الله عليهم ريحًا أظلمت عليهم البلاد فلم يستطيعوا إلا المحاجزة ، فتهافت فرسانهم في الخندق فلم يجدوا بدًّا من أن يردموا الخندق مما يليهم لتصعد منه خيلهم فأفسدوا حصنهم .

أقول : وهذا مثل من أمثلة كثيرة يقيض الله فيها أسبابًا ترجِّح كفة المسلمين مما يدل على قرب الله تعالى من أوليائه وإمدادهم بالنصر والتأييد كلما ادلهمَّت بهم الخطوب وتوالت عليهم المحن .

فالمسلم مأمور بأن يستمر في العمل بالأسباب المشروعة التي سخرها الله سبحانه له وجعلها مجالاً لجريان أقداره على ما يشاء ويقدر جل وعلا، مع شعوره الدائم بمعية الله له بالعلم والنصر والتأييد وظهور آثار عبوديته لربه جل وعلا بالخضوع له والدعاء والعبادة .

جاء في الرواية المذكورة « فلما بلغ المسلمين ما قام به الأعداء من ردم الخندق قالوا : أننهض إليهم ثانية فندخله عليهم أو نموت دونه ؟ فلما نهض المسلمون لقتالهم خرجوا فرَموا حول الخندق مما يلي المسلمين بحسك الحديد لكيلا تقدم عليهم الخيل وتركوا مكانا يخرجون منه على المسلمين فاقتتلوا قتالاً شديدًا لم يقتتلوا مثله إلا ليلة الهرير وهي من ليالي القادسية إلا أنه كان أقصر وأعجل » .

وهذا مثل من حزم المسلمين آنذاك واهتبالهم الفرص المناسبة

للنكاية بالأعداء بالرغم مما أصاب المسلمين من الإنهاك المتواصل، وبذل مافي الوسع من الطاقة والقوة ، وهو دليل على قوتهم في المصابرة على القتال المستمر ، وقد نجحوا أكثر من مرة بسبب ذلك في الظفر على الأعداء ،وكانت اللحظات الحاسمة تأتي بتفوق المسلمين في المصابرة بعد ملاحظة قوة أملهم بالله تعالى .

قال : « وانتهى القعقاع بن عمرو في الوجه الذي زاحف فيه إلى باب خندقهم فأخذ به وأمر مناديًا فنادى : يامعشر المسلمين هذا أميركم قد دخل خندق القوم وأخذ به فأقبلوا إليه ولايمنعنّكم مَنْ بينكم وبينه من دخوله- وإنما أمر بذلك ليقَوِّي المسلمين به - فحمل المسلمون ولا يشكُّون في أن هاشمًا فيه فلم يقم لحملتهم شيء حتى انتهوا إلى باب الخندق فإذا هم بالقعقاع بن عمرو وقد أخذ به و أخذ المشركون في هزيمة يمنةً ويسرةً عن المجال الذي بحيال خندقهم ، فهلكوا فيما أعدوا للمسلمين فعُقرت دوابهم [يعني بسبب حسك الحديد التي أعدوها للمسلمين] وعادوا رجّالة ، وأتبعهم المسلمون فلم يفلت منهم إلا من لايُعَدّ ، وقتل الله منهم يومئذ مائة ألف ، فجَلَّلت القتلى المجال ومابين يديه وماخلفه ، فسميت جلولاء بما جللها من قتلاهم ، فهو جلولاء الوقيعة » .

وهكذا تمت اللحظات الحاسمة في هذه المعركة على يدي القعقاع ابن عمرو كما تمت بذلك معركة القادسية وغيرها ، فلله دره من بطل دوَّخ أعداء الإسلام بشجاعته النادرة ومصابرته المضنية وتخطيطه الحربي المدهش ، وذلك يدل على قوة إيمانه بالله تعالى وعظيم ثقته بنصره وتأييده .

ومن عجائب هذه المعركة أن المسلـمين تفوقوا على أعدائهم وكان النصـر حليـفهم في جـمـيع اللقاءات بـينهم ، حتى كـانت النهـاية لصالحهم، مع أن الأعداء يفوقونهم كثيرا في الاستعداد الحربي ، فقد حفروا خندقًـا عميقًا حـول مدينتهم لايمكن اجتيـازه ، فضمنوا بذلك حصنًا منيـعًا يحـميهم، ثم وضـعوا عوائق مـن الخشب تَصُدُّ خـيول المسلمين عن التقـدم، ولما غلبهم المسلمون على هذه العـوائق فأبطلوا مفعـولها وضع لهم الأعداء حسك الحديد دونهـا، واستطاع المسلمون بتوفيق الله تـعالى ، ثم بمهارتهم في التخطيط الحـربي أن يتفادوا قطَع الحديد تلك ، وركزوا هجومهم على المجال الخالي الذي تركه الأعداء لهم ليخرجوا منه إلى المسلمين ، كما مر في صنيع القعقاع بن عمرو.

ولما كان الأعـداء قد خـرجوا في ذلك اليوم الذي حُـسمت فـيه المعركة لقتال المسلمين فإن القعـقاع بن عمرو ومن معه من الأبطال قد غلبـوا على المجال الذي يسـتطيـعون أن يعـبـروا منه إلى مدينتـهم ، واضطروهم بالضـغط الـشديد إلـى أن يذهبـوا يمنة ويسـرة عن ذلك المجال، فتورطوا بحسك الحديد التي أعدوها لخيول المسلمين ، فوقعت بها خيـولهم ، واضطروا إلى ترك الخيول وأن يقاتلوا مشـاة على غير نظام ، وإذا كان الأعداء لم يثبتوا للمسلمين وهم على خيولهم في كل الحروب التي خاضـوها معهم فكيف يثبتـون لهم وهم مشاة ؟ ولذلك كانت تلك نهـايتهم ، وعاد عـليهم سلاحـهم الذي وضعوه لتـعويق المسلمين فتورطوا به، وكسب المسلمون المعركة .

هذا وقد ذكـر الطبري أن سعد بن أبي وقـاص بعث زياد بن أبيه

بالحسابات المالية إلى أمـير المؤمنين ، وكان زياد هو الذي يكتب للناس ويدوِّنهم فلما قدم على عمر كلمه فيما جاء له ووصف له فقال عمر : هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل الذي كلمـتني به ؟ فقال والله ما على الأرض شـخص أهيب في صدري منك ، فكيف لا أقـوى على هذا من غيرك! فـقام في الناس بما أصابوا وبما صنعـوا، وبما يستأذنون فيه من الانسياح في البلاد ، فقال عمر : هذا الخطيب المصقع ، فقال زياد : إن جندنا أطلقوا بالفَعال لساننا[1] .

وقول زياد لعمر « والله ما على الأرض شخص أهيب في صدري منك » لايريد زياد هيبـة الضعفـاء المغلوبين على أمرهم من الجـبارين الطغاة، ولكنها هيبة الأقوياء الأحرار من العظماء الذي وقرت محبتهم المشوبة بالإجلال والإكبار في نفوس المؤمنين .

وهو شاهد حي على ما يَمُنُّ الله به على أقوياء الإيمان من تسخير القلوب لهم وملئـها بالهيـبة منهم ، فكلما عظم اللـه تعالى في قلب المؤمن عظمت مكانته بين الناس ، وإذا كان حاكـما فإنه لايحتاج إلى كثيـر من البشر لحماية أَمْنه وأَمْن دولتـه ، لأنه قد أمن جانب المؤمنين الذين يَعتبرون طاعته طاعة لله تعالى وإكرامه إجلالا له جل وعلا كما جـاء في قول رسـول الله ﷺ « إن من إجـلال الله تعالى إكـرام ذي الشيبة المسلم وحامل القرآن غـير الغالي فيه ولا الجافي عنه وإكرام ذي السلطان المقسط » أخرجه الإمام أبـو داود بـإسـناد حسن [2].

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٤-٢٩ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب / ٢٠ .

وهكذا انتهت معركة جلولاء بانتصار المسلمين ، وقد غنموا فيها مغانم عظيمة أرسلوا بأخماسها إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فقال حين رآه : والله لايُجِنُّه سقف بيت حتى أقسمه فبات عبدالرحمن بن عوف وعبد الله بن أرقم يحرسانه في صحن المسجد ، فلما أصبح جاء في الناس فكشف عنه جلابيبه - وهي الأنطاع - فلما نظر إلى ياقوته وزبرجده وجوهره بكى ، فقال له عبد الرحمن : مايبكيك يا أمير المؤمنين فو الله إن هذا لموطن شكر ! فقال عمر : والله ماذاك يبكيني، والله ما أعطَى الله هذا قومًا إلا تحاسدوا وتباغضوا ، ولاتحاسدوا إلا أُلقِيَ بأسهم بينهم[1] .

وهكذا فزع عمر رضي الله عنه حينما رأى كثرة ذلك المال وخشي من مسئوليته فأقسم أن لايستره سقف بيت حتى يقسمه ، ثم بكى لما رأى تنوع مظاهر الدنيا في ذلك المال ، وخشى على الأمة الإسلامية من حياة الترف وماينتج عنها من تباغض وتحاسد ، ومايعقب ذلك من شقاق وعداء.

وهذا لون من حساسية الإيمان المرهفة ، حيث يدرك المؤمن الراسخ من نتائج الأمور المستقبلية ما لايخطر على بال غيره ، فيحمله الإشفاق على المؤمنين من أن يكدر صفو علاقاتهم الإيمانية شائبة من شوائب الدنيا التي تباعد بين القلوب . . يحمله ذلك على التأثر العميق الذي يصل إلى تحدر دموعه أمام الناس .

وإنه لعجيب أن تهطل الدموع من عيني رجل بلغ من القوة حدًا

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٣٠ .

يخشـاه أهل الأرض قاطبـة مسلمـهم وكافرهـم ومنافقهم ، ولـكنها الرحمة التي حلَّى بها الله جل وعلا قلوب المؤمنين . فأصبحـوا كما وصفهم الله سبحانه بقوله ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [**الفتح** : ٢٩]

وإن أغزر الأنهار مياهًا لتنحدر من شواهق الجبال الرواسي .

* * *

٢ - غزوة فارس من جهة البحرين -

أخرج الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن شيوخه أن أمير المؤمنين عـمر رضي الله عنه أقر الـعلاء بن الحضـرمي رضي الله عنه على إمرة البحـرين ، وكان قد فتـحها وقضى على المرتدين فـيها في عهد أبي بكر رضي الله عنه ، ونهاه عمر عن غزو فارس من البحر ، خوفًا من تعريض المسلمين للهلاك والحصر من الأعداء ، ولكن العلاء خالف أمر عمر ، فندب أهل البحرين لغزوة فارس من البحر وفرقهم أجنادًا ، على أحـدها الجـارود بن المُعَلَّى ، وعلى الآخـر السـوّار بن همّام وعلى الآخـر خُلَيد بن المنذر بن سـاوى ، وخليد على جمـاعة الناس ، فعـبرت تلك الجنود من البحـرين إلى فارس ، فخـرجوا في "اصطخـر" ، وبإزائهم أهل فـارس ، وعلى أهل فارس « الهـربذ » اجتمعوا عليه [١] ، فحـالوا بين المسلمين وسفـنهم ، فقام خلـيد في الناس فقـال : أما بعد فإن الله إذا قـضى أمرًا جرت به المقـادير حتى تصيـبه ، وإن هؤلاء القـوم لم يزيدوا بما صنعوا علـى أن دعوكم إلى حربهم ، وإنما جئتم لمحاربتهم والسفن والأرض لمن غلب ، فاستعينوا بالصبر والصـلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشـعين ، فأجابوه إلى ذلك فصـلوا الظهر ، ثم ناهدوهم فـاقتـتلوا قتـالاً شديدًا في مـوضع من الأرض يُدْعَى « طاوس» فَقُتل أهل فارس مقتلة لم يقتلوا مثلها قبلها .

ثم خرج المسلمون يريدون البصرة وقـد غرقت سفنهم فلم يجدوا إلى الرجوع في البحر سبيلا ، ثم وجدوا « شهرك » أحد قادة الفرس

---

(١) يعني على توليته القيادة .

قد أخذ على المسلمين الطرق ، فعسكروا وامتنعوا في مكان حصرهم .

ولما بلغ عمر الذي صنع العلاء من بعثه ذلك الجيش في البحر أُلقي في رُوعه نَحْوٌ من الذي كان ، فاشتد غضبه على العلاء ، وكتب إليه يعزله وتوعده ، وقال : الحق بسعد بن أبي وقاص فيمن قِبَلك ، فخرج بمن معه نحو سعد .

وكتب عمر إلى عتبة بن غزوان : إن العلاء بن الحضرمي حمل جندًا من المسلمين فأقطعهم أهل فارس وعصاني ، وأظنه لم يرد الله بذلك فخشيت عليهم إنْ لاينصروا أن يغلبوا وينشَبوا ، فاندب إليهم الناس واضممهم إليك من قبل أن يُجتاحوا .

فندب عتبة الناس وأخبرهم بكتاب عمر ، فانتدب اثنا عشر ألفا بقيادة أبي سبرة بن أبي رهم أحد بني مالك بن حسل بن عامر بن لُؤَيّ، ومعه عدد من الوجهاء والشجعان ، فسار بالناس من طريق الساحل ولم يعرض له أحد ، حتى التقوا بخليد وأصحابه عقب معركتهم مع الأعداء وقد أُخِذَتْ عليهم الطرق .

وكان أهل اصطخر قد استصرخوا عليهم أهل فارس كلهم لما حصروهم فضربوا إليهم من كل أنحاء فارس ، فوافت أمداد فارس وقد وصل مدد المسلمين ، فالتقوا مع عدوهم فاقتتلوا ففتح الله على المسلمين وقَتَل المشركين وأصاب المسلمون منهم من شاؤوا ، ثم عادوا جميعًا إلى البصرة وكان عتبة أوصاهم بعدم الإقامة (١) .

ومن عرض هذا الخبر تبين أن الذي كان يخشاه عمر رضي الله

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٧٩ - ٨٢ .

عنه على المسلمين من الغـزو من البحـر قد حدث ، حـيث لم يصل المسلمون في فتوحهم من جهـة البر إلى ذلك المكان ، فانحصر الغزاة المسلمـون في بلاد عدوهم وسـدوا عليهم الطرق المؤدية إلى اخـوانهم المسلمين في العراق، وبدؤوا يخطِّطون للقضاء عليهم ، فندبوا لهم من جيـوش فارس مالا قبل لـهم به ، لولا أن قيض الله تعالى لهم أمـير المؤمنين عمر فأدرك بإحساسـه المرهف ويقظته الدائمة - بَعْد إلهام الله إياه - ماسيـؤول إليه أمر ذلك الجيش المحصـور ، فندب أهل البصرة لإنقاذه ، فكانت رحمة الله بهم، حيث تم إنقاذهم وهزيمة عدوهم .

هذا وإننا حـينما نتذكـر أسبـاب النصر الحـقيقـية التي بينـها الله سبـحانه ورسوله ﷺ نجد أن سـببًا من أهم تلك الأسبـاب قد تخلف حينما عزم العلاء على الغزو من البحر ، ذلكم هو طاعة القائد ، وقد كان أمير المؤمنين عمر هو القائد الأعلى للجهاد آنذاك ، وكان قد نهى ابن الحـضرمي عن الغـزو من البحـر ، فلم يلتزم بذلك وأقـدم على ماأقدم عليه، فكانت النتـيجة مصيبة كـبرى على المسلمين لولا ماقدره الله تعالى من عملية الإنقاذ المذكورة .

هذا إضافة إلى ما نتج عن ذلك من عزل العلاء بن الحضرمي عن البحرين وتعرضه لغضب أمير المؤمنين ووعيده .

ولم يشفع للعـلاء أنه هو الذي قضى على المرتدين في البـحرين وأنه أميـرها الذي استـقرت به أمـورها . ولا أنه صاحب الـكرامات المشهورة، فهو الذي بدعائه والصالحين معه نبع الماء من الرمال ، وهو الذي بدعائه والصالحين معه سار بجـيشه على البحر بدون مراكب . .

كل ذلك لم يشفع له ، لأن منهج عـمر رضي الله عنه - وهو المنهج الإسلامي- أن المحسن يكافأ على إحسانه ويحاسب على إساءته ، فإذا أحســن المسئـول كان مـوضع التقـدير والثناء ، وإذا أخطأ فلا يـجوز السكوت على خطئـه مـجاملة له ، لأن ذلك قـد يجـرِّئه على تكرار الخطأ ، وقد يجريء غيره على ارتكاب مثل ذلك .

ومن موقف عمر هذا يتبين لنا أن الكرامـات لم يكن لها كبير أثر في حياة الصـحابة رضي الله عنهم ، وأنه لم يكن يتم بموجبهـا تقييم الرجال ، وإنما كانوا يقيَّـمون بأعمالهم الصالحة ، وكـانوا يفهمون أن تلك الكرامـات إنما هي مدد من الله تعـالى لأوليائه عند احـتيـاجهم لذلك، أو سبب من الأسباب الـظاهرة لانتصار الإسلام ، ولاشك أن من جرت على يديه يوصف بالصلاح ، ولكن المعـول عليه في تقدير كفاءته والثقة به وإسناد المهمات إليه هو مايقدم من عمل صالح .

هذا وينبغي أن نشير إلى موقـف من مواقف الزهد في الجاه، فقد جاء في الخبر المذكور أن عتبة بن غزوان لما أحرز الأهواز وأوطأ فارس اســتأذن أمـير المؤمنـين عمـر في الحج فأذن له ، فـلما قـضى حجـه استعفاه، فأبى أن يعفيـه وعزم عليه ليرجعنَّ إلى عمله ، فدعا الله ثم انصرف ، فـمات في بطن نـخلة ، فدفن ، وبلغ عـمرَ فمـرَّ به زائرًا لقبره وقال : أنا قتلتك لولا أنه أجل معلوم وكتاب مرقوم، وأثنى عليه بفضله [1] .

هذا وإن الزهد في الجاه دليل على أن الزاهد فـيه يفكر في هدف

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٨٢ .

هو أعلى من المتعة بحصوله ، ويخشى أن يؤثر طلبه على ذلك الهدف الأعلى، وإنما هذا الهدف الأعلى هو الرفعة في الحياة الآخرة ، ولكن إذا كان الإنسان مطمئنًا من كفاءته في العمل ومقدرته على الحفاظ على رضوان الله تعالى وإن غضب عليه الناس ، فإنه بعمله في خدمة المسلمين يقدم لنفسه عملا صالحًا يرفع ذكره ومنزلته يوم القيامة ، فالمؤمن الحق هو الذي يجعل رضوان الله تعالى والدار الآخرة نصب عينيه دائمًا، ثم يوازن بين بقائه في العمل أو طلب الإعفاء منه من منطلق الحصول على القدر الأعلى من هذا الهدف السامي .

* * *

٣ – فتح رامهرمز

كان الفـرس قد بدؤوا بالتجـمع مرة أخرى بتـحريض من ملكهم يَزْدجرد ، فاجتمعوا في رامهرمز بقيادة الهرمزان .

وقد كان سعد بن أبي وقاص أخبر أمـير المؤمنين بخبر اجتماعهم فأمره بأن يجهز إليهم جيشًا من أهل الكوفة بقيادة النعمان بن مقرن ، وأمر أبا موسى الأشعـري بأن يجهز جيشًا من البصـرة بقيادة سهل بن عدي، وإذا اجتـمع الجيشان فعليـهم جميعًـا أبو سبرة بن أبي رهم ، وكل من أتاه فهو مدد له .

وخـرج النعـمـان بن مـقـرن في أهل الكوفـة ، ثم سـار نحـو "الهرمزان" – والهرمـزان يومئذ برامهرمز – ولما سمع الهـرمزان بمسير النعمـان إليه بادره الشَّدَّة ورجا أن يقـتطعه ، وقد طمع الهـرمزان في نصر أهل فارس ، وقد أقبلوا نحـوه ، ونزلت أوائل أمدادهم بتستر ، فالتقى النعـمان والهرمزان بأربُك ، فاقتتلوا قـتالاً شديدًا ، ثم إن الله عز وجل هزم الهرمزان للنعمان ، وأخلى رامهرمز ولحق بتستر .

أما سهل بن عدي فإنه سار بأهل البـصرة يريد رامهرمز ، فأتتهم المعـركة وهم بسـوق الأهواز ، وأتاهم الخـبر بأن الهـرمزان قـد لحق بتستر، فمالوا إلى تستر ، ومال إليها النعمان بأهل الكوفة [١] .

* * *

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٨٣ – ٨٤ .

٤ - فتح تَستَر -

وصل جيش النعمان بن مقرن وجيش سهل بن عدي إلى تستر، واجتمعا تحت قيادة أبي سبْرة بن أبي رُهْم ، وقد استمد أبو سبرة أمير المؤمنين فأمدهم بأبي موسى الأشعري فأصبح قائد جيش البصرة ، وظل أبو سبرة قائد الجيش كله .

وقد بقي المسلمون في حصار تستر عدة شهور قابلوا فيها جيش الأعداء في ثمانين معركة .

وظهرت بطولة الأبطال بالمبارزة فاشتهر منهم عدد بقتل مائة مبارز سوى من قتلوا في أثناء المعارك ، وقد ذُكر منهم : البراء بن مالك ومجزأة بن ثور وكعب بن سور وأبو تميمة وهم من أهل البصرة ، وفي الكوفيين مثل ذلك ذُكر منهم حبيب بن قرة ورِبْعي بن عامر ، وعامر بن عبد الله الأسود .

هذا وإن إقدام الأعداء على الدفع بهذا العدد الكبير من المبارزين دليل واضح على استماتتهم في تلك المعارك واعتبارها مُقرِّرَة لمصير دولتهم ، ولكنهم قابلوا بحماسهم وتفانيهم جبالاً راسيات تتحطم أمامها جميع التيارات الجارفة .

وإنه لشرف عظيم ينصرُ به هؤلاء الأبطال دينهم ، ويتوجون به أمتهم، ويرهبون به أعداءهم .

لقد حاول الأعداء بهذه السلسلة من المبارزات أن يستعيدوا شيئًا من معنويتهم المحطمة وكرامتهم التي مُرِّغت في التراب ، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل أمام قوة المسلمين العظيمة ومعنويتهم العالية .

وإن استمرار هؤلاء الأبطال في المبارزة مع انتصاراتهم المتكررة دليل على أنهم لم يكونوا يقاتلون ولايغامرون من أجل الدنيا ، فإن شرف الدنيا يكفي في نيله قليل من هذه التضحيات ، ثم يُبقي طالب ذلك على نفسه ليتمتع بذلك الشرف ، أما أن يستمر في المغامرات والتضحيات فإنه إنما يريد شرف الآخرة ، لأنه كلما ازداد إقدامًا وبذلا تضاعف حصوله على ذلك الشرف .

فلما كان آخر لقاء بين المسلمين وأعدائهم ، واشتد القتال نادى المسلمون البراء بن مالك وقالوا : يابراء ، أقْسم على ربك ليهزمنَّهم لنا، فقال : اللهم اهزمهم لنا ، واستَشْهدْني .

ونقف قليلا مع هذا البطل المغوار ، المتواري عن الأنظار ، ونرجع قليلا إلى الوراء حيث علَّق النبي ﷺ على صدره وسامًا عظيمًا من أوسمة الشرف وذلك بقوله « كَمْ من أشعث أغبر ذي طِمْرين لايُؤْبَه له ، لو أقسم على الله لأبرَّه ، منهم البراء بن مالك » أخرجه الإمام الترمذي وحسنه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه [1] .

وقد كان البراء مستجاب الدعوة ، وعرف الناس عنه ذلك بموجب هذا الحديث ولذلك طلبوا منه في هذه المعركة أن يدعو الله ليهزم عدوهم .

ومع هذا الثناء العظيم من رسول الله ﷺ على البراء فإنه لم يَبْطَر ولم يتكبر ، بل ظل الرجل المتواضع الذي يقتحم الأهوال ، ويأتي بأعظم النتائج ، من غير أن تكون له إمرة أو قيادة .

---

(١) سنن الترمذي ، كتاب المناقب ١٠/٣٥٦ .

وإذا كـان قد سـأل الله تعـالى النصـر للمـسلمين وهو عِـزٌّ لهم وللإسلام فإنه لم يُغفل نفســه أن يسأل الله تعالى أغلى مايتمناه المؤمن القوي الإيمان، حيث سأل الله تعالى الشهادة .

وقد استجاب الله تعالى دعاءه فهزم الأعداء ، ورزقه الشهادة في ذلك اليوم .

وإنه لموطن كريم يتجلى فيه قرب الله جل وعلا من أوليائه المتقين حيث يجـيب سؤلهم ، ويحقق لهم أمـانيهم العُليـا ، لأنه اصطفاهم فمنحهم القوة العالية التي بهـا خدموا دينه وأقاموا دولته في الأرض ، حتى إذا أحبوا لقاءه مَنَّ عليهم بأشرف نهاية ليصلوا إلى أسعد غاية .

جـاء في الرواية المـذكـورة أن المسلمين هزمـوا أعـداءهم حـتى أدخلوهم خنادقهم ثم اقتحموها عليهم وأنه لما ضاق الأمر على الفرس واشتد عليهم الحصار اتصل اثنان منهم فـي جهتين مختلفتين بالمسلمين وأخبراهم بأن فتح المدينة يكون من مخرج الماء ، وقد وصل الخبر إلى النعمان بن مقرن، فندب أصحابه إلى ذلك المكان ، ووصل الخبر إلى أبي موسى الأشعري فندب أصحـابه كذلك ، فالتقى الأبطال من أهل الكوفة والبصرة في ذلك المكان ليلا ، ودخلوا منه سباحة إلى المدينة ، فكبَّروا وكبر من وقفوا في الخارج ، وفتحوا الأبواب فأبادوا من حولها بعد شيء من المقاومة (١) .

لقد انتدب الأبطال لمغامرة الدخـول من مخرج الماء وهم يتسابقون إلى الموت ، فإما الظفر وإما الشهادة .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٨٤ - ٨٥ .

وإن دخول هؤلاء الأبطال وهم يسبحون في الماء يعرضهم لنار العدو، ولكنهم قوم ألفوا حياة الأهوال ، وأصبحت الشهادة أمنية غالية لهم ، فهم يتعرضون لمواطنها .

والظاهر أن الأعداء لم يتوقعوا من المسلمين الجرأة على اقتحام مدينتهم من ذلك المدخل الخطير ، لأن الإقدام على ذلك أشبه بالانتحار، فكان دخول المسلمين منه مفاجأة مذهلة لهم أطارت صوابهم ومزقتهم شر ممزق .

ولقد كان في هذه المغامرة العظيمة نهاية بطلين من أعظم أبطال المسلمين، وهما البراء بن مالك ومجزأة بن ثور حيث رماهما الهرمزان، ولكن هذه النهاية جاءت بعد انتصار المسلمين ، وبعد أن قدَّم كل و احد منهما سجلاً حافلاً من التضحيات والنكاية بالأعداء ، حيث قَتل كل واحد منهما في تلك الأيام مائة من الأعداء مبارزة مع من قتلا أثناء الالتحام كما سبق .

وهكذا قدم أولئك الأبطال تضحيات ضخمة في تلك المعارك التي استمرت عدة شهور ، وقدموا في غيرها الكثير ، وأصبح المسلمون يتفيئون ظلالها ويعيشون ثمراتها قرونا عديدة ، وهم ملوك الدنيا وقادة الأمم .

وإن هذا المُلك العريض الضخم الذي لم يتكون إلا بالتضحيات والدماء ، لايجوز أبدا أن يفرِّط فيه الوارثون ، فيَضعُفوا عن حمايته، ويستسلموا لأعدائهم الذين يتربصون بهم الدوائر .

أما هرمزان قائد الفرس فإنه لجأ إلى القلعة ، وأطاف به المسلمون

الذين دخلوا من مـخرج الماء ، فلما عـاينوه وأقبلوا قـبَله قال لهم : ماشـئتم، قد ترون ضـيق ما أنا فـيه وأنتم ، ومعي في جُـعبـتي مائة نُشَّابه، ووالله مـاتصلون إليَّ مادام مـعي نشابة ، ومـايقع لي سهم ، وماخير إساري إذا أصبت منكم مائة بين قتيل وجريح ! قالوا : فتريد مـاذا؟ قـال: أن أضع يدي فـي أيديكم على حكم عـمـر يصنع بي ماشاء، قالوا : فلك ذلك ، فرمى بقوسه وأمكنهم من نفسه .

خبر أمير المؤمنين عمر مع الهرمزان :

وأوفد أبو سَبرة بن أبي رُهم قـائد المسلمين في تلك المعارك وفدًا إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، وأرسل معهم الهرمزان ، حتى إذا دخلوا المدينة هيـئوا الهرمـزان في هيئـته ، فألبـسوه كـسوته من الديباج الذي فـيه الذهب ، ووضـعوا على رأسه تـاجًا يُدعَى الآذين مكَلَّلاً بالياقوت وعليه حليته ، كيـما يراه عمر والمسلمون في هيئته ، ثم خرجوا به على الناس يريدون عمـر في منزله فلم يجدوه ، فسألوا عنه فقـيل لهم : جلس في المسجـد لوَفْد قـدموا عليـه من الكوفة ، فانطلقوا يطلبونه في المسجد، فـلم يروه ، فلما انصرفوا مَرُّوا بغلمان من أهل المدينة يلعبون، فقالوا لهـم: ماتلدَّدكم ؟ [يعني لماذا تلتفتون يمينًا وشمالا] ؟ أتريدون أمـير المؤمنين؟ فإنه نائم في ميـمنة المسجد ، متوسدًا برنسه - وكان عمر قد جلس لوفد أهل الكوفة في برنس فلما فرغ من كـلامهم وارتفـعوا عنه وأخلوه نزع برنسه ثـم توسده فنام - فانطلقوا ومـعهم النظارة حتى إذا رأوه جلسوا دونه ولـيس في المسجد نائم ولايقظان غيره ، والدِّرة في يده معلقة .

فقـال الهرمـزان : أين عمـر ؟ فقـالوا : هُوَ ذَا ، وجعل الـوفد

يشـيرون إلى الناس أن اسـكتوا عنه ، وأصـغى الهـرمزان إلى الوفـد فقال: أين حرسه وحُـجَّابه عنه ؟ قالوا : ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب ولا ديوان، قـال: فينبغي لـه أن يكون نبيا ، فـقالوا : بل يعمل عمل الأنبياء ، وكثر الناس فاستيقظ عمر بالجلبة فاستوى جالسًا ثم نظر إلى الهرمزان، فقال: الهـرمزان ؟ قالوا : نعم ، فتأمله وتأمل ماعليه وقال : أعوذ بالله من النار، واسـتعين الله، وقال : الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأشياعه، يامعشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين، و اهتدوا بهدي نبيكم ﷺ ، ولاتُبطرنكم الدنيا فإنها غرارة .

فقال الوفد : هذا ملك الأهواز فكلِّمه ، فقال: لا ، حتى لايبقى عليـه من حليتـه شيء فرُمي عنه بكل شيء عليـه إلا شيـئًا يسـتره، وألبسوه ثوبا صفـيقا ، فقال عمر : هيـه ياهرمزان ! كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله ؟ فقـال : ياعمر إنا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلَّى بيننا وبينكم ، فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولامعكم ، فلما كان معكم غلبتمـونا ، فقال عمر : إنما غلبتمونا في الجاهلـية باجتماعكم وتفرقنا، ثم قـال عمر : ماعذرك ومـاحجتك في انتقـاضك مرة بعد مرة؟ فقال: أخاف أن تقـتلني قبل أن أخبرك ، قال: لاتخف ذلك ، واستـسقى ماء، فأُتـيَ به في قدح غليظ ، فقـال : لو متُّ عطشا لم أستطع أن أشرب في مثل هذا، فأُتي به في إناء يرضاه ، فجعلت يده ترجف، وقال : إني أخاف أن أُقتل وأنا أشرب الماء ، فقال عمر : لا بأس عليك حتى تشربه ، فأكفأه فقال عـمر : أعيدوا عليه ولاتجمعوا عليـه القتل والعطش ، فـقال : لاحاجـة لي في الماء ، إنما أردت أن أستأمـن به ، فقال له عمـر : إني قاتلك، قال: قد آمنتني، فـقال :

كـذبت ، فقـال أنس : صدق يا أمـير المؤمنين ، قـد آمنته، قـال : ويحك يا أنس أنا أؤمِّن قـاتل مَجْـزأة والبـراء ، والله لتأتينَّ بمخـرج أولأعاقبنك ، قال : قلتَ له : لابأس عليك حتى تخبرني ، وقلتَ: لا بأس عليك حـتى تشربه ، وقال له من حـوله مثل ذلك ، فـأقبل على الهرمزان وقال : خدعتني ، والله لا أنخدع إلا لمسلم ، فأسلم، ففرض له على ألفين ، وأنزله المدينة (١) .

وإننا لنخلص من هذا الخـبر بمواقف عظيمـة نلاحظ منها تواضع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حيث نام وحده في المسجد بلا فراش وهو أمير المؤمنين وحاكم أعظم دولة في العالم آنذاك ، وإن هذا دليل على منتهى التواضع والتجرد من حظ النفس .

إن تصور هذا المشهد لَيوحِي لنـا بتفوق أخلاقي لانظير له إلا في حياة الأنـبياء عليهم السـلام والصديقين ، فما الذي حـمله على كبح جماح نفسه نحو الترفع والعلو وهو يملك جميع مقومات ذلك ؟

وما الذي حـمله على حيـاة الزهد حتى أصبح يقـوى على النوم على الأرض وهو يملك استخدام الفرش الوثيرة والأثاث الفاخر ؟

وما الذي حـمله على أن يرضى لنفـسه أن ينام في المسـجد وهو الذي يملك بناء أفـخم القصـور ، واختـيار أبعـد الأماكن عن الجلـبة والضجيج ؟

إنه الإيمان الراسخ واليـقين القوي بأن مـاعند الله خير مـن الدنيا ومافيـها، وأن حياة الزهد والتواضع هي الـتي تقرِّب من رضوان الله

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٨٥ - ٨٨ .

تعالى، وهو الهدف الإسلامي الواضح الذي أثنى الله به جل وعلا على أولئك الصحب الكرام ﴿ يبتغون فضلاً من الله ورضوانا ﴾ [الفتح : ٢٩]

ثم ما الذي أعطاه الأمان والسلامة حتى ينام وحده في المسجد وهو الذي دوّخ أمم الأرض وانتزع ملكهم ، ومرّغ سمعتهم في التراب، وأذلّ المنافقين ، وحملهم على منتهى التستر والاختفاء ، وأخذ الحق من الظالمين، وأوطأهم على الاستقامة حتى أصبح لايطمع قويّ في باطل، ولايهاب محقّ من نيل حقه غير متعتع ولامستضعف؟

إن الذي أعطاه الأمان والطمأنينة هو إيمانه الكامل بقضاء الله وقدره، ثم عدله الذي أصبح مضرب الأمثال على مدار التاريخ، وإن كون العدل في الحكم محطُّ الأمان والسلامة أمر متفق عليه بين العقلاء، ولذلك قال الهرمزان لما رأى عمر نائما في المسجد: عدَلْتَ فأمنتَ فنمتَ، وذلك أن الحاكم العادل لايخشى من أمته أن يخونوه ، لأن جميع الذين ينشدون العدل من رعيته يصبحون حراسا أوفياء له ، وكذلك الذين تُستخلص حقوقهم على يديه فإنهم قد يُفنون أنفسهم من أجله، ويفدونه بكل ما يملكون ، أما الذين يُلزمهم بالحق من أصحاب الهوى والجنوح نحو الظلم فإن الله سبحانه يُنزل في قلوبهم مهابة من يحملهم على الحق والرهبة منه ، ثم لايلبث من أراد الله له الهداية منهم حتى يحبه من قلبه ويتمنى أن يفديه بنفسه وماله .

ولذلك نص الهرمزان على العدل وحده كسبب في أمن عمر الذي حمله على النوم في المسجد ، لأن الهرمزان وأمثاله من الكفار لايعرفون قضاء الله وقدره ولايؤمنون به .

ومع أن الهرمـزان قد نسب ذلك الأمن القوي إلى العـدل ، فإنه عبَّر بما يفيد بأنه حـتى مع العدل لايصل الأفراد العاديون إلى مثل هذا الأمن، ولذلك قـال عن عمـر : ينبـغي له أن يكون نبيـا ، وذلك لما تواتر في عرف الأمم أن الأنبياء عليهم السلام مـعصومون بحماية الله تعالى .

ومن المواقف العـالية في هذا الخبـر إعزاز الإسـلام وإذلال الكفر وأهله، وذلك يتمثل في المشاهد التالية :

١- قول عمـر حينما رأى الهرمزان وسـأله عنه : أعوذ بالله من النار وأستعين بالله ، فقد ذكـر النار حالاً لَمَّا رأى الهرمزان وهو بلباس الجبارين، وعمر يعلم أن الله تعالى أعد النار لمثل هؤلاء .كما جاء في الحديث الذي أخرجه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ : « تحاجَّت الجنة والنار ، فقـالت النار : أُوثرت بالمتكبرين والمتـجـبرين ، وقـالت الجنة : مـالي لايدخلنـي إلا ضعـفـاء الناس وسقَطهم ، قال الله تبارك وتعالى للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عـبادي ، وقال للنار : إنما أنت عذابي أعـذب بك من أشاء من عبادي ، ولكل واحدة منهما ملؤها » (١) .

فأهل النار كما جاء في هذا الحديث المتكبرون وهم الذين يتعالون بأنفسهم عن قبول الحق ، ويحـتقرون من هم دونهم في مظاهر الدنيا

---

(١) صحيح البخاري ، التفسير رقم ٤٨٥٠ (٨/ ٥٩٥) ، صحيح مسلم ، كتاب الجنة رقم ٢٨٤٦ ، (ص ٢١٨٦) .

كمـا جاء في قول النبي ﷺ « الكبـر بطر الحق وغمط الناس »[1] ، والمتـجبـرون هم الطغـاة الذين تجاوزوا حـدودهم فـبغـوا في الأرض وظلموا .

أما أهل الجنة فـهم ضعفاء الناس وسـقطهم ، يعني في نظر أهل الدنيا لتواضعهم وزهدهم في مظاهر الدنيا التي يتنافس الناس عليها ، فتـسقط منزلتـهم عند أهل الكبـرياء والسرف ولكنهم عند الله تـعالى وعند المتقين منزلتهم عالية .

وفي قول عمر « وأستعين بالله » طلبُ العون من الله تعالى على مواجهة هذا الموقف والصبر في مخـاطبة المتصفين بصفات أهل النار ، وهذا إدراك إيماني رفـيع ، فالإنسـان مهـما كان من الـعقل والرفـعة ضعيف محدود الطاقة من غير عـون من الله تعالى ، فتذكُّر الاستعانة بالله جل وعلا في جـميع الأمور - وخاصـة المهم منها - يعتـبر من الفقه في الدين والرسوخ في الإيمان .

وفي ذكـر النار والاستـعاذة بالله منهـا إذلال للكفر وأهله حـيث يستـقر في الأذهان أن الكفـار مهمـا بلغوا من الرفـعة في الدنيـا فإن مصيرهم في الآخـرة إلى النار ، وماقيمة الدنيا المحـدودة الفانية بكل مافيها من رفعة وجبروت إذا كان مصير أهلها في دار الخلود إلى النار ، كمـا أن في ذلك إعزازاً للإسلام وأهلـه حيث يستـقر في الأذهان أن المسلم وإن كان فقيراً مستضعفًا في الدنيا فإن مصيره في دار الخلود إلى الجنة ، وإنما العبرة في ميزان العقلاء بدار الخلود لا بدار الفناء .

---

(١) صحيح مسلم ، الإيمان رقم ٩١(٩٢) .

٢ - قول عمر : « الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأشباهه» الخ فهذا صريح في بيان عزة الإسلام وأهله وأن الإسلام يُعز الله به المسلمين، ويذل به الكفر وأهله .

فالإسلام يمنح المسلم قوة عظمى يتفوق بها على جميع البشر حتى لو كان في مقام الضعف المادي،ولكن ضعف إيمان بعض المسلمين يجعلهم يشعرون بالذلة أمام الكفار ، فيكونون بواقعهم السيء المنافي للإسلام سببًا في اعتزاز الكفار وإيغالهم في الطغيان والجبروت .

وقد ركز عمر على الوصية بالتمسك بهذا الدين وعدم الاغترار بالدنيا ، وذلك لأن الاغترار بالدنيا والابتعاد عن هدي الله تعالى هو الذي جر الأمم إلى حياة السرف والترف ثم إلى الانهيار في الدنيا ، والهلاك في الآخرة .

٣ - قول عمر حينما طلب منه الوفد أن يكلم الهرمزان « لا ، حتى لايبقى عليه من حليته شيء » وهو بيان صريح في إذلال أبَّهة الدنيا ومظاهرها الكاذبة التي تكونت وتراكمت بسبب الكفر والبعد عن الصراط المستقيم ، ومادام الكفار يعتزون بهذه المظاهر ويعتبرون أنها مثبتة لوجودهم وملازمة لعزهم فليرفضها المؤمنون وليُظهروا عزة الإسلام الذي كرمهم الله به ، وليُلزموا الكفار برفض مظاهرهم التي يعتزون بها ما داموا يريدون المفاوضة والحوار مع المسلمين .

إن بقاء الكفار في مظاهر الأبهة من الملابس والمراكب والمساكن قد يجرُّ المسلمين إلى محاكاتهم في ذلك لئلا يكونوا أقل في أنظار الكفار وعامة المسلمين منهم ، وفي هذا انحراف خطير عن خط الاستقامة

الذي سار عليه الصحابة رضي الله عنهم بتوجيه النبي ﷺ وتربيته لهم، وإن بقاء المسلمين في مظهر أدنى من الكفار قد يضعف المسلمين أمامهم في حال الحوار والتفاوض على أمر من أمورهم المشتركة .

ولهذا وغيره من المعاني السامية رفض عمر رضي الله عنه أن يخاطب الهرمزان وهو في لباس الأبهة والكبرياء .

٤ - قوله « أنا أُؤَمِّن قاتل مَجْزأة والبراء ! » يعني مجزأة بن ثور والبراء بن مالك ، وهما بطلان من أبطال المسلمين مر ذكر شيء من مآثرهما فيما مضى ، ويكفي لمعرفة أثرهما في نصر الإسلام والنكاية بالأعداء أن كل واحد منهما قتل في معارك تُستَر مائةً من الأعداء مبارزة، وقد قتلهما الهرمزان لمَّا غامرا بالدخول من مخرج الماء مع مجموعة من الأبطال ، وكان الهرمزان ماهرًا في الرماية فأصابهما .

وفي ذكر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لهما إعزاز للمسلمين وتقدير لأهل التقدم والبلاء في الإسلام حيث اعتبر قتل الهرمزان لهما مانعا من العفو عنه .

٥ - قول عمر « خدعتني والله لا أنخدع إلا لمسلم » فيه إظهار لعزة الإسلام ، فالمسلم إذا خُدع من مسلم فانخدع له فليس في ذلك خفض لمنزلته ولا إهانة لكرامته كمسلم ، لأنه قد انخدع لأخيه في الإسلام، وهو وإياه يشكِّلان جزأين من جسم واحد ، فكرامته الإسلامية لم تُجرح، لأن من خدعه مسلم وكلاهما يعتز بالإسلام .

فأما حينما تكون الخديعة من كافر أو منافق فإن المقصود الأول بذلك هو إهانة الإسلام ، فلا يجوز لمسلم أن ينخدع لكافر حتى لو

خالف ماوعده فيه وما اتفق عليه معــه ، لأن الكافر سيعتز عليه بنصر مبدئه الكفري في مقابل هزيمة إسلامه .

وإنه لإلهام عظيم من الله تعالى لعمر ، وفقه دقيق في فهم الولاء والبراء، والعلاقات بين المسلمين والكفار .

ولما رأى ذلك الهرمزان أسلم فقبل عمر إسلامه وفرض له ألفين من العطاء ، وهكذا يظهر الفرق العظيم بين الكفر والإسلام ، فحينما كان كافرًا كان محكومًا عليه بالقتل لسيئاته التي ارتكبها ضد المسلمين، ولما أسلم كــان مــوضع التكــريم ، وفُــرض له من العطاء مــايفــرض للمسلمين .

عمر يستشير الهرمزان :

أخرج الإمام الطبري بإسناده عن زياد بن حُدَير قال : حدثني أبي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للهرمزان حين آمنه : لابأس ، انصح لي، قال : نعم ، إن فارس اليوم رأس وجناحان ، قال : وأين الرأس؟ قال : بنهاوند مع بندار فإن معه أساورة كسرى وأهل أصبهان قال: وأين الجناحان؟ فذكر مكانا نسـيته ، قال : فاقطع الجناحين يَهُن الرأس ، فـقال عـمـر : كذبـت ياعدو الله ، بل أعـمـد إلى الرأس فأقطعه، فإذا قطعه الله لم يعص عليَّ الجناحان (١) .

فهذا مـثال مهم لليـقظة والنباهة وأخذ الحيطة والحـذر من أعداء الإسلام وإن أسلمـوا ظاهرًا ، فالإسـلام يعصم دمـاءهم وأموالهم ، ويكفل لهم سـائر حقوقـهم ، ولكن لايترتب على ذلك وضع الثـقة

(١) تاريخ الطبري ٤/١١٧ .

بهم، حتى يتبين بجلاء ويقين صدق إيمانهم ، لأن صدق الإيمان يقتضي البراءة التامة من الكفار ، والولاء التام للمسلمين ، ومن كانت هذه حاله لايُنتظر منه أن يغش المؤمنين ، أما عند الشك في ذلك فإن أخذ الحيطة والحذر واجب حتى لا يُؤتَى المسلمون على غرَّة من أعدائهم .

* * *

٥ - فتح مدينة جُنْدَيْ سابور -

أخرج الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن شيوخه قالوا: لما فرغ أبو سبرة - يعني ابن أبي رهم - من السوس - يعني من فتح بلاد السوس -خرج في جنده حتى نزل على « جُنْدَيْ سابور » وَزِرُّ بن عبد الله بن كليب محاصرهم ، وأقاموا عليها يغادونهم ويراوحونهم القتال، فمازالوا مقيمين عليها حتى رُمي إليهم بالأمان من المسلمين ، وكان فتحها وفتح نهاوند في مقدار شهرين ، فلم يفجأ المسلمين إلا وأبوابها تُفتح ، ثم خرج السرح ، وخرجت الأسواق ، وانْبثَّ أهلها، فأرسل المسلمون أن مالكم ؟ قالوا : رمَيْتم إلينا بالأمان فقبلناه ، وأقررنا لكم بالجزاء على أن تمنعونا ، فقالوا : مافعلنا ، فقالوا : ماكذبنا فسأل المسلمون فيما بينهم ، فإذا عبد يُدعَى مكنَفًا كان أصله منها ، هو الذي كتب لهم ، فقالوا : إنما هو عبد ، فقالوا: لا نعرف حُرَّكم من عبدكم، قد جاء أمان فنحن عليه قد قبلناه ولم نبدِّل فإن شئتم فاغدروا ، فأمسكوا عنهم ، وكتبوا بذلك إلى عمر ، فكتب إليهم : إنَّ الله تعالى عظَّم الوفاء، فلا تكونوا أوفياء حتى تفوا، مادمتم في شك أجيزوهم وَفُوا لهم، فوفوا لهم وانصرفوا عنهم[1] .

أقول : وإن هذا مثل عظيم من أمثلة تحري المسلمين ودقتهم في إبراء الذمة ، واجتناب الظلم ، والظهور أمام العالَم في صفحة بيضاء ليس في ثناياها ما يسوِّدها ويشوِّه بهاءها .

ولقد كان المسلمون مترددين بين أن يُمضوا ذلك الأمان الذي قام

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٩٣ - ٩٤ .

به رجل واحد منهم كان أصله من أهل تلك البلدة ، وقد صنع شيئًا أراد به نفع قومه ، وبين أن يعتبروا أن ذلك الأمان لم يكن عن مشورة منهم ولا قرار من أميرهم فليلغوه ، ولكن قطع ذلك التردد أمر عمر رضي الله عنه القاطع بإمضاء ذلك الأمان ، وهذا يدل على شدة ورعه ودقة نظره وتقديره لعواقب الأمور ، وخوفه الشديد من أن يقع المسلمون في شيء من ظلم أعدائهم فيكون سببا في إدالتهم عليهم عقوبة لهم على الظلم.

وهذا وأمثاله يبين لنا تفوق المسلمين الشاسع في مجال مكارم الأخلاق على جميع أعدائهم من الكفار .

ولاشك أن هذا التفوق الأخلاقي كان من الدوافع الأساسية لدخول الكفار في الإسلام بتلك الكثافة والسرعة المذهلة .

ولاننسى التنويه بتثبت المسلمين وأناتهم حيث لم يغتنموا فرصة فتح الأبواب في هجوم مباغت على أعدائهم لأنهم يدرؤون الناس عن القتال ما أمكنهم ذلك ، فهم هداة للبشرية ، وليسوا توّاقين لسفك الدماء ، وإنما يلجئون إلى ذلك اضطرارًا ، حينما يتحكم الطغاة في مصائر الشعوب ويحولون بينهم وبين إبصار نور الهداية ، فلابد والحالة هذه من إزاحة تلك العراقيل التي تحجب الرؤية وتهيمن على عقول الناس المغلوبين على أمرهم ليبصروا الأمور على حقيقتها حينما يكونون أحرارًا في تفكيرهم .

– النعمان ومدينة « كسكر » –

أخرج الإمام الطبـري رحمه الله من حديث أبي وائـل رحمه الله قال: كان النعمان بن مُقرِّن رضي الله عنه على «كسكر» - يعني واليا عليهـا- فكتب إلى عمـر رضي الله عنه : مَثَلي ومـثَل كسكر كـمثل رجل شابٍّ وإلى جنبه مُومِسة تَلَوَّن له وتعطَّر ، فأنشُدك الله لما عزلتني عن كسكر ، وبعـثتني إلى جـيش من جيوش المسلـمين، قال: فكتب إليه عمر: أن ائت الناس بنهاوند ، فأنت عليهم [1] .

وهذه همة عـالية وتطلُّع كـبيـر ، فالنعمـان لايريد إدارة منصب يكتـسب منه الجاه في الدنيـا ، وهو وإن كان سـيحصل عـلى الأجر الأخروي بمشـيئـة الله تعالى ، لأنه ممن يريـدون بعملهم وجـهه جل وعلا، إلا أنه يريد عملاً أكثر مشـقة وأعظم تضحية ، وبالتالي يكون أكثر أجرًا في الآخرة .

إن الآخرة هي مـيزان أعمالهم ، فـلا يستريحـون إلا في العمل الذي يضمن لهم أكبر قدر من رضوان الله تعالى ، وثوابه العظيم في الآخرة .

ولذلك نجدهم يتسابقون إلى الجـهاد ، لما فيه من الأجر العظيم ، ولما ينطوي عليه من احتمال الحصول على الشهادة التي هي غاية أماني المؤمنين الصادقين .

* * *

(١) تاريخ الطبري ١٢٦/٤ .

٦ - مشكلة وحلها -

(شكوى أهل الكوفة سعد بن أبي وقاص)

اجتمع نفر من أهل الكوفة بزعامة الجراح بن سنان الأسدي فشكوا أميرهم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إلى أمير المؤمنين عمر، وذلك في حال اجتماع المجوس في نهاوند لغزو المسلمين ،فلم يَشْغلهم مادَهَم المسلمين من ذلك .

ولقد كان سعد عادلاً رحيما بالرعية قويّا حازمًا على أهل الباطل والشقاق ، عطوفًا على أهل الحق والطاعة ، ومع ذلك شغب عليه هؤلاء القوم ، ممن لايطيقون حكم الحق ويريدون أن يحققوا شيئًا من أهوائهم .

وقد وقَّتوا لشكواهم وقتًا رأوا أنه أَدْعَى لسماع أمير المؤمنين منهم حيث كان المسلمون مقبلين على معركة مصيرية تستدعي اتفاق كلمة المسلمين وتظافر جهودهم في مواجهتها ، وحيث كانوا يعلمون اهتمام عمر الشديد باجتماع كلمة المسلمين دائمًا ، وخاصةً في مثل تلك الظروف، فرجَوا أن يفوزوا ببغيتهم .

وقد استجاب أمير المؤمنين لطلبهم في التحقيق في أمر شكواهم مع علمه بأنهم أهل هوى وشر ، ولم يكتمهم اعتقاده فيهم ، بل صرَّح لهم بذلك، وبين لهم أن اعتقاده بظلمهم لواليهم وتزويرهم الحقائق لايمنعه من التحقيق في أمرهم ، واستدل على سوء مقصدهم بتوقيتهم السيء حيث قال لهم : « إن الدليل على ماعندكم من الشر نهوضكم في هذا الأمر وقد استعدَّ لكم من استعدوا ،وايم الله لا

يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم وإن نزلوا بكم » .

فبعث عمر محمد بن مسلمة والناس في الاستعداد للأعاجم ، والأعاجم في الاجتماع ، - وكان محمد بن مسلمة هو صاحب العمال الذي يقتص آثار من شُكي زمان عمر - فقدم محمد على سعد ليطوف به في أهل الكوفة ، والبعوث تُضرب على أهل الأمصار إلى نهاوند ، فطوّف به على مساجد أهل الكوفة ، لايتعرض للمسألة عنه في السر، وليست المسألة في السر من شأنهم إذ ذاك » .

وفي هذا بيان لمنهج الصحابة رضي الله عنهم في التحقيق في قضايا الخلاف التي تجرى بين المسئولين ومن تحت ولايتهم ، فالتحقيق يتم في العلن ، وذلك بحضور المسئول والذين هو مسئول عنهم .

وكان لايقف على مسجد فيسألهم عن سعد إلا قالوا : لانعلم إلا خيرا ولانشتهي به بدلا ، ولانقول فيه ولانعين عليه ، إلا من مالأ الجراح بن سنان وأصحابه فإنهم كانوا يسكتون لايقولون سوءا ، ولايسوغ لهم، ويتعمَّدون ترك الثناء ، حتى انتهوا إلى بني عبس . فقال محمد : أنشد بالله رجلا يعلم حقا إلا قال ، قال أسامة بن قتادة : اللهم إن نشدتنا فإنه لايَقْسم بالسَّوية ، ولايعدل في الرعية ، ولايغزو في السرية ، فقال سعد : اللهم إن كان قالها كذبًا ورئاء وسمعة فأَعْم بصره ، وأكْثر عياله، وعرِّضه لمُضلاَّت الفتن ، فعمي ، واجتمع عنده عَشْر بنات ، وكان يسمع بخبر المرأة فيأتيها حتى يجسَّها، فإذا عُثر عليه قال : دعوة سعد الرجل المبارك .

قال : ثم أقبل - يعني سعد - على الدعاء على النفر ، فقال :

اللهم إن كانوا خرجوا أشَراً وبطرا وكذبا فاجهد بلاءهم ، فجُهد بلاؤهم، فقطِّع الجراح بالسيوف يوم ثاور الحسن بن علي ليغتاله بساباط ، وشُدخ قبيصة بالحجارة ، وقتل أَرْبَدُ بالوَجْء - يعني الضرب- بنعال السيوف - يعني بأعقابها - .

هذا وإن في هذا الخبر نموذجًا من معية الله تعالى لأوليائه المتقين حيث استجاب الله تعالى دعوة سعد على من ظلموه فأصيبوا جميعًا بما دعا عليهم به .

وإن في استجابة الله تعالى دعاء سعد وأمثاله لونًا من العناية الإلهية بأولياء الله المتقين ، فكم خاف المبطلون من هذا السلاح الخفي الذي لايملكون بكل وسائلهم المادية مقاومته ولا الحدَّ منه .

وكون هؤلاء الذين دعا عليهم سعد خُتم لهمْ بالخاتمة السيئة دليل على تمكن الهوى والشر من نفوسهم حتى أدى بهم ذلك إلى المصير السيء .

ودافع عن نفسه سعد فقال : إني لأول رجل أهرق دمًا من المشركين، ولقد جمع لي رسول الله ﷺ أبويه ، وماجمعهما لأحد قبلي- يعني حينما قال له يوم أحد : إرم فداك أبي وأمي - ولقد رأيتني خُمُس الإسلام ، وبنو أسد تزعم أني لا أحسن أن أصلي وأن الصيد يلهيني .

قال: وخرج محمد به وبهم إلى عمر حتى قدموا عليه فأخبره الخبر، فقال : ياسعد ويحك كيف تصلي ؟ قال : أطيل الأُولَيَيْن وأحذف الأخريين ، فقال هكذا الظن بك .

ثم قـال : لولا الاحـتيـاط لكان سـبـيلهم بيِّنا ، ثم قـال : من خليفتك ياسعد على الكوفة ؟ فقـال : عبد الله بن عبد الله بن عِتبان فأقره واستعمله» (١) .

وقول عـمر رضي الله عنه « لولا الاحتـياط لكان سبـيلهم بينا » يعني قد اتضح أمرهم ، وأنهم ظالمون جـاهلون ، وظهرت براءة سعد مما نسبوه إليه ، ولكن الاحتياط لأمـر الأمة يقتضي درء الفتن وإماتتها وهي في مهدها قبل أن تستفحل فتسبِّب الشقاق والفرقة وربما القتال .

وإذا كان من أسباب القضاء على الفتنـة تغيير المسئول فليتمَّ ذلك وإن كان المسئول المدَّعى عليه بريئًـا مما نُسب إليه ، فإن ذلك لا يضيره بشيء وقد برئت ساحته مما نُسب إليه من التهـمة ، وقد كانوا يفهمون الولاية مغرما لامغنما ، وتكليفا يرجون به ثواب الله تعالى ، فالولاية على أمـر من أمور المسلمين نوع مـن الأعمـال الصالحـة لمن اتقى الله تعالى وأراد رضوانه والدار الآخرة ، فإذا تحـول هذا العمل إلى مصدر للفتنة فإن الحكمة تقتضي عدم الاستمرار فيه ، كما هو الحال في هذه الواقعة ، ولكل حـادث حديث ، وهذا هو ما أقدم عليه عمـر حينما أعفى سـعدًا من العمل ، وكلَّف نائبـه الذي هو موضع ثقة سـعد ، حـيث أدرك عمـر أن الذين تقدمـوا لشكاية سعـد أصحـاب هوى ، وليسوا طلاب حق، ومن كانوا كذلك فإنهم سيستمرون في المشاغبة، وسيؤلِّبون معهم من هم على شاكلتهم ، فيحدثوا فرقة في الجماعة ، وذلك يؤثر عـلى وجـود المـسلمين وتماسكـهم سـواء فـي السلم أو الحرب .

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٢٠ - ١٢٢ .

أما إذا كـانوا مجـتهدين في طلـب الحق فمن السهل إقنـاعهم بما يتـفق مع كتـاب الله تعالى وسنة نبـيه ﷺ حـيث إنهمـا المرجع عند التنازع، ثم لن تحصل بعد ذلك فتنة ببقاء المسئول المدَّعى عليه .

* * *